كتاب الأربعين في أصول الدين

للامام الهمام حجة الاسلام

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

قال في كشف الظنون: وهو قسم من كتابه المسمى بجواهر القرآن * وقد أجاز أن يكتب مفرداً فكتبوه وجعلوه كتاباً مستقلا . لهذا طبعناه مستقلا

الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ

على نفقة الرحالة البحاثة المنقب عن الاسفار النفيسة

محيي الدين صبري الكردي

المطبعة العربية بمصر لصاحبها خير الدين الزركلي

بشارع المزين . بالموسكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين *

﴿أما بعد﴾ ولعلك تقول هذه الآيات التي أوردتها في القسم الثاني تشتمل على أصناف مختلطة من العلوم والاعمال فهل يمكن تمييز مقاصدها وشرح جملها على وجه من التفصيل والتحصيل يمكن التفكر في كل واحدة منها على حيالها ليعلم الانسان تفصيل أبواب السعادة في العلم والعمل ويتيسر عليه تحصيل مفاتيحها بالمجاهدة والتفكر ﴿فأقول﴾ نعم ذلك يمكن فانه ينقسم جمل مقاصدها الى علوم وأعمال * والاعمال تنقسم إلى ظاهرة وباطنة * والباطنة تنقسم إلى تزكية وتحلية * فهي أربعة أقسام: علوم وأعمال ظاهرة وأخلاق مذمومة تجب التزكية عنها * وأخلاق محمودة تجب التحلية بها * وكل قسم يرجع الى عشرة أصول واسم هذا القسم ﴿كتاب الاربعين في أصول الدين﴾ فمن شاء أن يكتبه مفرداً فليكتب فانه يشتمل على زبدة علوم القرآن *

﴿القسم الاول في جمل العلوم وأصولها وهي عشرة﴾

الأصل الأول في الذات

﴿ فنقول ﴾ الحمد لله الذي تعرف الى عباده بكتابه المنزل على لسان نبيه المرسل بأنه في ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، صمد لا ضد له ، متوحد لا ند له ، وأنه قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له . لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآماد وانقراض الآجال . بل هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ٭

الأصل الثاني في التقديس

وأنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وانه لا يماثل الاجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الاعراض بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء ٭ وانه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الاقطار ، ولا تحيط به الجهات ،

ولا تكتنفه السموات ، وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والتحول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شي. الى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء * بل هو رفيع الدرجات على العرش كما أنه رفيع الدرجات على الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب الى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد. اذ لا يماثل قربه قرب الاجسام كما لا يماثل ذاته ذات الاجسام ، وانه لا يحل فى شيء ، ولا يحل فيه شيء ، تعالى عن ان يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وانه باين بصفاته من خلقه ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته ، وأنه مقدس عن التغيير والانتقال لا تحله الحوادث ، ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ، وانه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالابصار نعمة منه ولطفا بالابرار فى دار القرار ، وإتمـاما للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم *

الأصل الثالث في القدرة

وانه حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وانه ذوالملك والملكوت والعزة والجبروت ، له القدرة والسلطان والقهر والخلق والامر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون فى قبضته وانه المتفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالايجاد والابداع خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الامور . لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته ه

الأصل الرابع في العلم

وانه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى في تخوم الارضين الى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا فى السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر

بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالتحول والانتقال *

الأصل الخامس الإرادة

وانه مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليل ولا كثير ولا صغير ولا كبير ، خير أو شر نفع أو ضر ، ايمان أو كفر ، عرفان ، أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، الا بقضائه وقدره وحكمه ومشيته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وارادته لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيته عجزوا عن ذلك * وان ارادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها مريداً في أزله لوجود الاشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وارادته من غير

تبدل ولا تغير . دبر الامور بلا ترتيب أفكار وتربص زمان — فلذلك لا يشغله شأن عن شأن *

﴿ اعلم ﴾ أن هذا المقام مزلة الاقدام . ولقد زلت فيه أقدام الاكثرين لان تمام تحقيقه مستمد من تيار بحر عظيم وراء بحر التوحيد وهم يطلبونه بالبحث والجدال . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ما ضل قوم بعد هدى الا أوتوا الجدل﴾ ويستدلون بآيات القرآن مأولين وليسوا من أهل التأويل، ولو نال كل واحد مقام التأويل لما قال صلى الله عليه وسلم داعيا لابن عباس رضى الله عنهما ﴿ اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ﴾ ولما قال يعقوب ليوسف على نبينا وعليهما السلام ﴿ كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ﴾ قال صاحب الكشاف في تفسيرها : يعني معانى كتب الله وسنن الانبياء عليهم السلام ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها تفسرها لهم وتشرحها ، وتدلهم على مودعات حكمها *

وانما زلت أقدام الاكثرين في هذا المقام لانهم يتبعون الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم . وهؤلاء ليسوا براسخين فيه بل هم قاصرون عاجزون فلقصورهم لم يطيقوا ملاحظة كنه هذا الامر .

فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمراته بلجام المنع مع سائر القاصرين.
فقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون *

عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر . فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه الشريف ، فقال ﴿ أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الامر . عزمت عليكم في هذا الامر أن لا تنازعوا فيه ﴾

وعن أبي جعفر قال قلت ليونس بن عبيد مررت بقوم يختصمون في القدر ، فقال لو همتهم ذنوبهم ما اختصموا في القدر ، وامتلأ مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله ، وكان زيتهم صافياً حتى يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فاشتعل نوراً على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الامور كما هى عليه ، فقيل لهم تأدبوا بآداب الله واسكتوا وإذا ذكر القــدر فأمسكوا — فلذلك أمسك عمر لما سئل عن القدر فقال للسائل بحر عميق لا تلجه ولما كرر السؤال فقال طريق مظلم لا تسلكه ، ولما كرر ثالثاً فقال سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه. ومن أراد معرفة أسرار الملكوت فليلازم بابهم بالمحبة والاخلاص والصدق والاعراض عن أعدائهم ، والامتثــال بأوامرهم والسعى فيما يرضيهم — وكذلك من أحب

معرفة أسرار الربوبية فليلازم باب الله عز وجل بالمحبة والاخلاص والصدق والتعظيم والحياء والامتثال بالاوامر والانتهاء عن المعاصي والمجاهدة والاقبال بكنه الهمة والتعرض لنفحاته لقوله عليه السلام ﴿إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها﴾ والسعي فيما يرضى وان لم يطق ذلك فعليه ان يعتقد في هـذا البحث ما عليه أبو حنيفة رحمه الله واصحابه ، حيث قالوا احداث الاستطاعة في العبد فعل الله ، واستعمال الاستطاعة المحدثة فعل العبـد حقيقة لا مجازاً *

﴿والقدرية﴾ انكروا قضاء الله ورأوا الخـير والشر من أنفسهم أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح . ولكنهم ضلوا إذ نسبوا العجز الى الله تعالى في ضمن ذلك ولم يدروا

﴿والجبرية﴾ اعتمدوا على القضاء ورأوا الخير والشر من الله ولم يروا من أنفسهم فعلا كما لم يروا من الجمادات أرادوا بذلك تنزيه الله تعالى عن العجز فضلوا إذ نسبوا الظلم اليه تعالى في ضمن ذلك وأضـلوا سـفهاءهم ، فكانوا يعصون الله وينسبون الى الله ويبرئون أنفسـهم عن الذم واللوم كالشيطان حيث قال : فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم

﴿فالحاصل ان القدرية﴾ أثبتوا الاختيار الكلي للعبـد في

جميع أفعال العباد وانكروا قضاء الله تعالى وقدره بالكلية في الافعال الاختيارية

﴿والجبرية﴾ نفوا الاختيار بالكلية في أفعال العباد واعتمدوا على القضاء والقدر فينبغي للباحث معهم أن يضربهم ويمزق ثيابهم وعمائمهم ويخدش وجوههم وينتف أشعارهم وشواربهم ولحاهم ويعتذر بما اعتذر هؤلاء السفهاء في سائر أفعالهم القبيحة الصادرة منهم

﴿والمعتزلة﴾ أضافوا الشر فقط الى أنفسهم، فأثبتوا لانفسهم الاختيار الكلي تحرزاً عن نسبة القبح والظلم الى الله ولكن نسبوا الى الله العجز في ضمن ذلك ولم يدروا . فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

﴿وأما أهل السنة﴾ والجماعة فتوسطوا بينهم فلم ينفوا الاختيار عن انفسهم بالكلية ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكلية بل قالوا افعال العباد من الله من وجه ومن العبد من وجه وللعبد اختيار في ايجاد أفعاله .

﴿واعلم﴾ أن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه قضاء الطاعات، وقضاء المعاصي، وقضاء النعم، وقضاء الشدائد . والمذهب المستقيم

في ذلك اذا قضى للعبد الطاعة فعليه أن يستقبله بالجهد والاخلاص حتي يكرمه الله بالتوفيق والهداية لقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ يعنى الذين جاهدوا في طاعتنا وفي ديننا لنوفقنهم لذلك. واذا قضى المعصية فعليه أن يستقبله بالاستغفار والتوبة والندامة من صميم الفؤاد لقوله تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ واذا قضى النعمة فعليه أن يستقبله بالشكر والسخاء حتى يكرمه بالزيادة لقوله تعالى ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ﴾ واذا قضى الشدة فعليه أن يستقبله بالصبر حتى يعطيه الكرامة في الدار الاخرة لقوله تعالى ﴿ إن الله يحب الصابرين ﴾ وقال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وذكر الفاضل الامام مولانا علاء الدين في شرحه للمصابيح الفرق بين القضاء والقدر هو أن القضاء وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ اجمالا لا تفصيلا . والقدر هو تفصيل قضائه السابق بايجادها في المواد الخارجية واحداً بعد واحد. وقيل القضاء هو الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، والقدر تعلق تلك الارادة بالاشياء فى اوقاتها الخاصة. ثم إن المسلمين فى القدر على اختلاف :

﴿ منهم ﴾ من ذهب الى أن كل ما يجرى فى العالم من الخير

والشر والافعال والاقوال بقضاء الله وقدره ولا اختيار للعباد فيه ويسمى هذا القوم جبرية . والجبر هو القهر والاكراه فيقولون أجبر الله عباده على أقوالهم وأفعالهم من غير اختيار منهم فيها. ويزعمون أن اضافتها اليهم اضافتها الى الجمادات في مثل قولنا دارت الرحا وجرى الميزاب . وهذا المذهب باطل لانهم ان قالوا هذا القول ليسقطوا عن أنفسهم التكاليف. وشبهوا أنفسهم بالصبيان والمجانين في عدم جريان الخطاب بهم ، فقد كفروا لان مذهبهم يفضي الى ابطال الكتب والرسل، وإن قالوا ذلك لتعظيم الله وتحقير أنفسهم وعجزهم عن دفع قضاء الله ، فهم مبتدعون لمخالفتهم الاجماع

﴿ ومنهم ﴾ من ذهب الى أن كل ما يصدر عن العباد عقيب قصدهم وارادتهم يكون واقعاً بقدرتهم واختيارهم ولا يتعلق بها بخصوصها قدرة الله وارادته . ويسمى هؤلاء قدرية لنفيهم القدر لا لاثباتهم — وهذا المذهب أيضاً باطل لانهم إن قالوا هذا القول عن اعتقاد جواز العجز عن التقدير لله تعالى فهم كافرون ٥ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ٥ وان قالوا عن خطأ اجتهاداتهم وتنزيه الحق عن تقدير أفعالهم القبيحة وخلقهـا فهم مبتدعون لمخالفتهم الاجماع .

﴿ ومن هذه الطائفه ﴾ من يقول الخير بتقدير الله والشر

ليس بتقديره (والمذهب الحق) هو أن المؤثر مجموع القدرتين قدرة الله وقدرة العباد . فالافعال الصادرة عن العباد كلها بقضاء الله وقدره . ولكن للعباد اختيار ، فالتقدير من الله والكسب من العباد — وهذا المذهب وسط بين الجبر والقدر — وعليه أهل السنة والجماعة : انتهى كلامه

وذكرنا[١] ﴿ في كتاب المقصد الاقصى ﴾ تدبير رب الارباب ومسبب الاسباب أصل وضع الاسباب ليتوجه الى المسببات حكمه ونصبه الاسباب الكلية الاصلية الثابتة المستقرة التى لا تزول ولا تحول كالارض والسموات السبع والكواكب والافلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التى لا تتغير ولا تنعدم الى أن يبلغ الكتاب أجله ، قضاؤه كما قال ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ وتوجيهه هذه الاسباب بحركاتها المناسبة المحدودة المقدرة المحسوبة الى مسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره . فالحكم هو التدبير الاول الكلى والامر الازلى الذي هو كلمح البصر ﴿ والقضاء ﴾ هو الوضع الكلى للاسباب الكلية الدائمة ﴿ والقدر ﴾ هو توجيه

---

(١) كذا في النسخ التى قوبلت عليها الطبعة الاولى وفي نسخة الخزانة «النورية» : قال الامام حجة الاسلام الغزالى رحمة الله عليه في كتاب المقصد الاقصى الخ .

الاسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوبة الى مسبباتها المعدودة
المحدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص — ولذلك لا يخرج شيء
عن قضائه وقدره . ولا تفهم ذلك الا بمثال ولعلك شاهدت
صندوق الساعات التي بها تتعرف أوقات الصلوات وان لم تشاهده
فجملة ذلك انه لا بد فيه من آلة على شكل اسطوانة تحوي مقداراً
من الماء معلوما . وآلة أخرى مجوفة موضوعة فيها فوق الماء وخيط
مشدود أحد طرفيه في هذه الآلة المجوفة ، وطرفه الآخر في أسفل
ظرف صغير موضوع فوق الآلة المجوفة وفيه كرة وتحته طاس بحيث لو
سقطت الكرة وقعت في الطاس وسمع طنينها ثم تثقب أسفل الآلة
الاسطوانية ثقبا بقدر معلوم ينزل الماء منه قليلا قليلا. فاذا انخفض الماء
انخفضت الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء فامتد الخيط المشدود بها
فحرك الطرف الذي فيه الكرة تحريكا يقربه من الانتكاس الى أن ينتكس
فيتدحرج منه الكرة وتقع في الطاس وتطن وعند انقضاء كل ساعة
تقع واحدة . وانما يتقدر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء
وانخفاضه — وذلك بتقدير سعة الثقب الذي يخرج منه الماء .
ويعرف ذلك بطريق الحساب ، فيكون نزول الماء بمقدار مقدر
معلوم بسبب تقدير سعة الثقبة بقدر معلوم . ويكون انخفاض أعلى
الماء بذلك المقدار[1] وبه يتقدر . وانخفاض الآلة المجوفة وانجرار

الخيط المشدود بها ، وتولد الحركة في الظرف الذى فيـه الكرة . وكل ذلك يتقدر بتقدر سببه لا يزيد ولا ينقص ويمكن أن يجعل وقوع الكرة في الطاس سبباً لحركة أخرى، وتكون الحركة الاخرى سبباً لحركة ثالثة — وهكذا الى درجات كثيرة حتى يتولد منها حركات عجيبة مقدرة بمقادير محدودة ، وسببها الاول نزول الماء بقدر معلوم

فاذا تصورت هــذه الصورة ﴿ فاعــلم ﴾ أن واضعها يحتاج الى ثلاثة أمور ﴿ أولها ﴾ التدبير وهو الحكم بانه ما الذى ينبغي أن يكون من الآلات والاسباب والحركات حتى يؤدي الى حصول ما ينبغى أن يحصل ، وذلك هو الحكم ﴿ والثانى ﴾ إيجاد هذه الآلات التي هي الاصول . وهي الآلة الاسطوانية لتحوى الماء والآلة المجوفة لتوضع على وجه الماء ، والخيط المشدود بها والظرف الذى فيه الكرة والطاس الذى تقع فيه الكرة — وذلك هو القضاء

﴿ الثالث ﴾ نصب سـبب يوجب حركة مقـدرة محسوبة محدودة وهو ثقب أسفل الآلة ثقبة مقدرة السعة ليحدث بنزول الماء منها حركة في الماء تؤدى الى حركة وجه الماء بنزوله ، ثم الى حركة الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء ، ثم الى حركة الخيط،

ثم الى حركة الظرف الذي فيه الكرة ، ثم الى حركة الكرة ، ثم الى الصدمة بالطاس اذا وقع ، ثم الى الطنين الحاصل منها ، ثم الى تنبيه الحاضرين واسماعهم ، ثم الى حركاتهم في الاشتغال بالصلوات والاعمال عند معرفتهم بانقضاء الساعة . وكل ذلك يكون بقدر معلوم ومقدار مقدر بسبب تقدر جميعها بقدر الحركة الاولى ، وهي حركة الماء .

فاذا فهمت أن هذه الآلات أصول لابد منها للحركة ، وان الحركة لابد من تقدرها ليتقدر ما يتولد منها فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدر التى لا يتقدم منها شيء ولا يتأخر إذا جاء أجلهم [١] أى حضر سببها . وكل ذلك بمقدار معلوم ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا . فالسموات والافلاك والكواكب والارض والبحر والهواء وهذه الاجسام العظام في العالم كتلك الآلات . والسبب المحرك للافلاك والكواكب والشمس والقمر بحساب معلوم كتلك الثقبة الموجبة لنزول الماء بقدر معلوم . وافضاء حركة الشمس والقمر والكواكب الى حصول الحوادث في الارض كافضاء حركة الماء الى حصول تلك الحركات المفضية الى سقوط الكرة المعرفة لانقضاء الساعة . ومثال تداعي حركات السماء الى تغيير الارض هو أن الشمس بحركتها [١] إذا بلغت الى المشرق فاستضاء العالم

---

(١) وفي النسخة النورية : اجلها

(١) وفي النسخة النورية : بحركاتها

وتيسر على الناس الابصار . فيتيسر عليهم الانتشار في الاشغال .
فاذا بلغت المغرب تعذر عليهم ذلك فرجعوا الى المساكن . وإذا
قربت من وسط السماء وسامتت رؤوس أهل الاقاليم حمى الهواء
واشتد القيظ وحصل نضج الفواكه . واذا بعدت حصل الشتاء
واشتد البرد ، واذا توسطت حصل الاعتدال فظهر الربيع وأنبتت
الارض وظهرت الخضرة . وقس بهذه المشهورات التى تعرفها
الغرايب التى لاتعرفها . فاختلاف هذه الفصول كلها مقدرة بقدر
معلوم لانها منوطة بحركات الشمس والقمر ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾
أي حركتهما بحساب معلوم — فهذا هو التقدير . ووضع الاسباب
الكلية هو القضاء ، والتدبير الاول الذى هو كلمح البصر هو الحكم .
وكما أن حركة الآلة والخيط والكرة ليست خارجة عن مشية واضع
الآلة ، بل ذلك هو الذى أراده بوضع الآلة — فكذلك كل
ما يحدث فى العالم من الحوادث شرها وخيرها نفعها وضرها غير
خارج عن مشية الله تعالى بل ذلك مراد الله تعالى ولاجله دبر
أسبابه ، وهو المعني بقوله ولذلك خلقهم . وتفهيم الامور الالهية
بالامثلة العرفية عسير . ولكن المقصود من الامثلة التنبيه ، فدع
المثال وتنبه للغرض . واحذر من التمثيل والتشبيه *

الأصل السادس في السمع والبصر

وانه تعالى سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وان دق ، ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدقة ولا أجفان ويسمع من غير أصمخة ولا آذان كما يعلم من غير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ٭

الأصل السابع في الكلام

وانه متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم . قائم بذاته لا يشبه كلامه كلام الخلق كما لا يشبه ذاته ذوات الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء واصطكاك أجرام ، ولا حرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان، وأن القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله ، وان القرآن مقروء بالالسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ في القلوب وانه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال الى

القلوب والاوراق ، وان موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الابرار ذات الله سبحانه من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض . واذا كانت له هذه الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً بالحيوة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات ٭

الأصل الثامن في الأفعال

وانه لا موجود سواه الا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، وانه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى سبحانه فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما

فكل ماسواه من انس وجن وشيطان وملك وسماء وارض وحيوان ونبات وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وانشاءً بعد أن لم يكن شيئاً إذ كان في الازل موجوداً وحده ولم يكن معه غيره . فأحدث الخلق اظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من ارادته ولما حق فى الازل من كلمته وهي قوله (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف) لا لافتقاره اليه

ولا لحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لاعن وجوب ومتطول بالانعام والاصلاح لاعن لزوم ، فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادراً على أن يصب على عبـاده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والاوصاب ، ولو فعـل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحاً ولا ظلماً . وانه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والعدل لا بحكم الاستحقاق واللزوم . إذ لا يجب عليه فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لاحد عليه حق وان حقه في الطاعات وجب على الخلق بايجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤا به *

الأصل التاسع في اليوم الآخر

وأنه يفرق بالموت بين الارواح والاجسام ثم يعيدها اليها عند الحشر والنشور فيبعث من في القبور ويحصل ما في الصدور ، فيرى كل مكلف ماعمله من خير أو شر محضراً ويصادف دقيق ذلك وجليه مسطراً ، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ويعرف كل واحد مقدار عمله خيره وشره بمعيار صادق يعبر عنه بالميزان وان كان لا يساوى ميزان الاعمال ميزان الاجسام الثقال

كما لا يساوى الاصطرلاب الذي هو ميزان المواقيت ، والمسطرة التي هى ميزان المقــادير ، والعروض الذى هو ميزان الاشعار سائر الموازين ، ثم يحاسبهم على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم وضمائرهم ونياتهم وعقائدهم مما أبدوه أو أخفوه . فانهم يتفــاوتون فيه الى مناقش في الحساب والى مسامح فيه والى من يدخل الجنــة بغير حساب ، وانهم يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود بين منازل الاشقياء ومنازل السعداء . احدّ من السيف . وادق من الشعر . يخف عليه من استوى في الدنيا على الصراط المستقيم الذى يوازيه في الخفاء والدقة ، ويتعثر به من عدل عن سواء السبيل المستقيم الا من عفى عنه بحكم الكرم ، وانهم عند ذلك يسئلون فيسئل من شاء من الانبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ومن شاء من المبتدعة عن السنة ، ومن شاء من المسلمين عن أعمالهم . فيسئل الصادقين عن صدقهم ، والمنافقين عن نفاقهم . ثم يساق السعداء الى الرحمن وفداً ، والمجرمون الى جهنم وردا ، ثم يأمر باخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من الايمان ويخرج بعضهم قبل تمام العقوبة والانتقام بشفاعة الانبياء والعلماء والشهداء ، ومن له رتبة الشفاعة ، ثم يستقر أهل السعادة في الجنة منعمين أبد الآبدين ، ممتعين بالنظر الى وجه

الله تعالى ، ويستقر أهل الشقاوة فى النار مرددين تحت أنواع العذاب ، مبعدين عن النظر بالحجاب الى وجه الله تعالى ذي الجلال والاكرام *

الأصل العاشر في النبوة

وأنه تعالى خلق الملائكة وبعث الانبياء . وأيدهم بالمعجزات وأن الملائكة كلهم عباده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون . وأن الانبياء رسله الى خلقه وينتهي اليهم وحيه بواسطة الملائكة فينطقون عن وحي يوحى لاعن الهوى . وأنه بعث النبي الامي القرشي محمداً المصطفى صلى الله عليه وسلم برسالته الى كافة العرب والعجم والجن والانس فنسخ بشرعه الشرائع . وجعله سيد البشر ومنع كال الايمان بشهادة التوحيد وهو قوله[1] لا إله إلا الله مالم يقترن بها شهادة الرسول وهو قوله[2] محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به عنه في أمر الدنيا والآخرة وألزمهم اتباعه والاقتداء به فقال ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا﴾ فلم يغادر شيئاً

(١) و (٢) — وفي نسخة «قول» أي بغير هاء الضمير

يقربهم من الله سبحانه إلا أمرهم به ودلهم على سبيله . ولا شيئا يقربهم الى النار ويبعدهم عن الله تعالى إلا نهاهم عنه وعرفهم طريقه وان ذلك أمور لا يرشد اليها مجرد العقل والرأى والذكاء بل هى أسرار يكاشف بها من حظيرة القدس قلوب الانبياء . والحمد لله على ما أرشد وهدى وأظهر من أسمائه الحسنى . وصفاته العليا . والصلاة والسلام على محمد المصطفى خاتم الانبياء وعلى آله وأصحابه وسلم كثيراً آمين يارب العالمين ٭

خاتمة في التنبيه على الكتب التي تطلب فيها حقيقة هذه العقيدة

﴿ اعلم ﴾ أن ما ذكرناه هو الحاصل من علوم القرآن أعنى جمل ما يتعلق منها بالله واليوم الآخر وهى ترجمة العقيدة التى لابد أن ينطوى عليها قلب كل مسلم بمعنى أنه يعتقده ويصدق به تصديقا جزما ووراء هذه العقيدة الظاهرة رتبتان ﴿ احداهما ﴾ معرفة أدلة هذه العقيدة الظاهرة من غير خوض على أسرارها ﴿ والثانية ﴾ معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها . والرتبتان جميعاً ليستا واجبتين على جميع العوام ، اعنى ان نجاتهم في الآخرة غير موقوفة عليهما ، ولا فوزهم موقوف عليهما ، وإنما الموقوف عليهما كمال السعادة ، وأعني بالنجاة الخلاص من العذاب واعني بالفوز

الحصول على أصل النعيم ، واعنى بالسعادة نيل غايات النعيم ، فالسلطان اذا استولى على بلدة وفتحها عنوة ، فالذى لم يقتله ولم يعذبه فهو ناج وان أخرجه عن البلدة : والذي لم يعذبه ومع ذلك مكنه من المقام في بلدته مع أهله وأسباب معيشته فهو مع ذلك فائز بالنجاة . والذي خلع عليه وأشركه في ملكه واستخلفه في مملكته وامارته فهو مع النجاة والفوز سعيد . ثم زيادة درجات السعادات[1] لا تنحصر

واعلم ان الخلق في الآخرة ينقسمون الى هذه الاصناف بل الى اصناف اكثر منها . وقد شرحنا ما أمكن من شرحها في كتاب التوبة فاطلبه فيه ﴿ والرتبة الاولى ﴾ من الرتبتين وهي معرفة ادلة هذه العقيدة . وقد اودعناها الرسالة القدسية في قدر عشرين ورقة . وهي أحدفصول كتاب قواعد العقائد من كتاب الاحياء . وأما أدلتها مع زيادة تحقيق وزيادة تأنق في ايراد الاسئلة والاشكالات ، فقد أودعناها ﴿ كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ﴾ في مقدار مائة ورقة فهو كتاب مفرد برأسه يحوى لباب علم المتكلمين ، ولكنه أبلغ في التحقيق وأقرب الى قرع أبواب المعرفة من الكلام الرسمي الذي يصادف في كتب المتكلمين . وكل ذلك يرجع الى الاعتقاد

«١» وفي النسخة النوربة « السعادة »

لا الى المعرفة . فان المتكلم لا يفارق العامى إلا في كونه عارفا
وكون العامي معتقداً بل هو أيضاً معتقد عرف مع اعتقاده أدلة
الاعتقاد ليؤكد الاعتقاد ويستمره ويحرسه عن تشويش المبتدعة ولا
تنحل عقيدة[1] الاعتقاد الى انشراح المعرفة* فان أردت أن تستنشق
شيئاً من روائح المعرفة صادفت منها مقداراً يسيراً مثبوتا فى كتاب
الصبر والشكر، وكتاب المحبة وباب التوحيد من أول كتاب التوكل
وجملة ذلك من كتاب الاحياء ، وتصادف منها قدراً صالحاً يعرفك
كيفية قرع باب المعرفة فى كتاب (المقصد الاقصى فى معانى أسماء
الله الحسنى) — لا سيما فى الاسماء المشتقة من الافعال وان أردت
صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة من غير مجمجة ولا مراقبة، فلا
تصادفه إلا في بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها . وإياك أن
تغتر وتحدث نفسك بأهليته فتشرئب لطلبه ، فتستهدف للمشافهة
بصريح الرد إلا أن تجمع ثلاث خصال ﴿ احداها ﴾ الاستقلال في
العلوم الظاهرة ونيل رتبة الامامة فيها ﴿والثانية ﴾ انقلاع القلب عن
الدنيا بالكلية بعد محو الاخلاق الذميمة حتى لا يبقى فيك تعطش
الا الى الحق . ولا اهتمام الا به . ولا شغل إلا فيه ولا تعريج إلا
عليه ، ﴿ والثالثة ﴾ أن يكون قد أتيح لك السعادة فى أصل الفطرة
بقريحة صافية وفطنة بايغة لا تكل عن درك غوامض العلوم

﴿١﴾ وفى نسخة ((عقدة))

ومشكلاتها على سبيل البديهة والمبادرة فان البليد اذا أتعب خاطره وأكد نفسه ربما أدرك بعض الغوامض أيضاً ولكن يدرك منها شيئاً يسيراً في مدة طويلة فلن يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية الا قلب صاف كأنه مرآة مجلوة ، وانما يصير كذلك بقوة الفطرة وصحة القصد ، ثم بازالة كدورات الدنيا عن وجهه فانه الرين والطبع الذى يمنع الله به القلوب عن معرفته وان الله يحول بين المرء وقلبه

القسم الثانى

﴿ فى الاعمال الظاهرة وهي عشرة أصول ﴾

الأصل الأول في الصلاة

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ وقال النبي عليه السلام ﴿ الصلاة عماد الدين ﴾ واعلم أنك في صلاتك مناج ربك فانظر كيف تصلى ، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة والمقيمين لها فان الله تعالى إنما يأمر بالاقامة ويقول ﴿ أقم الصلاة وأقيموا الصلاة ﴾ وليس يقول صل أوصلوا ، ويثنى على المحافظين على الصلاة فيقول ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ : ﴿ الاول ﴾ المحافظة على الطهارة

بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة واسباغها أن يأتى بجميع سننها وأذكارها المروية عند كل وظيفة منها ويحتاط أيضاً فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطا لاينفتح عليه باب الوسواس فان الشيطان يوسوسه في الطهارة فيضيع اكثر أوقات العبادة

﴿ واعلم ﴾ أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب ، ثم طهارة القلب وهو اللب الباطن وطهارة القلب عن نجاسات الاخلاق المذمومة أهم الطهارة كما سنذكرها في القسم الثالث. لكن لا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضاً تأثير في اشراق نورها على القلب ، فانك اذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت فى قلبك انشراحا وصفاء كنت لا تصادفه من قبل — وذلك لسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . فان ظاهر البدن من عالم الشهادة . والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته . وانما هبوطه الى عالم الشهادة كالغريب عن جبلته وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب — ولذلك أمروا بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هي من عالم الشهادة ولذلك جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ومن الدنيا ، وقال : (حبب إليَّ من دنياكم ثلاث) الحديث ، فلا يستبعد أن

يفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن ، ففي بدائع صنع الله أمور أعجب من هـذا إذ قد عرف بالتجربة ان المجامع في حال المباشرة لو أدمن النظر الى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود الى ذلك اللون الذى غلب عليه وان الجنين أول ما يتحرك في البطن تميل صورته إلى الحسن ان كانت الام مشاهدة في تلك الحالة لصورة حسنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المباشر عند مباشرته أن يحضر في قلبه ارادة اصلاح المولود، ويدعو الله بذلك فيقول : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان عما رزقتنا حيث يفيض الله سبحانه مبادىء الصلاح على الروح التى يخلقها عند القاء البذر في محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث كما يفيض الله النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الاجسام المحاذية للمرآة ، وهذا الآن نقرع باباً عظيما من معرفة عجائب صنع الله فى الملك والملكوت . والى قريب منه يرجع سر الشفاعة فى الآخرة فلنجاوزه . فغرضنا الآن ذكر الاعمال دون المعارف ، وقد أشممناك شيئاً يسيراً من أسرار الطهارة الظاهرة . فان كنت لا تصادف بعد الطهارة واسباغ الوضوء شيئاً من الصفاء الذى وصفناه ، فاعلم ان الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات

شهوات الدنيا وشواغلها اقتضى كلال حس القلب فصار لا يحس بالطائف والاشياء الخفية اللطيفة ولم يبق فى قوته الا ادراك الجليات ان بقى ، فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته ـ فذلك اوجب عليك من كل ما انت فيه ٭

﴿ المحافظة الثانية ﴾ أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتى فيها بجميع السنن والآداب والهيئآت كما جمعناها في ﴿ كتاب بداية الهداية ﴾ فان لكل واحد منها سراً وله تأثير في القلب كما نبهنا عليه في تأثير الطهارة بل أشد وأبلغ وشرح ذلك يطول ، وأنت اذا أتيت بذلك انتفعت به وان لم تعلم أسراره كما ينتفع شارب الدواء بشربه وان لم يعرف طبائع اخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه

﴿واعلم﴾ أن الصلاة[1] صورة صورها رب الارباب كما صور الحيوان مثلا ، فروحها النية والاخلاص وحضور القلب ، وبدنها الاعمال، وأعضاؤها الاصلية الاركان، وأعضاؤها الكمالية الابعاض ، فالاخلاص والنية فيها يجرى مجرى الروح، والقيام والقعود يجرى مجرى البدن ، والركوع والسجود يجرى مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة يجرى مجرى حسن

(١) وفي نسخة « للصلاة »

الاعضاء ، وحسن أشكالها وألوانها ، والاذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة في الرأس والاعضاء كالعينين والاذنين وغيرهما ، ومعرفة معانى الاذكار وحضور القلب عندها يجرى مجرى قوة الحس المودعة في آلات الحس كقوة السمع وقوة البصر والشم والذوق واللمس في معادنها ه

﴿ واعلم ﴾ أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان باهداء وصيفة الى السلطان ﴿ واعلم ﴾ أن فقد النية والاخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة ، والمهدى للجيفة الميتة مستهزىء بالسلطان ، فيستحق سفك الدم ، وفقد الركوع والسجود يجرى مجرى فقد الاعضاء ، وفقد الاذكار يجرى مجرى فقد العينين من الوصيفة وجدع الانف والاذنين ، وعدم حضور القلب في غفلته عن معرفة معانى القرآن والاذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة والاذن ، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفة كيف يكون حاله عند السلطان ه

﴿ واعلم ﴾ أن قول الفقيه في الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها أنها صحيحة كقول الطبيب في الوصيفة المقطوعة أطرافها أنها حية وليست بميتة ، فان كان ذلك كافياً في التقرب بها الى السلطان ونيل الكرامة منه ﴿ فاعلم ﴾ أن الصلاة الناقصة صالحة أيضاً للتقرب

بها الى الله ونيل الكرامة وان أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر فلا يبعد مثل ذلك في الصلاة ، فانها ترد على المصلى كالخرقة الخلقة كما ورد في الخبر ﴿ واعـلم ﴾ أن أصل الصـلاة التعظيم والاحترام واهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام

﴿المحافظة الثالثة﴾ أن تحافظ على روح الصلاة وهى الاخلاص وحضور القلب في جملة الصلاة واتصاف القلب في الحال بمعانيها ، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك ، فان المراد خضوع القلب لا خضوع البدن ، ولا تقول ﴿الله اكبر﴾ وفى قلبك شىء اكبر من الله تعـالى ولا تقول ﴿وجهت وجهى﴾ إلا وقلبك متوجه بكل وجهه الى الله ومعرض عن غيره ، ولا تقول ﴿الحمد لله﴾ الا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر ، ولا تقول ﴿وإياك نستعين﴾ الا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك ، وأنه ليس اليك ولا الى غيرك من الامر شىء — وكذلك في جميع الاذكار والاعمال وشرح ذلك يطول ، وقد شرحناه في كتاب الاحياء فجاهد نفسك في أن ترد قلبك الى الصلاة حتى لا تغفل من أولها الي آخرها ، فانه لا يكتب للرجل من صلاته الا ما عقل منها . فان تعذر عليك الاحضار وما أراك الا كذلك ، فانظر فان كان قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة ولكن افهم أن النوافل جوابر

الفرائض ، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين ، فكلما زادت الغفلة زد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلا فى عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك فمن رحمة الله عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل ، فهذه أصول المحافظة على الصلاة

الأصل الثاني في الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هلك الاكثرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ﴾

﴿ فاعلم ﴾ أن انفاق المال في الخيرات أحد أركان الدين وانما سر التكليف به بعد ما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد . وسد الخلات والفاقات فان المال محبوب الخلق وهم مأمورون بحب الله ويدعون الحب بنفس الايمان ، فجعل بذل المال معياراً لحبهم وامتحانا لصدقهم فى دعواهم فان المحبوبات كلها تبذل لاجل المحبوب الاغلب حبه على القلب فانقسم الخلق فيه الى ثلاث طبقات

﴿ الطبقة الاولى ﴾ الاقوياء وهم الذين انفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لا نفسهم شيئاً فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من

الحب كما فعل أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ماذا أبقيت لنفسك ﴾ فقال الله ورسوله، وقال لعمر رضى الله عنه ماذا أبقيت لنفسك، قال مثله أي مثل ما أتيت به، فقال صلى الله عليه وسلم بينكما مثل ما بين كلمتيكما

﴿ الطبقة الثانية ﴾ المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على اخلاء اليد عن المال دفعة واحدة . ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للانفاق عند ظهور محتاج اليه . فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة واذا عرض محتاج بادروا الي سد خلته وحاجته ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وانما غرضهم الاظهر في الامساك ترصد الحاجات

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ الضعفاء وهم المقتصرون على أداء الزكاة الواجبة فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها . فهذه درجاتهم وبذل كل واحد على مقدار حبه لله . وما أراك تقدر على الدرجة الاولى والثانية . ولكن اجتهد حتى تجاوز الدرجة الثالثة الى أواخر طبقات المقتصدين المتوسطين . فتزيد على الواجب ولو شيئاً يسيراً . فان مجرد الواجب حد البخلاء قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أى يستقصى عليكم فتبخلوا . فاجتهد أن لا ينقضى عليك وقت إلا وتتصدق بشىء وراء الواجب ولو بكسرة خبز

فترتفع بذلك عن درجة البخلاء . فان لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها في المال لكن كل كلمة طيبة وشفاعة ومعونة في حاجة وعيادة مريض وتشييع جنازة . وفي الجملة أن تبذل شيئاً مما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم فيكتب جميع ذلك لك صدقة . وحافظ في زكاتك وصلاتك وصدقتك على خمسة أمور :

﴿ الاول الاسرار ﴾ فان في الخبر ان صدقة السر تطفىء غضب الرب . والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله . وقد قال الله تعالى ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ وبذلك تتخلص عن الرياء فانه غالب على النفس وهو مهلك ينقلب في القلب اذا وضع الانسان في قبره في صورة حية أى يؤلم إيلام الحية . والبخل ينقلب في صورة عقرب . والمقصود فى كل الانفاق الخلاص من رذيلة البخل . فاذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية . فما تخلص من العقرب ولكن زاد في قوة الحية اذ كل صفة من الصفات المهلكات في القلب انما غذاؤها وقوتها فى اجابتها الى مقتضاها

﴿ الثانى ﴾ أن تحذر من المن . وحقيقته أن ترى نفسك محسناً الى الفقير متفضلا عليه . وعلامته أن تتوقع منه شكراً أو تستنكر تقصيره في حقك وممالأته عدوك استنكارا يزيد على ما كان قبل

الصدقة، فذلك يدل على انك رأيت لنفسك عليه فضلا. وعلاجه أن تعرف انه المحسن اليك بقبول حق الله منك. فان من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح - ولذلك كانت الزكاة مطهرة إذ بها حصلت الطهارة فكأنها غسالة نجاسة — ولذلك ترفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته من أخذ الزكاة. وقال عليه السلام ﴿انها اوساخ اموال الناس﴾. واذا أخذ الفقير منك ماهو طهرة لك فله الفضل عليك. أرأيت لو كان فصاد فصدك مجانًا وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره في الحياة الدنيا أكان الفضل لك أم له. فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها في الحياة الآخرة اولى بأن تراه متفضلا

﴿الثالث﴾ أن تخرجه من أطيب أموالك واجودها قال الله تعالى ﴿ويجعلون لله مايكرهون﴾ وقال الله ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه﴾ الآية. وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله طيب لا يقبل إلا الطيب) يعنى الحلال. فان المقصود من هذا إظهار درجة الحب والانسان يؤثر الاحب اليه الانفس دون الاخس

﴿ الرابع ﴾ أن تعطي بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سبق درهم مائة الف) وانما اراد مايعطيه عن بشاشة وطيبة نفس من انفس ماله واجوده فذلك افضل من مائة الف مع الكراهة

(الخامس) ان تتخير لصدقتك محلا تزكو به الصدقة وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه . او الصالح المعيل ذو الرحم . فان لم يجتمع هذه الاوصاف . فتزكو الصدقة بآحادها ايضاً . ورعاية الصلاح اصل الامور . فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم الى المعاد . فليصرف الى المسافرين اليه المتخذين هذه الدار منزلا من منازل الطريق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تأ كل إلا طعام تقي ولا يأ كل طعامك إلا تقى) ٥

الأصل الثالث في الصيام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله سبحانه كل حسنة بعشر أمثالها الى سبع مائة ضعف الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به) وقال عليه السلام (لكل شيء باب وباب العبادة الصوم) وانما كان الصوم مخصوصا بهذه الخواص لامرين (احدهما) انه يرجع الى كف نفسي وهو عمل سر لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى كالصلاة والزكاة وغيرهما ﴿والثاني﴾ انه قهر لعدو الله فان الشيطان هو العدو ولن يقوى العدو الا بواسطة الشهوات . والجوع يكسر جميع الشهوات التى هي آلة الشيطان — فلذلك قال عليه السلام (ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع) وهو سر قوله صلى الله عليه وسلم (إذا دخل

رمضان فتحت أبواب الجنان . وغلقت أبواب النيران . وصفدت الشياطين، ونادى مناد : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر اقصر)*

(واعلم) أن الصوم بالاضافة الى مقداره على ثلاث درجات وبالاضافة الى أسراره على ثلاث درجات ، أما درجات مقداره فأقلها الاقتصار على شهر رمضان . وأعلاها صوم داود عليه السلام. وهو أن تصوم يوما وتفطر يوما ، ففي الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام ، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه في نفسه بالانكسار . وفى قلبه بالصفاء وفي شهواته بالضعف ، فان النفس انما تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه فلا يبعد هذا فان الاطباء أيضاً ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا من تعود ذلك لم ينتفع به اذا مرض إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به .

(واعلم) أن طب القلوب قريب من طب الابدان . وهو سر قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم. فقال عليه السلام (صم يوما وأفطر يوما) فقال أريد أفضل من ذلك فقال عليه السلام (لا أفضل من ذلك) ولذلك لما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا صام الدهر . فقال عليه السلام (لا صام ولا أفطر) كما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة ان هذا ما قرأ القرآن ولا سكت

﴿ وأما الدرجة المتوسطة ﴾ فهو أن تصوم ثلث الدهر ومهما

صمت الاثنين والخميس وأضفت اليه رمضان ، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام . وهو زيادة على الثلث . لكن لابد أن ينكسر يوم من أيام التشريق ، وترجع الزيادة الى ثلاثه أيام ويتصور أن ينكسر في العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام . فترجع الزيادة الى يوم واحد فتأمل حسابه تعرفه ، فلا ينبغى أن ينقص من هذا القدر صومك فانه خفيف على النفس وثوابه جزيل

﴿ وأما درجات أسراره ﴾ فثلاث ﴿ أدناها ﴾ أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره وذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم ﴿ الثانية ﴾ أن تضيف اليه كف الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالريبة — وكذا سائر الاعضاء ﴿ الثالثة ﴾ أن تضيف اليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس ، وتجعله مقصوراً على ذكر الله عز وجل وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال . ثم للصيام خاتمة بها يكمل وهو أن يفطر على طعام حلال لا على شبهة وان لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة فيكون قد جمع بين اكلتين دفعة واحدة فتثقل معدته وتقوي شهوته ويبطل سر الصوم وفائدته ، ويفضى الى التكاسل عن التهجد ، وربما لم يستيقظ قبل الصبح ، وكل ذلك خسران وربما لا توازيه فائدة الصوم ه

الأصل الرابع فى الحج

قال الله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا) وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ بنى الاسلام على خمس ﴾ الحديث ، وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فى كتاب الاحياء ، وننبهك الآن على آداب دقيقة ، وأسرار باطنة

﴿أما الآداب﴾ فسبعة ﴿الاول﴾ أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا ونفقة طيبة حلالا ، فالزاد الحلال ينور القلب والرفيق الصالح يذكر الخير ويزجر عن الشر ﴿ الثانى ﴾ ان يخلى يده عن مال التجارة كيلا يتشعب فكره ، وينقسم خاطره ولا يصفو للزيارة قصده ﴿ الثالث ﴾ أن يوسع فى الطريق بالطعام ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى ﴿ الرابع ﴾ أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول في أمر الدنيا بل يقصر لسانه بعد مهمات حاجاته على الفكر وتلاوة القرآن ﴿ الخامس ﴾ أن يركب راحلة دون المحمل ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين بل على هيئة المساكين حتى لا يكتب فى جملة المترفين ﴿ السادس ﴾ أن ينزل عن الدابة أحيانا ترفيها

للدابة وتطييبا لقلب المكارى ، وتخفيفاً للاعضاء بالتحرك ولا يحمل الدابة ما لا تطيق بل يرفق بها ما أمكن ﴿ السابع ﴾ أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة وبما أصابه من تعب وخسران ، وان يرى ذلك من آثار قبول الحج فيحتسب الثواب عليه

(وأما أسراره) فكثيرة نرمز منها الى فنين (أحدهما) أنه وضع بدلا عن الرهبانية التى كانت في الملل كما ورد به الخبر ، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لامة محمد صلى الله عليه وسلم فشرف البيت العتيق واضافه الى نفسه ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل مع ما حواليه حرما لبيته تفخيما لامره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملك ليقصده الزوار من كل فج عميق ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعا لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت أو يحويه مكان ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم — ولذلك كلفهم أعمالا غريبة لا تناسب الطبع والعقل ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية ، وامتثال الامر من غير معاونة باعث آخر ، وهذا سر عظيم في الاستعباد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لبيك

بحجة حقا تعبداً ورقا [١]

﴿الفن الثانى﴾ أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازيا له فان فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الاهل فى سكرات الموت ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا ،ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة، ومن الالتفاف في أثواب الاحرام الالتفاف فى أثواب الكفن ، ومن دخول البادية الى الميقات ما بين الخروج من الدنيا الى ميقات القيامة ، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته ، ومن التلبية اجابة داعى الله عز وجل عند البعث — وكذلك فى سائر الاعمال فان فى كل عمل سراً وتحته رمزاً ، يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفاء قلبه وقصور همه على مهمات الدين ٭

---

(١) وفي نسخة الخزانة النورية «لبيك بحجة حقا تعبداً ورقا عن ان يكشفه بيت أو يحويه مكان ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم ولذلك كلفهم اعمالا غريبة» اهـ - فتأمل

الأصل الخامس في قراءة القرآن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن) وقال عليه السلام (لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار) وقال عليه السلام (ما من شفيع أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره) وقال عليه السلام (يقول الله سبحانه من شغلته قراءة القرآن عن دعائي ومسئلتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين)

﴿ واعلم ﴾ أن لقراءة القرآن آدابا ظاهرة وأسراراً باطنة ، أما الآداب الظاهرة فثلاثة ﴿ الاول ﴾ أن تقرأه باحترام وتعظيم ولن تلزم الحرمة قلبك مالم تلزم هيئة الحرمة ظاهرك ، وقد عرفت كيفية علاقة القلب بالجوارح ووجه ارتفاع الانوار منها اليه

﴿وهيئة الحرمة﴾ أن تجلس وأنت على الطهارة ساكنا مطرقا مستقبل القبلة غير متكىء ولا متربع ولا نائم كما تجلس بين يدي المقرى وتقرأه بترتيل وتفخيم وتؤدة حرفا حرفا من غير هذرمة ، قال ابن عباس رضى الله عنه لان أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً ﴿ الثانى ﴾ أن تتشوق في بعض الاوقات الى أقصى درجات الفضل فيه ، وذلك

بأن تقرأه في الصلاة قائماً خصوصاً فى المسجد وبالليل لان القلب في الليل اصفى لانه أفرغ ، فانك وان خلوت بالنهار فتردد الخلق وحركاتهم في اشغالهم تحرك باطنك وتشغلك خصوصاً ان كنت تتوقع أن تطلب شغلا من الاعمال والاشغال . وكيفما قرأته ولو مضطجعاً من غير طهارة فلا تخلو عن الفضل . فان الله تعالى أثنى على الجميع ، وقال ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ الآية . ولكن ما ذكرناه في زيادة الفضل ، فان كنت من مريدى الآخرة فلا يسهل عليك ترك الفضل ، وقد قال على رضوان الله عليه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة فله بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأ القرآن في غير صلاة وهو على طهارة فخمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات

﴿ الثالث ﴾ في مقدار القراءة وله ثلاث درجات ﴿ أدناها ﴾ أن يختم في الشهر مرة (وأقصاها) أن يختم في ثلاثة أيام مرة ، وقال صلى الله عليه وسلم (من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه) (وأعدلها) أن يختم في الاسبوع مرة وأما الختم في كل يوم فغير مستحب ، وإياك أن تتصرف بعقلك فتقول ما كان خيراً ونافعاً فكلما كان أكثر كان أنفع . فان عقلك لا يهتدى الى أسرار الامور الالهية ، وانما تتلقاها قوة النبوة ، فعليك بالاتباع فان خواص

الامور لا تدرك بالقياس أو ما ترى كيف ندبت الى الصلاة ونهيت عنها جميع النهار وأمرت بتركها بعد الصبح وبعد العصر وعند الطلوع وعند الغروب والزوال — وذلك ينتهي الى قدر ثلث النهار وكيف وأثر الفساد ظاهر على قياسك هذا . فانه كقول القائل الدواء نافع للمريض فكلما كان أكثر كان أنفع ، وأنت تعلم أن كثرة الدواء ربما تقتل

﴿ وأما الاسرار الباطنة ﴾ فخمسة ﴿ الاول ﴾ أن تستشعر في أول قراءتك عظمة الكلام باستشعار تعظيم المتكلم فتحضر فى قلبك العرش والكرسى والسموات والارض وما بينهما من الملائكة والجن والانس والحيوانات والنباتات والمعادن وتتذكر أن الخالق لجميعها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته متردد بين فضله ورحمته وانك تريد أن تقرأ كلامه وتنظر به الى صفة ذاته وتطالع جمال علمه وحكمته وتعلم أنه كما لا يمس ظاهر المصحف الا المطهرون بظواهرهم وهو محجوب عن غيرهم — فكذلك حقيقة معناه وباطنه محجوب عن باطن القلب إلا اذا كان مطهراً من كل رجس وخبث من خبائث الباطن ، وبمثل هذا التعظيم كان عكرمة اذا نشر المصحف ربما غشى عليه ويقول هذا كلام ربى هذا كلام ربى

﴿ واعلم ﴾ انه لولا أن أنوار كلامه العزيز وعظمته غشيت

بكسوة الحروف لما أطاقت القوة البشرية سماعه لعظمته وسلطانه وسبحات نوره . ولولا تثبيت الله عز وجل موسى عليه السلام لما أطاق سماعه مجرداً عن كسوة الحروف والاصوات كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حتى صار دكا دكا ٭

﴿ الثانى ﴾ أن تقرأ بتدبر معانيه إن كنت من أهله وكل مايجري لسانك به فى غفلة فأعده ولاتعده من عملك لان الترتيل في الظاهر للتمكن من التدبر . قال علي عليه السلام لاخير في عبادة لافقه فيها ، ولافي قراءة لاتدبر فيها . وإياك أن تصير مشغوفاً بعدد الختمات على نفسك فلأن تردد آية واحدة ليلة تتدبرها خير لك من ختمتين . فقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم) فرددها عشرين مرة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها (إن تعذبهم فانهم عبادك) وقام تميم الدارى ليلة بقوله سبحانه (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية وقام سعيد بن جبير ليلة بقوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) . ولعل الاليق بك ماقاله بعض العارفين إذ قال لي في كل جمعة ختمة ولى في كل شهر ختمة . وفي كل سنة ختمة . ولى ختمة منذ ثلاثين سنة مافرغت منها بعد — وذلك بحسب درجات التدبر . فان القلب في بعض الاوقات لايحتمل التدبر الطويل فليكن للتدبر الطويل ختمة خاصة

﴿ الثالث ﴾ أن تجتني في تدبرك ثمار المعرفة من أغصانها وتقتبسها من أوطانها . ولا تطلب الترياق من حيث تطلب منه الجواهر . ولا الجواهر من حيث يطلب منه المسك والعود . فان لكل ثمرة غصناً . ولكل جوهر معدناً . وانما يتيسر لك هذا بأن تعرف الاصناف العشرة التي حصرنا فيها أقسام القرآن . وهي عشرة معادن . (فما يتعلق) من القرآن بالله تعالى وبصفاته وأفعاله فاقتبس منه معرفة الجلال والعظمة (وما يتعلق) بالارشاد الى الصراط المستقيم فاقتبس منه معرفة الرحمة والعطف والحكمة (وما يتعلق) باهلاك الاعداء فاقتبس منه معرفة العزة والاستغناء والقهر والتجبر (وما يتعلق) بأحوال الانبياء فاقتبس منه معرفة اللطف والنعمة والفضل والكرم — وكذلك في كل صنف ما يليق به . فلا تنظرن اليه بعين واحدة . وشرح ذلك يطول

﴿ الرابع ﴾ أن تتخلى عن موانع الفهم وهي الاكنة التي تمنع من الفهم . قال الله عز وجل (إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء)

﴿ واعلم ﴾ ان معاني القرآن من جملة الملكوت . وانما حروفها من عالم الشهادة والاكنة التي يبتلى بها المتقى المتعطش الى الحق نوعان

(أما ما ابتلى به) ضعيف الايمان من حجاب الشك والجحود (وأما ما ابتلى به) المنهمك في الدنيا من حجاب الشهوات المستغرقة للقلب . فذلك جلى لايخفى كونه مانعاً من فهم لطائف القرآن واقتباس أنواره فبها حجب أكثر الخلق

(وأما العباد) المتجردون لطريق الله عز وجل يحجبون بنوعين آخرين (أحدهما) الوسواس الصارف للقلب الى التفكر في النية كيف كانت فى الابتداء وهل بقيت الآن . وهل هو مخلص فى الحال هذا ان كان فى الصلاة أو الوسواس الصارف للهم الى تصحيح مخارج الحروف والتشكك فيها وإعادتها لاجل ذلك . وهذا يجري في الصلاة وغيرها فكيف يطالع أسرار الملكوت قلب محجوب مصروف الى مطالعة الشفتين وكيفية انطباقهما واللسان والحنك وكيفية انسلال الهواء من اصطكاكهما . وهو معنى تقطيع الحروف وتصحيحها ﴿ النوع الثانى ﴾ التقليد لظواهر معاني القران والجمود عليها — وذلك حجاب عظيم عن الفهم . ولست أعني به التقليد الباطل كتقليد المبتدع بل التقليد الحق أيضاً فان الحق الذى كاف الخلق اعتقاده له درجات وله مبدأ ظاهر وهو كالقشر والمثال وله

غور باطن وهو كاللباب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً) فالجامد على الظاهر الظان انه ليس وراءه مرقى يرتقي اليه كيف يتصور أن تنكشف له الاسرار . فقد كاف الخلق مثلا أن يعتقدوا أن الله تعالى يرى ولكن للرؤية ظاهر وسر . فمن اعتقد ان رؤية الله تعالى مناسبة للرؤية التي يألفها الانسان فى هذا العالم كيف يتصور أن يتطلع على سر قوله تعالى ان تراني . وكيف يفهم ان ذلك ممتنع فى هذه الحياة الدنيا بهذه العين الموقوفة على ملاحظة الجهات والاقطار . وكيف يدرك قوله لا تدركه الابصار مع قوله (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) ويكفيك هذا المثال الواحد . فلسنا نكشف لك أكثر من هذا . ولسنا نقصد فى هذا الاصل إلا التلويحات لمبادىء الاسرار تشويقاً للمستعدين لها

﴿ الخامس ﴾ أن لا تقتصر على اقتباس الانوار . بل تضيف اليها اقتباس الاحوال والآثار وذلك أن لا تقرأ آية إلا وأن تصير بصفتها . فيكون لك بحسب كل فهم حال ووجد . فعند ذكر الرحمة وعند المغفرة تستبشر كأنك تطير من الفرح . وعند ذكر الغضب وشدة العقاب تتضاءل كانك تموت من الفزع . وعند ذكر الله وأسمائه وعظمته تتطأطأ وتتصاغر حتى كانك تنمحق من مشاهدة

الجلال. وعند ذكر الكفار مايستحيل عليه من ولد وصاحبة تنكسر وتغض صوتك كانك تنطمس من الحياء . وكذلك فى كل صنف من الاصناف العشرة . وذلك يطول . وليظهر أثر ذلك على جوارحك من بكاء عند الحزن . وعرق جبين عند الحياء . واقشعرار الجلد وارتعاد الفرائص عند الهيبة والجلال . وانبساط فى الاعضاء واللسان والصوت عند الاستبشار وانقباض فيها عند الاستشعار . فاذا فعلت ذلك اشترك في نيل حظ القرآن جميع أعضائك [١] وفاضت آثار القرآن على عوالمك الثلاثة . أعني عالم الملكوت وعالم الجبروت وعالم الشهادة (واعلم) انك من العوالم الثلاثة ففيك من كل عالم جزء ﴿ واعلم ﴾ ان محض أنوار المعرفة تفيض من عالم الملكوت الى سر القلب لانه أيضاً من الملكوت . وأما آثارها من الخشية والخوف والسرور والهيبة وسائر الاحوال فانها تهبط من عالم الجبروت . ومهبطها الصدر الذي هو عالم الجبروت . وهو عالم آخر من عوالمك كنينا عنه بالصدر كما كنينا عن الاول بالقلب لان عالم الجبروت بين عالم الملكوت وعالم الشهادة كما ان الصدر بين القلب والجوارح *

(وأما البكاء) والشهيق والاقشعرار وارتعاد الفرائص

---

(١) وفي النسخة النوريه «اجزائك»

فتنزل من عالم الشهادة ومهبطها الجوارح لانها من عالم الشهادة . وما أراك تفهم من القلب غير اللحم الصنوبرى الشكل ومن الصدر غير العظم المحيط به • فانك لاتدرك من كل شىء إلا غلافه وقشره • وما أبعدك عن درك الحقائق . فان هذا يوجد للبهائم والميت ولاتنزل عليه أنوار المعارف والعلوم ولاآثارها من الخشية والهيبة والسرور • فان أردت أن تستنشق شيئا من روائح هذه الاسرار وما أراك تريد فقد أخذ الشيطان بمخنقك بحبال الشهوات . فعليك بباب التوحيد من أول كتاب التوكل إن أردته

﴿ واعلم ﴾ ان القرآن كالشمس • وفيضان أسرار المعارف منه على القلب كفيضان أنوار الشمس على الارض • وسريان آثار الخوف والخشية والهيبة وسائر الاحوال منه على الصدر كسريان حرارة الشمس فى باطن الارض تابعا لاشراق الانوار • فان الخشية أثر نور المعرفة • وانما يخشى الله من عباده العلماء • فانتشار الحركات والتغيرات الى الجوارح من البكاء والعرق والاقشعرار والارتعاد منبعث من آثار الخشية • وسائر الاحوال كحركة أجزاء الارض بتصاعد الابخرة والادخنة منها بتصعيد حرارة الشمس فالحركة تبع الحرارة • والحرارة تبع النور • والنور تبع وقوع المحاذاة بين الارض والشمس • فاجتهد بأن تحاذى بوجه قلبك شطر شمس

القرآن وتستضيء بأنواره — كذلك فان لم تطق ذلك فاصغ الى النداء الوارد من جانب الطور الايمن . فان آنست من جوانبه ناراً فخذ منه قبساً وأشعل منه سراجاً . فان كان زيتك صافياً يضيء ولو لم تمسسه نار . فاذا مسته النار انبعث منه الضياء ووجدت على النار هدى . وقام في حقك مقام الشمس المنتشرة الاشراق والضياء .

الأصل السادس في ذكر الله تعالى في كل حال

قال الله سبحانه ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (الذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سخاء)[1] . وقال صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وارفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب . وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . قالوا وماذاك يارسول الله . فقال ذكر الله) . وقال صلى الله عليه وسلم (سبق المفردون سبق المفردون) فقيل ومن هم يارسول الله فقال (المستهترون

(١) وفي النسخة النورية « سحا »

بذكر الله وضع ذكر الله عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً)

﴿ واعلم ﴾ أنه قد انكشف لارباب البصائر ان الذكر أفضل الاعمال ولكن له أيضا قشور ثلاثة بعضها أقرب الى اللب من بعض، وله لب وراء القشور الثلاثة وانما فضل القشور لكونها طريقا اليه (فالقشر الاعلى منه) ذكر اللسان فقط ﴿ والثانى ﴾ القلب اذا كان القلب يحتاج الى موافقته حتى يحضر مع الذكر ، ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الافكار ﴿ والثالث ﴾ ان يستمكن الذكر من القلب ويستولى عليه بحيث يحتاج الى تكلف في صرفه عنه الى غيره كما احتيج في الثانى الى تكلف في قرار معه ودوامه عليه ﴿ والرابع وهو اللباب ﴾ ان يستمكن المذكور من القلب وينمحي الذكر ويخفى وهو اللبـاب المطلوب ، وذلك بأن لا يلتفت الى الذكر ولا الى القلب بل يستغرق المذكور جملته ، ومهما ظهر له في أثنـاء ذلك التفات الى الذكر فذلك حجاب شاغل ، وهذه الحالة التى يعبر عنها العارفون بالفناء ، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظواهر جوارحه ، ولا من الاشياء الخارجة عنه ولا من العوارض الباطنة فيه بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهبا الى ربه أولا ، ثم ذاهبا فيه آخراً ، وان خطر له فى أثناء ذلك أنه فنى عن نفسه بالكلية فذلك شوب وكدورة . بل الكمال

في أن يفنى عن نفسه ويفنى عن الفناء أيضا ، فان الفناء عن الفناء غاية الفناء — وهذا قد يظنه الفقيه الرسمى انه طامات غير معقولة، وليس كذلك بل هذه الحالة لهم بالاضافة الى محبوبهم كحالتك في اكثر الاحوال بالاضـافة الى محبوبك من جاه أو مال أو معشوق فانك قـد تصير مستغرقا لشدة الغضب بالفكر في عدوك ولشدة التفكر في معشوقك حتى لايكون فيك متسع لشيء أصلا ، فتخاطب فلا تفهم . ويجتاز بين يديك غيرك فلا تراه وعيناك مفتوحتان ، ويتكلم عنـــدك فلا تسمع وما بأذنيك صمم ، وأنت فى هذا الاستغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضا. فان الملتفت الى الاستغراق معرض عن المستغرق به ، وانما سموا هـذه الحالة فناء وان كان الشخص والطلل باقيا لان الاشخاص والاطلال بل سائر المحسوسات ليس لها حقيقة الوجود بل الوجود الحقيقى لعالم الامر والملكوت ، والقلب من عالم الامر ، قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ والقوالب من عالم الخلق وأعنى بالقلب اللطيفـة الذاكرة العارفة التى هى مهبط الانوار الالهية دون القلب الظاهر ، فان ذلك من عوالم الخلق فلا يفهم من هذا اشارة الى قدم الروح وحدوث القالب بل هما جميعاً حادثان ، وانما أعنى بالخلق ما تقع عليه المساحة والتقدير وهى الاجسام وصفاتها ، وأعنى بعالم الامر

مالا يتطرق اليه التقدير ، والعالم الجسماني ليس له وجود حقيقي بل هو من ذلك العالم كالظل من الاجسام ، وليس لظل الانسان حقيقة الانسان. وليس للشخص حقيقة الوجود بل هو ظل الحقيقه والكل من صنع الله تعالى ، قال الله تعالى ﴿ ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها ﴾ وظلالهم بالغدو والآصال وسجود عالم الامر طوع لله ، وسجود الظلال كره ، وتحته سر بل أسرار تحرك أوائلها سلسلة المجانين الحمقى فضلا عن أواخرها فلنتجاوزها ، فقد افهمناك ما أرادوه بالفناء ، فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط بعلمه كما قال تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وقال تعالى ﴿ واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾

فاذا فهمت الفناء فى المذكور ﴿ فاعلم ﴾ انه أول الطريق ، وهو الذهاب الى الله عز وجل ، وانما الهدى بعده أعنى بالهدى هدى الله كما قال الخليل صلوات الله عليه ﴿انى ذاهب الى ربى سيهدين﴾ فأول الامر ذهاب الى الله ، ثم ذهاب في الله — وذلك هو الفناء والاستغراق به ، ولكن هذا الاستغراق أولا يكون كبرق خاطف قل ما يثبت ويدوم ، فان دام ذلك صار عادة راسخة وهيئة ثابتة عرج به الى العالم الاعلى وطالع الوجود الحقيقي الاصفى ، وانطبع له نقش الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت ، وأول ما يتمثل له من

ذلك العالم جواهر الملائكة وارواح الانبياء والاولياء في صورة جميلة يفيض اليه بواسطتها بعض الحقائق — وذلك في البداية الى أن تعلو درجته عن المثال . فيكافح بصريح الحق في كل شيء ، فاذا رد الى هذا العالم المجازي الذي هو كالظلال ، نظر الى الخلق نظر مترحم عليهم لحرمانهم عن مطالعة جمال حظيرة القدس وتعجب منهم في قناعتهم بالظلال وانخداعهم بعالم الغرور وعالم الخيال فيكون معهم حاضراً بشخصه غائبا بقلبه . متعجبا هو من حضورهم ويتعجبون هم من غيبته ، فهذه ثمرة لباب الذكر وانما مبدؤها ذكر اللسان ، ثم ذكر القلب تكلفا ، ثم ذكر القلب طبعا ، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر ، وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم (من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل) بل سر قوله (يفضل الذكر الخفى على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين ضعفا) *

﴿ واعلم ﴾ ان كل ذكر يشعر به قلبك تسمعه الحفظة فان شعورهم يقارن شعورك وفيه سر حتى اذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية فيغيب ذكرك عن شعور الحفظة ومادام القلب يشعر بالذكر ويلتفت اليه فهو معرض عن الله عز وجل وغير منفك عن شرك خفي حتى تصير مستغرقا بالواحد الحق .

فذلك هو التوحيد -- وكذلك القول في المعرفة . فمن طلب المعرفة للمعرفة فقد قال بالثاني . ومن وجدها كمثل أن لايجدها بل يجد المعروف بها فهو الذي استمكن من حقيقة الوصال . وحل بحبوحة حظيرة القدس .

فان قلت فلم اختصت هذه المكاشفات بحال الفناء ﴿ فاعلم ﴾ ان هذه قصة يطول فيها نظر الناظر — وذلك اذا تأملت لم تقصر عن أن تدرك كون الحواس وعوارض النفس وشهواتها جاذبة الى هذا العالم المحسوس . وهو عالم الزور والغرور — ولذلك ينكشف صريح الحق بالموت لبطلان سلطان الحواس والخيالات المولية بوجه القلب الى عالم السفل . فان قصر عنك سلطان الحواس بالنوم طولعت بشىء من الغيب على قدر استعدادك وقبولك وهمتك . ولكن بمثال يحتاج الى التعبير . وماعندي انك لم تصادف من نفسك رؤيا صادقة اطلعت بها على أمر مستقبل . لكن الخيال لايفتر في النوم وإن ركدت الحواس . فلذلك يضعف الاطلاع ولايخلو من شوب المثال . وأما الفناء فعبارة عن حالة تركد فيها الحواس ولاتشتغل . ويسكن فيها الخيال ولايشوش . فان بقيت في الخيال بقية مغلوبة لم يؤثر الا فى محاكاة مايتجلى من عالم القدس حتى يتمثل الانبياء والملائكة والارواح المقدسة فى قوالب الخيال .

فهذه أمور نبهت عليها لتكون متشوقاً الى أن تصير من أهل الذوق لها . فان لم تكن فمن أهل العلم بها . فان لم تكن فمن أهل الايمان بها ﴿ ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ واياك أن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الشديد اذا كوشفت بالحق عند سكرات الموت الذى كنت منه تحيد وقيل لك لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد *

﴿ واعلم ﴾ ان الايمان والعلم والذوق ثلاث درجات متباعدة . فان العنين مثلا يتصور أن يصدق بوجود شهوة الوقاع لغيره بأن يقبل ذلك ممن يحسن ظنه به ولا يتهمه بالكذب — وذلك ايمان ويتصور أن يعلم بالبرهان وجوده لغيره . وهو علم . ومأخذه قياس أن ينظر الى شهوته للطعام مثلا فيقيس بها شهوة الوقاع . وكل ذلك بعيد عن ادراك حقيقة الشهوة بوجودها له — وكذلك المرض يعرفه العامى الصحيح ويؤمن به . ويعرفه الطبيب الصحيح بالبرهان وهو علم . ومن لم يصر مريضاً لم يحصل له الذوق فكذلك القول فى الفناء فى التوحيد (فالذوق) مشاهدة (والعلم) قياس (والايمان) قبول بحسن الظن مع الانفكاك عن التهمة . فاجتهد أن تصير من أهل المشاهدة . فليس الخبر كالمعاينة *

فان قلت فقد عظمت أمر الذكر فهو أفضل أم قراءة القرآن

﴿ فاعلم ﴾ ان قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم الا للذاهب الى الله عز وجل وهو أفضل للذاهب الى الله في جميع أحوال بدايته وفي بعض أحواله فى نهايتـه . فان القرآن هو المشتمل على صنوف المعارف والاحوال والارشاد الى الطريق . فمادام العبد مفتقراً الى تهذيب الاخلاق وتحصيل المعارف . فالقرآن أولى به . فان جاوز ذلك واستولى الذكر على قلبه بحيث يرتجى له أن يفضى به ذلك الى الاستغراق . فمداومة الذكر أولى به . فان القرآن يجاذب خاطره ويسرح به فى رياض الجنة . والمريد الذاهب الى الله تعالى لا ينبغى أن يلتفت الى الجنة ورياضها . بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً وذكره ذكراً واحداً حتى يدرك درجة الفناء والاستغراق — فلذلك قال الله عز وجل ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وكذلك من ينتهى الى درجة الاستغراق ولا يدوم ولا يثبت عليه فاذا رد الى نفسه فقد ينفعه تلاوة القرآن . وهذه حالة نادرة عزيزة كالكبريت الاحمر يتحدث به ولا يوجد . فتكون تلاوة القرآن أفضل مطلقاً لانه أفضل في كل حال إلا في حال من شغله المتكلم عن الكلام . إذ لباب القرآن معرفة المتكلم بالقرآن ومعرفة جماله والاستغراق به . والقرآن سائق اليه وهاد نحوه ومن أشرف على المقصد لم يلتفت الى الطريق *

فان قلت فأي الاذكار أفضل ﴿ فاعلم ﴾ ان الافضل كما ذكرناه

استيلاء المذكور على القلب وهو شيء واحد لا كثرة فيه حتى يختار أفضله . وذلك عين الجمع والتوحيد . وانما التفرقة والكثرة قبل ذلك فذلك[١] مادمت في مقام الذكر باللسان والقلب. وعند هذا قد ينقسم الذكر الى الافضل وغير الافضل . وفضله بحسب الصفات التى يعبر عنها بالاذكار . والصفات والاسماء الواردة في حق الله سبحانه تنقسم الى ماهو حقيقة فى حق العباد ومأولة في حقه سبحانه كالصبور والشكور والرحيم والمنتقم، والى ماهو حقيقة فى حقه سبحانه. واذا استعمل فى حق غيره كان مجازاً . فمن أفضل الاذكار (لااله إلا الله الحي القيوم) فان فيه اسم الله الاعظم إذ قال صلى الله عليه وسلم (اسم الله الاعظم فى آية الكرسى وأول آل عمران) ولا يشتركان إلا فى هذا . وله سر يدق عن فهمك ذكره والقدر الذى يمكن الرمز اليه ان قولك (لااله إلا الله) يشعر بالتوحيد . ومعنى الوحدانية فى الذات والربية حقيقي فى حق الله عز وجل غير مأول بل هو فى حق غيره مجاز ومأول — وكذلك (الحى) فان معنى الحى هو الذى يشعر بذاته ويعلم ذاته . والميت هو الذي لاخبر له من ذاته — وهذا أيضاً حقيقي لله تعالى غير مأول (والقيوم)يشعر بكونه قائماً بذاته وان كل شيء قوامه به — وهذا أيضاً حقيقي لله

(١) وفي النسخة النورية «قبل ذلك مادمت» أى باسقاط «فذلك»

عز وجل غير مأول ولا يوجد لغيره. وماعداها من الاسماء الدالة على الافعال كالرحيم والمقسط والعدل وغيره فهو دون مايدل على الصفات لان مصادر الافعال هي الصفات والصفات أصل والافعال تبع .
وماعداها من الصفات التي تدل على القدرة والعلم والارادة والكلام والسمع والبصر، فذلك مما يظن ان الثابت منها لله عزوجل مفهوم من ظواهرها . وهيهات فان المفهوم من ظواهرها أمور تناسب صفات الانسان وكلامه وقدرته وعلمه وسمعه وبصره . بل لها حقائق يستحيل ثبوتها للانسان فيستخرج من هذه الاسامي بنوع من التأويل .

فهذا ينبهك على مايحتمله فهمك من اختصاص هذه الكلمات بكونها أعظم . ويقرب منه قولك (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) لان سبحان الله للتقديس وهو حقيقي في حقه فان القدس الحقيقي لايتصور إلا له تعالى وقولك (الحمد لله) يشعر باضافة النعم كلها اليه وهو حقيقي إذ هو المتفرد بالافعال كلها تفرداً حقيقياً بلا تأويل . وهو تبارك وتعالى المستوجب الحمد وحده إذ لاشركة لاحد معه في فعله أصلا كما لاشركة للقلم مع الكاتب فى استحقاق المحمدة عند حسن الخط .

﴿ واعلم ﴾ ان كل من سواه ممن ترى منه نعمة فهو تعالى

مسخر له كالقلم فهذا مثال ينبهك على تفرده باستحقاق الحمد . وقولك (لا إله إلا الله) فقد عرفت انه التوحيد الحقيقي . وقولك (الله أكبر) فليس المغني به انه أكبر من غيره إذ ليس معه سبحانه غيره حتى يقال أكبر منه . بل كل ماسواه فهو نور من أنوار قدرته . وليس لنور الشمس مع الشمس رتبه المعية حتى يقال انها أكبر منه بل رتبة التبعية بل معناه انه عز وجل أكبر من أن ينال بالحواس أو يدرك جلاله بالعقل والقياس . بل أكبر من أن يدرك كنه جلاله غيره . بل أكبر من أن يعرفه غيره . فانه لا يعرف الله تبارك وتعالى إلا الله . فان منتهى معرفة عباده أن يعرفوا انه يستحيل منهم معرفته الحقيقية ولا يعرف ذلك أيضاً بكماله إلا نبي أوصديق ﴿ أما النبي ﴾ فيعبر عنه ويقول (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وأما الصديق فيقول (العجز عن درك الادراك إدراك) فان تشوقت الى زيادة تحقيق فى هذا المعنى واستنكرت قولي لا يعرف الله الا الله . فاطلب معرفة حقيقته بالبرهان من كتاب (المقصد الاقصى في معانى أسماء الله الحسنى) ويكفيك الآن هذا القدر من الرموز الى أسرار الذكر وفضل الاذكار ٥

الأصل السابع في طلب الحلال

قال الله سبحانه ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ والحرام خبيث وليس بطيب ، فقد قرن عز وجل أكل الطيبات بالعبادات وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب الحلال فريضة على كل مسلم بعد الفريضة) أي بعد فريضة الايمان والصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم (من أكل الحلال اربعين يوما نور الله قلبه واجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) وفي رواية أخرى زهده الله في الدنيا ، وقال صلى الله عليـه وسلم (ان لله ملكا على بيت المقدس ينادي كل ليلة من أكل حراما لم يقبل منـــه صرف ولا عدل) فالصرف النافلة ، والعدل الفريضة ، وقال صلى الله عليه وسلم (من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنــه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه منه شيء) وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه « لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالاوتار لم يقبل الله ذلك منكم الا بورع حاجز » وقيل العبادة مع أكل الحرام كالبنيان على السرقين *

فصـــل

اعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة فى تصفيه القلب وتنويره وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة، وفيه سر لا يحتمل هذا الكتاب ذكره، ولكن ينبغى أن تفهم أن درجات الورع أربعة ﴿ الدرجة الاولى ﴾ هى التى يجب الفسق باقتحامها[1] وتزول العدالة بزوالها، وهي التى يحرمها فتوى الفقهاء ﴿ الثانية ﴾ ورع الصالحين وهو الحذر عما يتطرق اليه احتمال التحريم، وان أفتى المفتى بحله بناء على الظاهر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (دع ما يريبك الى مالا يريبك) ﴿ الثالثة ﴾ ورع المتقين قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً ومخافة مما به بأس) وقال عمر رضى الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام، ومن هذا الاصل كان بعضهم اذا استحق مأية درهم اقتصر على تسعة وتسعين، ويترك الواحد حاجزاً بينه وبين النار لخوف الزيادة، وكان بعضهم يأخذ بنقصان حبة ويعطى ما يعطى بزيادة حبة — ولذلك أخذ عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه أنفه حذراً من ريح المسك لبيت المال

---

(١) وفي نسخة «بتركها»

كان يوزن بين يديه وقال هـل ينتفع الا بريحه ، ومن ذلك أن يتورع عن الزينة وأكل الشهوات خيفة من أن تغلب النفس فتدعوه الى الشهوات المحظورة ، ومن ذلك ترك النظر الى تجمل أهل الدنيا فانه يحرك دواعي الرغبة فى الدنيا — ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام «لا تنظروا الى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بحلاوة ايمانكم» — ولذلك قال السلف من رق ثوبه رق دينه. فالحلال الطلق الطيب كل حلال انفك عن مثل هذه المخافة ولم يوجد فيها ٭

﴿ الرابعة ﴾ ورع الصديقين وهو الحذر عن كل مالا يراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى اذا كان قد يتطرق الى بعض أسبابها معصية . فمن ذلك ما حكى أن ذا النون المصري كان محبوسا جائعاً فبعثت اليه امرأة صالحة من طيب مالها طعاما على يد السجان ، فلم يأكل منه واعتذر أنه جاءنى على طبق ظالم أى يد السجان . ومن ذلك أن بشر الحافى كان لا يشرب الماء من الأنهـار التى حفرها السلاطين . وأطفأ بعضهم سراجاً أشعـله غلامه من بيت ظالم . وشرب بعضهم دواء فاشارت اليـه امرأته بالمشى والتردد ، فقال هذه مشية لا أعرف لهـا وجهاً ، وأنا أحاسب نفسى على جميع

حركاتى — وهذه رتبة أقوام وفوا بقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ فعدوا كل مالم يكن لله تعالى حراما ، وليس هذا من عشك وعش ناصحك ، فادرج واجتهد أن تفي، بورع العدول الذى تفتى به الفقهاء ، نعم ينبغي ان تضيف اليه شيئين ﴿ أحدهما ﴾ أن تحذر عن مواقع غرورهم ولا تلتفت الى قولهم «من وهب في آخر السنة ماله زوجته واستوهب منها ما لها سقطت الزكاة عنهما » فانهم ان عنوا به أن السلطان لا يطالبهم بالزكاة لان مطمح نظره ظاهر الملك فهو صدق ودرجة الفقهاء وفتواهم ذكر ما يتعلق بالظواهر فيحكمون بالبراءة عن الزكاة اذا سقط طلب الساعي ويحكمون بصحة الصلاة اذا امتنع القتل على السلطان بجريان صورة الصلاة ، إذ ليس بأيديهم من القوانين إلا القانون الذى يستعمله السلطان في السياسة لينتظم أمر المعيشة الدنيوية التى هي منزل من منازل الطريق كما سبق ﴿ وأما أنت ﴾ اذا كنت تنظر فيما ينفعك غداً عند جبار الجبابرة وسلطان السلاطين فلا تلتفت الى هذا *

﴿ واعلم ﴾ أن مقصود الزكاة إزالة رذيلة البخل فانه مهلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) وهبة مال الزكاة لاجل درء

الزكاة تجعل الشح مطاعا فانه يصير مطاعا باجابته الى ما يقتضيه . وقبل هذا لم يكن مطاعا فكيف يكون ذلك منجيا . وكذلك من يسيء معاشرة زوجته حتى تنفك له من المهر فلا يحل له المهر بينه وبين الله عز وجل وان كان الفقيه يفتي بسقوط المهر وصحة الابراء لان الله تعالى قال ﴿فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ وليس هذا طيبة النفس بل طيبة القلب . والفقيه لا يميز بين الامرين لان شغفه بقطع الخصومات الظاهرة لاغير ﴿والحجامة﴾ وشرب الدواء البشيع لا تطيب به النفس بل يطيب به القلب – وكذلك كل ما يأباه الطبع ويريده العقل لمصلحة البدن في العاقبة *

وهذا باب طويل . وأصله أن لا تستحل مال غيرك الا برضاء مطلق صاف * وينبغي أن لا تأكل من السؤال . فان سألت فاحذر أن تسأل على الملأ فربما يعطى بالحياء – وذلك ليس مقرونا بالرضاء . فان المستحى يؤثر ألم ازالة الملك على ألم الحياء . ولا فرق بين أن تأخذ ماله بضرب ظاهره بالسوط وبين أن تأخذه بضرب باطنه بسوط الحياء ، فالكل مصادرة واحذر أيضاً أن يعطيك بالدين . وذلك بأن يعطيك لظنه انك ورع تقي فتأكل بالدين ويكون من شرط حله أن لا يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطى لامتنع من الاعطاء ، فلا فرق بين من يأخذ بالتصوف والتقوى وليس

هو متصفا به باطنا وبين من يزعم أنه علوى ليعطى وهو كاذب .
وكل ذلك حرام عند ذوى البصائر وان أفتى الفقيه بالحل بناه
على الظاهر ه

﴿ الفن الثانى ﴾ أن تراجع قلبك وان أفتوك فان الاثم حزاز
القلوب فالذي يضرك ما حاك في قلبك ـ ولذلك قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم (استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك). وهذا السر
طويل ذ كره . ولكن اعلم على الجملة ان المحذور من الحرام اظلام
القلب والمطلوب من الحلال تنويره ـــ وذلك يتشعب من اعتقادك
لا من نفس المعتقد . فمن وطيء امرأة على ظن انها أجنبية . فاذا
هي منكوحة حصل إظلام القلب . ولو وطيء أجنبية على ظن انها
زوجته لم يحصل — وكذلك في النجاسات والطهارات المؤثرة في
تنوير القلب وهمك واعتقادك فما أمرت بان تصلى وثوبك طاهر بل
أن تصلى وأنت تعتقد انه طاهر فاستشعار الطهارة مؤثر في إشراق
القلب وان لم يكن على وفق الحال ـــ ولذلك نقول ان من صلى
ثم تذ كر انه كان معه نجاسة فليس عليه الاعادة على الاصح لانه
صلى الله عليه وسلم خلع نعليه في أثناء صلاته لما أخبره جبريل عليه
السلام بأن عليهما قذراً واستمر فيها : ولذلك يشدد الامر على
الموسوس فانه لما لم يطمئن قلبه باعتقاده الطهارة فيجب عليه الاستقصاء

والمعاودة . وأولئك قوم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فهلكوا باستقصائهم كما قال عليه السلام (هلك المتنطعون) — فكذلك في الحلال أنت متعبد بما يطمئن اليه قلبك لا بما يفتي به المفتي فاستفت قلبك .

(فصل)

اياك أن تشدد على نفسك فتقول ان أموال الدنيا كلها حرام . وقد أخبثتها الايدى العادية والمعاملات الفاسدة . فاقنع بالحشيش مترهباً أو أتناول من الجميع متوسعاً . لا افصل فيه بين حلال وحرام بل اعلم قطعاً ان الحلال بين والحرام بين . وبينهما امور متشابهات — كذلك كان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكذلك يكون ابد الدهر . فاستمد من السر الذى ذكرناه فانك غير متعبد بما هو في نفسه حلال بل بما هو في اعتقادك حلال لا تعرف سبباً ظاهراً في تحريمه فقد توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشرك وتوضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية . ولو عطشوا لشربوا منه . وشرب الماء النجس حرام . ولكن استصحبوا يقين الطهارة ولم يتركوها لتوهم النجاسة *

وكذلك كل مال صادفته في يد رجل مجهول عندك حاله .

فلك ان تشتري منه وتأكل من ضيافته تحسيناً للظن بالمسلم
فان الاصل ان ما في يده فهو حلال . وما تصادفه في يد رجل
عرفته بالصلاح فهو اولى بان تعتقده حلالا ﴿ نعم ﴾ يجب الحذر
مما تصادفه فى يد سلطان ظالم أو رجل عرفتـه بالربا أو بيع الخمر
فيجب الحذر منه حتى تسأل وتستقصى وتعرف انه من أين حصل
له . فان ظهر لك جهة حصوله وانه حـلال فلك أخـذه والا فلا .
فالاعتماد على العلامة الظاهرة وهي قرينة حاله . وهذا اذا كان
أكثر أمواله كذلك . فان كان أكثرها حلالا فلك ان تأكل منه
وان تركته فذلك ورع . فقد كتب بعض وكلاء ابن المبارك من
البصرة اليه يسأله عن معاملة رجل يعـامل السلطان . فقال ان كان
لا يعامل غير السلطان فلا تعامله . وان كان يعامل غيره ايضا فعامله

وبالجملة الناس في حقك ستة أقسام ﴿ أحـدها ﴾ ان يكون
مجهولا فكل من ماله والحذر ليس بواجب بل هو محض الورع
﴿ الثانى ﴾ ان تعرفه بالصلاح فـكل منه ولا تتورع . فالورع فيه
وسوسة . فان أدى الى الاذى والايحاش فهو معصية وحرام لما فيه
من الايذاء . ولما فيه من سوء الظن بالرجل الصالح ﴿ الثالث ﴾
ان تعرفـه بالظلم والربا حتى علمت ان كل ماله أو أكثره حرام
كالسلاطين الظلمة وغيرهم فمالهم حرام ﴿ الرابع ﴾ ان تعرف ان

اكثر أمواله حلال ولكن لا يخلو عن حرام كرجل له تجارة
وميراث وهو مع هذا في عمل السلطان فلك الاخذ بالاغلب لكن
الترك من الورع المهم ﴿ الخامس ﴾ ان يكون مجهولا عندك لكن
ترى عليه علامة الظلم كالقباء والقلنسوة وهيئة الظلمة . فهذه علامة
ظاهرة توجب الحذر فلا تأكل من ماله الا بعد التفتيش ﴿السادس﴾
ان ترى عليه علامة الفسق لا علامة الظلم كطول الشارب وانقسام
شعر الرأس قزعا او رأيته يشتم غيره أو ينظر الى امرأة . فان علمت
له مالا موروثا او تجارة لم يحرم ماله بذلك . وان كان أمره مجهولا
عندك فهذا فيه خطر لان علامة الفسق اضعف دلالة من علامة الظلم
ولكن الأظهر عندى انه لا يحرم ماله لان ظاهر اليد والاسلام يدل
على الملك دلالة اظهر من دلالة هذه العلامات على التحريم . وليست
هذه الدلالة اقوى من دلالة النصرانية والمجوسية على نجاسة الماء . ولم
يلتفت اليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عمر رضي الله عنه
اما علامة الظلم فتضاهى ما اذا رأينا ظبية تبول في ماء ثم وجدنا
الماء متغيراً فأمكن أن يكون من طول المكث وأمكن ان يكون من
البول فانه يجب اجتنابه احالة على السبب الظاهر . ثم وراء ذلك
كله عليه ان يستفتى قلبه . فاذا وجد فى قلبه حزازة فليجتنبه . فالاثم
حزازة القلوب وحكاكات الصدور . ولكن ههنا دقيقة يغفل عنها

أهل الورع . وهي انه حيث يكون الترك من الورع أو من حزازة
في النفس فلا يجوز الترك والسؤال بحيث يؤذى فالمجهول اذا قدم
اليك طعاماً فان سألته انه من اين استوحش وتأذى. والايذاء حرام .
وسوء الظن حرام وان سألته عن غيره بحيث يدرى زاد الايذاء وان
سألت بحيث لا يدرى فقد تجسست وأسأت الظن . وبعض الظن
اثم وتساهلت بالغيبة والتهمة وكل ذلك حرام . وترك الورع ليس
بحرام . فليس لك الا التلطف بالترك فان لم يكن الا بايذاء فعليك
ان تأكل فان طيبة قلب المسلم وصيانته عن الايذاء اهم من الورع .
فاياك أن تكون من القراء المغرورين الذين لا يدركون دقائق الورع

﴿ واعلم ﴾ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل من صدقة
بريرة ولم يسأل عن المتصدق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
تحمل اليه الهدايا فيقبل ولا يسأل . نعم سأل في اول قدومه الى
المدينة عما حمل اليه هل هو صدقة او هدية لان ذلك ليس فيه ايذاء
ولان قرينة الحال كانت تقتضى الامكان في الصدقة والهدية على
وتيرة واحدة وكان صلى الله عليه وسلم يدعى الى الضيافات فيجيب
ولا يسأل ولم ينقل السؤال الا نادرا في محل الريبة . فان قلت فان
وقع طعام حرام في سوق فهل يشترى من ذلك السوق ﴿فاقول﴾ ان
تحققت ان الحرام هو الاكثر فلا تشتر الا بعد التفتيش. وان علمت

ان الحرام كثير وليس بالاكثر فلك الشراء . والتفتيش من الورع.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله تعالى عليهم اجمعين يشترون في اسفارهم من الاسواق مع علمهم بان فيهم اهل الربا والغصب واهل الغلول في الغنيمة . وكانوا لا يتركون المعاملة معهم . وهذا الباب يستدعي شرحا طويلا . فان رغبت فيه فطالع كتاب الحلال والحرام من كتب الاحياء لتشهد عند مطالعته بانه لم يصنف في فنه مثله في التحقيق والتحصيل والاحاطة بجميع التفاصيل

الأصل الثامن في القيام بحقوق المسلمين

وحسن الصحبة معهم

وهو ركن من أركان الدين . اذ الدين معنـــاه السفر الى الله تعـــالى . ومن أركان السفر حسن الصحبة في منـــازل السفر مع المسافرين والخلق كلهم سفر يسير بهم العمر سير السفينة بركابها ﴿ واعلم ﴾ أن الانسان فى الدنيا إما ان يكون وحده أو يكون مع خواصه من أهل وولد وقريب وجار أو يكون مع عموم الخلق ، فهذه ثلاثة أحوال وعليه حسن الصحبة واداء الحقوق فى جميع هذه الاحوال

الحالة الاولى

أن يكون وحده وليعلم أنه بنفسه عالم وان باطنه يشتمل على اصناف من الخلق مختلفى الطباع والاخلاق فان لم يحسن صحبتهم ولم يقم بحقوقهم هلك ، واصناف جنود الباطن كثيرة ﴿ وما يعلم جنود ربك الا هو ﴾ وقد استقصينا بعض ذلك فى كتاب « عجائب القلب » ونذكر الآن أمراء الجنود ورؤسها ، فنقول فيك شهوة تجذب بها الى نفسك النافع وغضب تدفع به عن نفسك الضار ، وعقل تدبر به الامور وترعى به الرعية ، فانت باعتبار غضبك كلب وباعتبار شهوتك بهيمة كالفرس مثلا ، وباعتبار عقلك ملك وأنت مأمور بالعدل بينهم والقيام بحقوقهم والاستعانة بهم لتقتنص بمعونتهم سعادة الابد ، فان رضت الفرس وأدبت الكلب وسخرتهما للملك تيسر لك الظفر بما طلبت ، وان سخرت العقل في استنباط الحيل لتحصيل ما يتقاضاه الكلب بغضبه[1] ولجاجه ، والفرس بحرصه وجشعه أوفيت على العطب فضلا عن ادراك مقصود الطلب فصرت منكوسا معكوسا فاجراً ظالماً لان الظلم وضع الشىء في غير موضعه ، ولو رأيت شخصاً جعل في طاعته ملك وكلب وخنزير فلم يزل يضطر الملك الى أن

---

(١) وفي نسخة « بعضه »

يسجد للخنزير والكلب ، فهل تراه ظالماً مستوجبا اللعنة ، ولو كوشفت بحالك عند منامك أو عند فنائك عن نفسك كما وصفناه في الاستغراق بالله لرأيت كل من أطاع شهوته وغضبه ساجداً لكلب وخنزير إذ لم يكن الكلب كلباً لصورته بل لمعناه، وكذلك ترى نفسك بعد الموت لان المعانى في عالم الآخرة تستتبع الصور ولا تتبعها فيتمثل كل شيء بصورة توازى معناه فيحشر المتكبرون في صغر الذر يطؤهم من أقبل وادبر ، والمتواضعون اعزاء

﴿ وأما هذا العالم ﴾ فعالم التلبيس فقد يودع معنى الخنزير والكلب فى صورة الانسان فلا تغتر به فان ذلك ينكشف يوم تبلى السرائر ، فعليك ان تحسن صحبة رفقائك الثلاثة فتكسر شره الشهوة بسطوة الغضب وتقل من غلواء الغضب بخداع الشهوة ، وتسلط احدهما على الآخر فان ذلك بليغ جداً في تقويمها حتى ينقادا للعقل والشرع فيستعملهما العقل بحيث ينتفع بهما كما يستعمل الصائد الفرس والكلب عند الحاجة ويسكنهما عند الاستغناء ، وشرح هذه الرياضة والصيد طويل ذكرناه فى كتاب رياضة النفس

الحالة الثانية

صحبتك مع عموم الخلق فأقل درجات حسن الصحبة كف الاذى عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم من سلم

المسلمون من لسانه ويده ﴾ وفوق ذلك أن تنفعهم وتحسن اليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم الى الله انفعهم لعياله) وفوق ذلك ان تحتمل الاذى منهم وتحسن مع ذلك اليهم ، وذلك درجة الصديقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ رضى الله عنه (ان أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك) هذه جملة الامر ، وتفصيل هذه الحقوق كثيرة وتقتصر من جملتها على عشرين وظيفة

(فمنها) أن لا تحب للناس الا ما تحب لنفسك قال عليه السلام ﴿ من سره ان يزحزح عن النار فليأته منيته وهو يشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وليأت الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه)

(ومنها) أن يتواضع لكل أحد ولا يفتخر عليه فان الله لا يحب كل مختال فخور، وان تكبر عليه غيره فليحتمل قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

(ومنها) ان يوقر المشايخ ويرحم الصبيان قل عليه السلام (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا) وقال عليه السلام (من اجلال الله تعالى اكرام ذي الشيبة المسلم) وقال صلى الله عليه وسلم (ما وقر شاب شيخاً لسنه الا قيض الله له فى شيبتـه من يوقره) وهذا يبشره بطول الحياة مع الاجر

﴿ ومنها ﴾ ان تكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه وقال صلى الله عليه وسلم (أتدرون على من حرمت النار) قالوا الله ورسوله اعلم قال (على الهين اللين السهل القريب) وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله يحب السهل الطلق)

﴿ ومنها ﴾ اصلاح ذات البين بين المسلمين ولو بالمبالغة والزيادة فى الكلام قال صلى الله عليه وسلم (ليس بكذاب من أصلح بين الاثنين ، فقال خيراً أو نمى خيراً) وقال صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأفضل من درجات القيام والصلاة والصدقة) قالوا بلى يا رسول الله قال (اصلاح ذات البين) وفساد ذات البين هى الحالقة

﴿ ومنها ﴾ ان لا تسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض قال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة قتات) وقيل من نمّ اليك نمّ عليك

﴿ ومنها ﴾ ان لا تزيد فى الهجرة عند الوحشة على ثلاثة أيام قال صلى الله عليه وسلم (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) وقال صلى الله عليه وسلم (من أقال مسلما عثرته أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة)

﴿ ومنها ﴾ أن تحسن الى كل أحد كان أهلا لذلك أو لم يكن

قال صلى الله عليه وسلم (اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس أهله فان لم يصب أهله فانت من أهله)

﴿ ومنها ﴾ أن تخالق كل صنف بأخلاقهم ولا تلتمس من الجاهل والغبي ما تلتمس من الورع العالم ، قال داود عليه السلام (الهي كيف لي أن يحبنى الناس وأسلم فيما بينى وبينك) فأوحى الله سبحانه اليه (خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة)

﴿ ومنها ﴾ أن تنزل الناس منازلهم فتزيد في اكرام ذى المنزلة وان كانت منزلته في الدنيا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط رداءه لبعضهم ، وقال (اذا جاءكم كريم قوم فاكرموه)

﴿ ومنها ﴾ أن تستر عورات المسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم (لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه الا دخل الجنة) وقال صلى الله عليه وسلم (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم) فان من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته

﴿ ومنها ﴾ ان تتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن والسنتهم عن الغيبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(إتقوا مواضع التهم) وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم احدى نسائه فمر به رجل ، فسلم عليه فلما مر دعاه ، فقال يا فلان هذه زوجتي صفية فقال يا رسول الله من كنت أظن فيه فاني لا أظن فيك ، فقال ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم

﴿ ومنها ﴾ ان تسعى فى قضاء حوائج المسلمين ولو بشفاعة قال صلى الله عليه وسلم (اشفعوا الى تؤجروا فانى أريد الامر فأؤخره كى تشفعوا الىّ فتؤجروا) وقال صلى الله عليه وسلم (من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين) وقال صلى الله عليه وسلم (قيامك مع أخيك ساعة خير من اعتكافك سنة)

﴿ ومنها ﴾ان تبادر بالسلام على كل مسلم وتصافحه ليكون لك فضل البداية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة تسع وستون لاحسنهما برا) .

﴿ ومنها ﴾ أن ينصر أخاه في غيبته فيرد عن عرضه وماله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من أحد ينصر مسلما فى موضع يهتك فيه من عرضه وتستحل حرمته الا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته . وما من أحد يخذل مسلمًا فى موضع تهتك فيه حرمته الا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته)

﴿ ومنها ﴾ ان تدارى أهل الشر لتسلم منهم ، قالت عائشة رضى الله عنها استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إئذنوا له فبئس رجل العشيرة ، فلما دخل ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة ، فلما خرج راجعته في ذلك فقال (يا عائشة ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من يكرمه الناس اتقاء فحشه)، وقال صلى الله عليه وسلم (ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة) وقال صلى الله عليه وسلم (خالطوا الناس بأعمالهم وزايلوهم بالقلوب)

﴿ ومنها ﴾ أن تحذر مجالسة الاغنياء وتكثر مجالسة المساكين قال صلى الله عليه وسلم (إياكم ومجالسة الموتى) قيل ومن هم قال الاغنياء . وقال صلى الله عليه وسلم (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين) وكان سليمان عليه السلام اذا رأى في المسجد مسكيناً جلس اليه وقال مسكين جالس مسكيناً . وقال موسى عليه السلام (إلهي أين أطلبك قال عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)

﴿ ومنها ﴾ أن لا يجالس إلا من يفيده في الدين فائدة أو من يستفيد منه . فأما أهل الغفلة فيتحذر منهم . قال صلى الله عليه وسلم (الوحدة خير من الجليس السوء) والجليس الصالح خير من

الوحدة . فاذا أكثر من مجالسة أهل الغفلة فينتقص من دينه بكل جلسة شيء . فليقدر ان كل واحد منهم لو كان يأخذ منه في كل جلسة سلكا من ثوبه أو شعرة من شعر لحيته أما كان يحذره خيفة أن يصير على القرب أمرد عاريا . فالحذر لاجل الدين أولى

﴿ ومنها ﴾ أن يعود مرضاهم . ويشيع جنائزهم ويزور قبورهم ويدعو لهم فى الغيبة . ويشمت العاطس وينصف الناس من نفسه . وينصح اذا استنصح. الى غيرذلك من حقوق كثرت فيها الاخبار آثرنا فيها الاختصار . وجملتها أن تعمل فى حقهم ماتحب أن يعمل في حقك من احسان واهتمام وكف أذى *

الحالة الثالثة

الصحبة مع من يدلى سوى عموم الاسلام بخاصية كجوار أو قرابة أو ملك

قال صلى الله عليه وسلم (اذا رميت كلب جارك فقد آذيته) وقال صلى الله عليه وسلم (أول خصمين يوم القيامة جاران) وقيل له صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصوم النهار وتصلى الليل وتؤذى الجيران فقال (هي في النار) وقال صلى الله عليه وسلم (أتدرون ماحق الجار إن استعان أعنته . وإن استقرضك أقرضته

وإن افتقر جدت عليه وإن مرض عدته . وإن مات اتبعت جنازته .
وان أصابه خير هنأته . وان أصابته مصيبة عزيته . ولاتستطيل
عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه . واذا اشتريت فاكهة
فاهد له وان لم تفعل فأدخلها سراً ولايخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده
ولاتؤذه بقتار قدرك الا أن تغرف له منها اتدرون ماحق الجار
والذى نفسى بيده لايبلغ حق الجار الا من رحمه الله)

﴿ وأما القرابة ﴾ فقد قال صلى الله عليه وسلم قال الله تبارك
وتعالى (أنا الرحمن) وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمي . فمن
وصلها وصلته . ومن قطعها بتته ، وقال صلى الله عليه وسلم (صلة
الرحم تزيد فى العمر) وقال صلى الله عليه وسلم (توجد رائحة الجنة
على مسيرة خمس مابة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم)
وقال صلى الله عليه وسلم (برّ الوالدين أفضل من الصلاة والصيام
والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله عز وجل) وقال صلى الله عليه
وسلم (برّ الوالدة على الولد ضعفان) وقال صلى الله عليه وسلم
(ساووا بين أولادكم بالعطية)

﴿ وأما المملوك ﴾ فقد قال فيهم صلى الله عليه وسلم (اتقوا الله
فيما ملكت أيمانكم اطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا
تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فان الله ملككم إياهم ولو شاء

لملكهم إياكم) وقال صلى الله عليه وسلم (اذا كفى احدكم مملوكه طعاما فكفاه حره وعلاجه وقرّبه اليه فليجلسه فليأكل معه أو ليأخذ لقمة فليروغها وليضعها فى يده وليقل كل هذه) وسئل صلى الله عليه وسلم كم نعفو عن المملوك فى اليوم والليلة ، قال سبعين مرة ، فجملة حق المملوك أن يشركه فى طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ويعفو عن زلته ولا ينظر اليه بعين الكبر والازدراء ، ويعلمه مهمات دينه •

﴿ وأما حقوق المنكوحة ﴾ فنزيد على هذا إذ يجب لها مع القيام بواجباتها حسن العشرة والمطايبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خيركم خيركم لاهله ، وأنا خيركم لاهلى) وكان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه والاخبار فى ذلك اكثر من أن تحصى •

فصل

من أصول الدين في أمر الصحبة اتخاذ الاخوان فى الله عز وجل قال تعالى لبعض أنبيائه (أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت الراحة وأما انقطاعك الىّ فقد تعززت بى فهل واليت فيّ وليا ، وهل عاديت فيّ عدواً) وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله يوم

القيامة ﴿ أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلي ﴾ وأوحى الله سبحانه الى عيسى عليه السلام (لو أنك عبدتني بعبادة أهل السموات والارض وحب في الله ليس وبغض فى الله ليس ما أغنى عنك ذلك شيئاً) وقال صلى الله عليه وسلم (ان حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور وليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء) فقالوا يا رسول الله حلّهم لنا من هم . فقال (المتحابون في الله ، والمتجالسون في الله ، والمتزاورون فى الله عز وجل) ٠

﴿ واعلم أن كل حب ﴾ لا يتصور دون الايمان بالله واليوم الآخر فهو حب في الله ، ولكنه على درجتين ﴿ احداهما ﴾ أن تحبه لتنال منه في الدنيا نصيباً يوصلك الى الآخرة كحبك استاذك وشيخك ، بل تلميذك الذى ينمو علمك بتعليمه ، بل خادمك الذى يفرغ قلبك عن كنس بيتك وغسل ثوبك لتتفرغ بسببه لطاعة الله تعالى بل المنفق عليك من ماله اذا كان غرضك من ذلك افراغ القلب لعبادة الله تبارك وتعالى ، ﴿ الثانية ﴾ وهى أعلى أن تحبه لانه محبوب عند الله عز وجل ويحب الله وان لم يتعلق غرض به لك في الدنيا والآخرة من علم أو معونة على دين أو غيره ، وهذا أكمل لان الحب اذا غاب تعدى الى كل من هو من المحبوب

بسبب حتى يحب الانسان محب محبوبه ومحبوب محبوبه ، بل يميز بين الكلب الذى هو في سكة محبوبه وبين سائر الكلاب ، وإنما سراية الحب بقدر غلبة الحب ، ومن أحب لقاء الله لم يمكنه أن لا يحب عباده الصالحين المرضيين عنده إلا أن ذلك قد يقوى حتى يحمل أن يسلك بهم مسلك نفسه بل يؤثرهم على نفسه، وقد يقصر عن ذلك. وفضلهم عنده ينقسم بقدر درجته وقوته وكذلك يبغض لامحالة من يعصيه ويخالف أمره ويظهر أثر ذلك في مجانبته ومهاجرته له وتقطيبه الوجه عند مشاهدته ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ اللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي ﴾ حذراً من أن يقدح ذلك في البغض في الله ، وبالجملة من لا يصادف من نفسه الحب فى الله والبغض في الله بهذه الاسباب فهو ضعيف الايمان. وهذا له تفصيل وتحقيق . فاطلبه من كتاب الصحبة والاخوة فى الله تعالى ه

الأصل التاسع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) الآية وقال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الآية وقال تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته: أيها الناس انكم تقرؤن هذه

الآية وتتأولونها على خلاف تأويلها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الا أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر الفا أعمالهم أعمال الانبياء » قالوا يا رسول الله كيف ذلك ، قال « لم يكونوا يغضبون لله عز وجل ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » *

فصـــل

كل من شاهد منكراً ولم ينكره وسكت عنه فهو شريك فيه فالمستمع شريك المغتاب . ويجرى هذا فى جميع المعاصى حتى فى مجالسة من يلبس الديباج ويتختم بالذهب ويجلس على الحرير . والجلوس في دار أو فى حمام على حيطانها صور أو فيها أوانى من ذهب أو فضة أو الجلوس فى مسجد يسىء الناس الصلاة فيه فلا يتمون الركوع والسجود والجلوس في مجلس وعظ يجري فيه ذكر البدعة أو فى مجلس مناظرة أو مجادلة يجرى فيها الايذاء والافحاش بالسفه والشتم ، وبالجملة من خالط الناس كثرت معاصيه وان كان تقيا في نفسه الا أن يترك المداهنة ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويشتغل بالحسبة والمنع وانما يسقط عنه الوجوب بأمرين :

﴿ أحدهما ﴾ أن يعلم أنه ان أنكر لم يلتفت اليه ولم يترك المنكر ونظر اليه بعين الاستهزاء، وهـذا هو الغالب فى منكرات ترتكبها الفقهاء ومن يزعم أنه من أهل الدين ، فههنا يجوز السكوت ولكن يستحب الزجر باللسان اظهاراً لشعار الدين مهما لم يقدر على غير الزجر باللسان ، ويجب أن يفارق ذلك الموضع فليس يجوز مشاهدة المعصية بالاختيار ، فمن جلس في مجلس الشرب فهو فاسق وان لم يشرب ، ومن جالس مغتابا أو لابس حرير أو آكل ربا أو حرام فهو فاسق فليقم من موضعه

﴿ والثانى ﴾ أن يعلم أنه يقدر على المنع من المنكر بأن يرى زجاجة فيها خمر فيرميهـا فتكسر، أو يسلب آلة الملاهي من يده ويضربها على الارض ولكن يعلم انه يضرب أو يصاب بمكروه ، فههنا يستحب الحسبة لقوله تعالى ﴿ وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ ولا يجب إلا أن يكون المكروه الذي يصيبه له درجات كثيرة يطول النظر فيها ذكرناها في كتاب الامر بالمعروف من الاحياء، وعلى الجمـلة فلا يسقط الوجوب الا بمكروه فى بدنه بالضرب أو في ماله بالاستهلاك أو في جاهه بالاستخفاف به بوجه يقدح في مروءته ، فأما لخوف استيحاش المنكر عليه وخوف تعرضه له باللسان وعداوته له أو توهم سعيه له فى المستقبل بما يسوؤه أو يحول بينه وبين زيادة خير يتوقعها، فكل ذلك موهومات وأمور ضعيفة لا يسقط الوجوب بها •

فصل

عمدة الحسبة شيئان (احدهما) الرفق واللطف والبداية بالوعظ على سبيل اللين لا على سبيل العنف والترفع والادلال بدالة الصلاح فان ذلك يؤكد داعية المعصية ويحمل العاصى على المناكرة وعلى الايذاء . ثم إذا آذاه ولم يكن حسن الخلق غضب لنفسه وترك الانكار لله تعالى واشتغل بشفاء غليله منه فيصير عاصياً بل ينبغي أن يكون كارهاً للحسبة يود لو ترك المعصية بقول غيره فانه اذا أحب أن يكون هو المتعرض [١] كان ذلك لما في نفسه من دالة الاحتساب وعزته . قال عليه السلام (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهي عنه فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه)

ووعظ المأمون رحمة الله عليه واعظ بعنف فقال يارجل ارفق فقد بعث الله تعالى من هو خير منك الى من هو شر مني فأمره بالرفق فقال الله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وروى أبو امامة الباهلى رضى الله عنه أن غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أتأذن لى بالزنا فصاح الناس به فقال النبي عليه السلام (أقروه أقروه أدن منى) فدنا منه فقال عليه السلام

(١) وفى النسخة النورية «المعترض»

(أتحبه لامك) فقال لا جعلني الله فداك قال عليه السلام (كذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم) ثم قال (أتحبه لابنتك) قال لا قال (كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم) حتى ذكر له الاخت والعمة والخالة ويقول عليه السلام (كذلك الناس لا يحبونه) ثم وضع يده على صدره وقال (اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه) فلم يكن بعد ذلك شيء أبغض اليه من الزنا .

وقال بعضهم للفضيل ان سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان. فقال ما أخذ منهم الادون حقه ثم خلا به وعاتبه بالرفق . فقال يا أبا على ان لم نكن من الصالحين فانا نحب الصالحين .

العمدة الثانية

أن يكون المحتسب قد بدأ بنفسه فهذبها وترك ماينهى عنه أولا . قال الحسن البصرى اذا كنت تأمر بالمعروف فكن من آخذى الناس به والا هلكت . فهذا هو الاولى حتى ينفع كلامه والا استهزىء به . وليس هذا شرطا بل يجوز الاحتساب للعاصى أيضاً . قال أنس قلنا يارسول الله الا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله. قال عليه السلام (بلى مروا بالمعروف وان لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وان لم تجتنبوه كله) وقال الحسن البصرى يريد أن لا يظفر الشيطان منكم بهذه الخصلة

وهو أن لا تأمروا بالمعروف حتى تأتوا به كله يعني ان هذا يؤدي
الى حسم باب الحسبة . فمن ذا الذي يعصم عن المعاصى *

الأصل العشر في اتباع السنة

اعلم أن مفتاح السعادة اتباع السنة والاقتداء برسول الله صلى
الله عليه وسلم فى جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته حتى
في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه . لست أقول ذلك في آدابه
فى العبادات فقط لانه لا وجه لاهمال السنن الواردة فيها بل ذلك
في جميع أمور العادات . فبذلك يحصل الاتباع المطلق قال الله
سبحانه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال تعالى
﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ فعليك ان
تلبس السراويل قاعداً وتتعمم قائماً. وتبدأ باليمين في تنعلك وتأكل
بيمينك . وتقلم اظفارك وتبتدىء بمسبحة اليد اليمنى وتختم بابهامها
وفي الرجل تبتدىء بخنصر اليمنى وتختم بخنصر اليسرى . وكذلك
في جميع حركاتك وسكناتك فقد كان محمد بن أسلم لا يأكل البطيخ
لانه لم ينقل اليه كيفية أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم له . وسهى
بعضهم فابتدأ فى لبس الخف باليسرى . فكفر عن ذلك بكر حنطة.
فلا ينبغى أن تتساهل في أمثال ذلك فتقول هذا مما يتعلق بالعادات
فلا معنى للاتباع فيه لان ذلك يغلق عليك بابا عظيما من أبواب السعادة.

فصل

لعلك تشتهي الآن الوقوف على السبب المرغب في الاتباع في هذه الافعال وتستبعد أن يكون تحت ذلك أمر مهم يقتضى هذا التشديد العظيم فى المخالفة . فاعلم ان ذكر السر فى آحاد تلك السنن طويل لا يحتمل هذا الكتاب شرحه لكن ينبغي ان تفهم ان ذلك ينحصر في ثلاثة انواع من الاسرار (الاول) انا قد نبهناك في مواضع على العلاقة التى بين الملك والملكوت وبين الجوارح والقلب وكيفية تأثر القلب بعمل الجوارح فان القلب كالمرآة ولا تتجلى فيه حقائق الاشياء الا بتصقيله وتنويره وتعديله (اما تصقيله) فبازالة خبث الشهوات وكدورة الاخلاق الذميمة (واما تنويره) فبأنوار الذكر والمعرفة ويعين على ذلك العبادة الخالصة اذا أديت على كمال الخدمة بمقتضى السنة (وأما تعديله) فبأن يجرى في جميع حركات الجوارح على قانون العدل إذ اليد لا تصل الى القلب حتى تقصد بتعديله وتحدث فيه هيئة معتدلة صحيحة لا اعوجاج فيها ، وانما التصرف فى القلب بواسطة تعديل الجوارح وتعديل حركاتها ولهذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة ، ولهذا تعظم حسرة من مات قبل التعديل لانسداد طريق التعديل بالموت إذ تنقطع علاقة القلب عن الجوارح فمهما كانت حركات الجوارح بل حركات الخواطر أيضا موزونة بميزان العدل حدث فى القلب هيئة

عادلة مستوية تستعد لقبول الحقائق على نعت الصحة والاستقامة كما تستعد المرآة المعتدلة لمحاكاة الصور الصحيحة من غير اعوجاج

﴿ ومعنى العدل ﴾ وضع الاشياء مواضعها ، ومثاله أن الجهات مثلا أربع وقد خص منها جهة القبلة بالتشريف فالعدل أن تستقبلها في أحوال الذكر والعبادة والوضوء وأن تنحرف عنها عند قضاء الحاجة وكشف العورة اظهاراً افضل ماظهر فضله (ولليمين) زيادة على اليسار غالباً لفضل القوة. فالعدل أن تفضلها على اليسار وتستعملها في بعض الاعمال الشريفة كأخذ المصاحف والطعام وتترك اليسار للاستنجاء وتناول القاذورات « وقلم الظفر » مثلا تطهير لليد فهو اكرام فينبغى أن تبدأ بالاكرم والافضل . وربما لايستقل عقلك بالتفطن للترتيب فى ذلك وكيفية البداية ، فاتبع فيه السنة وابتدىء بالمسبحة من اليمنى لان اليد أفضل من الرجل واليمنى أفضل من اليسرى . والمسبحة التى بها الاشارة فى كلمة التوحيد أفضل من سائر الاصابع . ثم بعد ذلك تدور من يمين المسبحة . وللكف ظهر ووجه فوجهه ماتقابله . فاذا جعلت الكف وجه اليد كان يمين المسبحة من جانب الوسطى فقدّر اليدين متقابلتين بوجهيهما . وقدر الاصابع كأنها أشخاص فتدور بالمقراض من المسبحة الى أن تختم بابهام اليمنى . كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحكمة فى ذلك ماذكرناه . فاذا أنت تعودت رعاية العدل في

دقائق الحركات صارت العدالة والصحة هيئـــة راسخة في قلبك واستوت صورها . وبذلك تستعد لقبول صورة السعادة . ولذلك قال الله تعالى ﴿فاذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي﴾ فروح الله عز وجل مفتاح أبواب السعادة ولم يكن نفخها إلا بعد التسوية . ومعنى التسوية يرجع الى التعديل . وفي ذلك سر طويل يطول شرحه وإنما نريد الرمز الى أصله . فان كنت لاتقوى على فهم حقيقته فالتجربة تنفعك . فانظر الى من تعود الصدق كيف يصدق رؤياه غالباً لان الصدق حصل فى قلبه هيئة صادقة يتلقى لوائح الغيب في النوم على الصحة . وانظر كيف يكذب رؤيا الكذاب بل رؤيا الشاعر لتعوده التخيلات الكاذبة . فاعوج لذلك صورة قلبه . فان كنت تريد أن تلمح جنات القدس فاترك ظاهر الأثم وباطنه واترك الفواحش ماظهر منها ومابطن . واترك الكذب حتى في حديث النفس ايضا . ﴿السر الثاني﴾ أن تعلم أن الاشياء المؤثرة في بدنك بعضها انما يعقل تأثيرها بنوع من المناسبة الى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة كقولك ان العسل يضر المحرورين وينفع البارد مزاجه . ومنها مالايدرك بالقياس ويعبر عنه بالخواص وتلك الخواص لم يوقف عليها بالقياس بل مبدأ الوقوف عليها وحي أو إلهام . فالمغناطيس يجذب الحديد . والسقمونيا يجذب خلط الصفراء من أعماق العروق لا على القياس بل بخاصية وقف عليها اما بالالهام أو بالتجربة *

وأكثر الخواص عرفت بالالهام وأكثر التأثيرات في الادوية وغيرها من قبل الخواص فلذلك ﴿ فاعلم ﴾ ان تأثيرات الاعمال في القلب تنقسم الى ما يفهم وجه مناسبته كعلمك بأن اتباع الشهوة الدنيوية يؤكد علاقته مع هذا العالم فيخرج من العالم منكوس الرأس موليا وجهه الى هذا العالم إذ فيه محبوبه . وكعلمك ان المداومة على ذكر الله تعالى تؤكد الانس بالله تعالى وتوجب الحب حتى تعظم اللذة به عند فراق الدنيا والقدوم على الله سبحانه اذ اللذة على قدر الحب . والحب على قدر المعرفة والذكر .

﴿ومن الاعمال﴾ مايؤثر في الاستعداد لسعادة الآخرة أو لشقاوتها بخاصية ليست على القياس لا يوقف عليها إلا بنور النبوة فاذا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد عدل عن احد المباحين الى الآخر وآثره عليه مع قدرته عليهما ﴿فاعلم﴾ انه اطلع بنور النبوة على خاصية فيه وكوشف به من عالم الملكوت كما قال صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس ان الله أمرني أن أعلمكم مما علمني وأؤدبكم مما أدبني فلا يكثرن أحدكم الكلام عند المجامعة فانه يكون منه خرس الولد ولا ينظرن أحدكم الى فرج امرأته اذا هو جامعها فانه يكون منه العمى . ولا يقبلن أحدكم امرأته اذا هو جامعها فانه يكون منه صمم الولد . ولا يديمن أحدكم النظر في الماء فانه يكون منه ذهاب العقل) وهذا مثال مما ذكرناه وأردنا تنبيهك على اطلاعه على خواص الاشياء بالاضافة

الى أمور الدنيا لتقيس به اطلاعه صلى الله عليه وسلم على مايؤثر بالخاصية في السعادة والشقاوة فلاترضى لنفسك أن تصدق محمد بن زكريا الرازى المتطبب فيما يذكره من خواص الاشياء في الحجامة والاحجار والادوية ولاتصدق سيدالبشر محمد بن عبدالله الهاشمي المكى المدنى صلوات الله عليه وسلامه فيما يخبر به عنها، وأنت تعلم أنه صلى الله عليه وسلم مكاشف من العالم الاعلى بجميع الاسرار وهذا ينبهك على الاتباع فيما لا يفهم وجه الحكمة فيه على ما ذكرناه في السر الاول

﴿ السر الثالث ﴾ أن سعادة الانسان أن يتشبه بالملائكة في النزوع عن الشهوات وكسر النفس الامارة بالسوء ، ويبعد عن مشابهة البهيمة المهملة سدى التي تسترسل في اتباع الهوى بحسب ما يقتضيه طبعها من غير حاجز ، ومهما تعود الانسان في جميع الامور أن يفعل ما يشاء من غير حاجز الف اتباع مراده وهواه ، وغلب على قلبه صفة البهيمة ، فمصلحته أن يكون في جميع حركاته ملجما بلجام يصده عن طريق الى طريق كيلا تنسى نفسه العبودية ولزوم الصراط المستقيم فيكون أثر العبودية ظاهراً عليه في كل حركة ، إذ لا يفعل شيئاً بحسب طبعه بل بحسب الامر ، فلا ينفك في جميع أحواله عن مصادمات الزمان بايثار بعض الامور على بعض

ومن القى زمامه الى يد كاتب مثلا حتى لم يكن تصرفه وتردده بحكم طبعه بل بحكم غيره فنفسه أقوم الى قبول الرياضة الحقيقية وأقرب

وأقوى ممن جعل زمامه في يد هواه يسترسل بها استرسال البهيمة ، وتحت هذا سرّ عظيم في تزكية النفس ، وهذه فائدة تحصل بوضع الشارع صلى الله عليه وسلم كيف ما وضعه. والفائدة الحكمية والخاصية لا تتغير بالوضع وهذا يتغير بالوضع، فان المقصود ان لا يكون مخلى مع اختياره، وذلك المقصود يحصل بالمنع عن أحد الجانبين أي جانب كان ، وفي مثل هذا يتصور أن تختلف الشرائع لانه ثمرة الوضع ، فيكفيك هـذه التنبيهات الثلاث على فضل ملازمة الاتباع في جميع الحركات والسكنات ه

فصل

هذا التحريض كله الذي ذكرته انما هو في العادات (وأما في العبادات) فلا أعرف لترك السنة من غير عذر وجها الا كفر خفي أو حمق جلي ، بيانه أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال (تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة) فكيف تسمح نفس المؤمنين بتركها من غير عذر ، نعم يكون السبب في ذلك اما حمق أو غفلة بأن لا يتفكر في هذا التفاوت العظيم ، ومن يستحمق غيره اذا آثر واحداً على اثنين كيف لا يستحمق نفسه اذا آثر واحداً على سبع وعشرين ،لا سيما فيما هو عماد الدين ومفتاح السعادة الابدية ﴿وأما الكفر﴾ فهو أن يخطر بباله ان هذا ليس كذلك ، وانما

ذكره للترغيب فى الجماعة وإلا فأي مناسبة بين الجماعة وبين هذا العددالمخصوص من بين سائر الاعداد، وهذا كفرخفي قد ينطوي عليه الصدر وصاحبه لايشعر به، فما أعظم حماقة من يصدق المنجم والطبيب فى أمور أبعد من ذلك ولا يصدق النبي المكاشف بأسرار الملكوت ، فان المنجم لو قال لك إذا انقضى سبعة وعشرون يوما من أول تحويل طالعك أصابتك نكبة فاحترز في ذلك اليوم واجلس فى بيتك فلا تزال فى تلك المدة تستشعر وتترك جميع أشغالك، ولو سألت المنجم عن سببه لقال لك انما قلت ذلك لان بين درجة الطالع وموضع زحل سبعا وعشرين درجة فتتأخر النكبة في كل درجة يوما أو شهراً ، فاذا قيل لك هذا هوس إذ لا مناسبة له فلا تصدقن به فلا يخلو قلبك عن الاستشعار ، وتقول في أفعال الله تعالى عجائب لا تعرف مناسبتها ولعلها خواص لا تدرك ، وقد عرف بالتجربة ان ذلك مما يؤثر وان لم يعرف مناسبته ، ثم اذا آل الامر الى خبر النبوة عن الغيب انكرت مثل هذه الخواص وطلبت المناسبة الصريحة ، فهل لهذا سبب الا شرك خفي لا بل كفر جلي إذ لا محمل له سواه ، وسبب هذا التكاسل كله انه لا يهمك أمر آخرتك فان أمر دنياك لما كان يهمك فتحطاط فيه بقول المنجم والطبيب وبالاختلاج والفال والامور البعيدة عن المناسبة غاية البعد، وتنقاد الى الاحتمالات البعيدة لان الشفيق بسوء الظن مولع ، ولو

تفكرت لعلمت ان هذا الاحتياط بالخطر الابدي أليق ﴿فان قلت﴾ ففي أى جنس من الاعمال ينبغي أن تتبع السنة

﴿فأقول﴾ في كل ما وردت به السنة. والاخبار في ذلك كثيرة ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم (من احتجم يوم السبت والاربعاء فأصابه برص فلا يلومن الا نفسه) وقد احتجم بعض المحدثين يوم السبت وقال هذا الحديث ضعيف فبرص وعظم ذلك عليه حتى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكى اليه ذلك ، فقال لم احتجمت يوم السبت ، فقال لان الراوى كان ضعيفاً ، قال أليس كان قد نقل عني فقال تبت يا رسول الله ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشفاء فأصبح وقد زال ما به ، وقال صلى الله عليه وسلم « من احتجم يوم الثلاثاء لسبعة عشر كان دواء السنة » وقال صلى الله عليه وسلم « من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يلومن الا نفسه » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا انقطع شسع نعل احدكم فلا يمشى في نعل واحد حتى يصلح شسعه » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا ولدت امرأة فليكن أول ما تأكل الرطب فان لم يكن فتمر فانه لو كان شيء أفضل منه لاطعمه الله عز وجل مريم حين ولدت عيسى عليه السلام » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا أتى أحدكم بالحلواء فليصب منه ، واذا أتى أحدكم بالطيب فليمس منه » وأمثال ذلك في العادات كثيرة ولا يخلو شيء منها عن سره

خاتمة في ترتيب الأوراد وتوزيعها على الأصول العشرة

﴿ اعلم ﴾ أن هذه العبادات التي فصلناها﴿منها﴾ ما يمكن الجمع بينها كالصوم والصلاة والقراءة ﴿ ومنها ﴾ ما لا يمكن الجمع بينها كالقراءة والذكر والقيام بحقوق الناس والصلاة ، فينبغي أن يكون من أهم أمورك توزيع أوقاتك على أصناف الخيرات من صباحك الى مسائك ، ومن مسائك الى صباحك ، وتعلم أن مقصود العبادات تأكيد الانس بذكر الله عز وجل للانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ولن يسعد فى دار الخلود الا من قدم على الله سبحانه محبا له، ولا يكون محبا له الا من كان عارفا به مكثراً لذكره ولا تحصل المعرفة والحب الا بالفكر والذكر الدائم ، ولن يدوم الذكر في القلب الا بالمذكرات وهى العبادات المستغرقة للاوقات على التعاقب ، وباختلاف أصنافها زيادة تأثير فى التذكير ومنع الملال وسقوط اثره عن القلب بالدوام الذى ينتهي الى حد الاعتياد ، نعم ان كنت والها بالله عز وجل مستغرقا به لم تفتقر الى ترتيب الاوراد بل وردك واحد وهو ملازمة الذكر وما أراك تكون كذلك فان ذلك من أعز الامور فان لم تكن والها مستهتراً فعليك أن ترتب أورادك ، فأحد الاوراد هو من وقت انتباهك من النوم الى طلوع الشمس وينبغي أن تجمع فى هذا الوقت الشريف بعد الفراغ من الصلاة بين الذكر والدعاء والقراءة والتفكر فان لكل واحد أثراً آخر في تنوير

القلوب ، وتعرف كيفية ذلك وتفصيله من كتاب « بداية الهداية وكتاب ترتيب الاوراد» وكذلك تفعل بين الطلوع والزوال وبين الزوال والغروب ، وبين الغروب والعشاء فانها من أشرف الاوقات لان النشاط انما يتوفر بأن تميز ورد كل وقت لتكون في كل وقت عبادة أخرى تنتقل من بعضها الى بعض ، هذا ان كنت من العبّاد

﴿ فان كنت ﴾ معلما أو متعلما أو واليا فالاشتغال بذلك أولى فى بياض النهار وأفضل من العبادات البدنية لان اصل الدين العلم الذي به يحصل التعظيم لامر الله سبحانه والنفع الذي يصدر عن الشفقة على خلق الله تعالى ، وكذلك ان كنت معيلا محترفا فالقيام بحق العيال بكسب الحلال افضل من العبادات البدنية ، ولكن فى جميع ذلك لا ينبغي ان تخلو وتنفك عن ذكر الله تعالى بل تكون كالمستهتر بمعشوقه المدفوع الى شغل من الاشغال لضرورة وقته فهو يعمل ببدنه وهو غائب عن عمله حاضر بقلبه مع معشوقه

حكي عن ابى الحسن الجرجاني انه كان يعمل بالمسحاة دائما وكان يقول أعطينا اليد واللسان والقلب ، فاليد للعمل ، واللسان للخلق والقلب للحق . ولنقتصر على هذا القدر في قسم الطاعات الظاهرة ففيه الكفاية ان شاء الله ٥

﴿ القسم الثالث فى تزكية القلب عن الاخلاق المذمومة ﴾

قال الله تعالى ﴿قد أفلح من تزكى﴾ وقال ﴿قد أفلح من زكاها﴾ والتزكية هى التطهير ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الايمان) فافهم منه ان كمال الايمان بتزكية القلب [1] عما لا يحبه الله عز وجل وتحليته بما يحبه الله فالتزكية شطر الايمان وكيف يشتغل بالطهارة من لا يعرف النجاسة — فلنذكر الاخلاق المذمومة وهى كثيرة ولكن نحتاج أن نرد شعبها الى عشرة أصول *

---

(١) نعم ما قال بعض شعراء الفرس فيما له مناسبة بهذا البحث

دردل همه شرك روى برخاك جه سود * باجسم بليد وجامه باك جه سود
زهراست كناه توبه ترياق وي است * جون زهر بجان رسيد ترياق جه سود

وهذه ترجمة البيتين :

ما الفائدة في وضع الوجه والجبهة على التراب ، والقلب ممتلىء بالشرك؟ وما الفائدة من نظافة الالبسة مادام الجسم وسخاً ؟ الذنب كالسم والتوبة ترياقه ، وحينما يصل السم الى القلب ماذا ينفع الترياق؟

ومثله قول الشاعر العربي :

لا يغرنك ثوب نقيت * فهي بالصابون والماء نظيفه
تشبه البيضة لما فسدت * قشرها أبيض والباطن جيفه

الأصل الأول في شره الطعام

وهو من الامهات لان المعدة ينبوع الشهوات إذ منها تتشعب شهوة الفرج . ثم اذا غلبت شهوة المأكول والمنكوح يتشعب منها شره المال إذ لايتوصل الى قضاء الشهوتين إلا به . ويتشعب من شهوة المال شهوة الجاه إذ يعسر كسب المال دونه . ثم عند حصول المال والجاه وطلبهما تزدحم الآفات كلها كالكبر والرياء والحسد والحقد والعداوة وغيرها ، ومنبع جميع ذلك البطن — فلهذا عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الجوع ، فقال عليه السلام (مامن عمل أحب الى الله تعالى من الجوع والعطش) وقال (لايدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه) . وقال عليه السلام (سيد الاعمال الجوع) وقال عليه السلام (الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة) وقال عليه السلام (أفضلكم عند الله تعالى أطولكم جوعاً وتفكراً وأبغضكم الى الله تعالى كل أكول شروب نؤوم) وقال عليه السلام (ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه) وان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وقال عليه السلام (ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع والعطش) وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها (أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم) قالت

كيف نديم قال عليه السلام (بالجوع والظمأ) وقال عليه السلام (كلوا واشربوا فى أنصاف البطون فانه جزء من النبوة)

فصل

لعلك تشتهي أن تعلم السر في تعظيم الجوع ومناسبته لطريق الآخرة ﴿ فاعلم ﴾ ان له فوائد كثيرة ولكن يرجع أصولها الى سبع ﴿ احداها ﴾ صفاء القلب ونفاذ البصيرة فان الشبع يورث البلادة ويعمى القلب . قال صلى الله عليه وسلم (من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه) ولايخفى ان مفتاح السعادة المعرفة ولاتنال الا بصفاء القلب فلذلك كان الجوع قرع باب الجنة ﴿ الثانية ﴾ رقة القلب حتى يدرك به لذة المناجاة ويتأثر بالذكر والعبادة . وقال الجنيد يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة ، ولايخفى عليك أن أحوال القلب من الخشية والخوف والرقة والمناجاة والانكسار بالهيبة من مفاتيح أبواب الجنة وان كان باب المعرفة فوقه والجوع قرع لهذا الباب . ﴿ الثالثة ﴾ ذل النفس وزوال البطر والطغيان منها فلاتنكسر النفس بشيء كالجوع والطغيان داع الى الغفلة عن الله تعالى وهو باب الجحيم والشقاوة — والجوع اغلاق لهذا الباب . وفي اغلاق باب الشقاوة فتح باب السعادة — ولذلك لما عرضت الدنيا عليه صلى الله عليه وسلم قال (لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً فاذا جعت صبرت

وتضرعت . واذا شبعت شكرت) ﴿الرابعة﴾ ان البلاء من أبواب الجنة لان فيه مشاهدة طعم العذاب وبه يعظم الخوف من عذاب الآخرة . ولايقدر الانسان على أن يعذب نفسه بشيء كالجوع فانه لايحتاج فيه الى تكلف . وترتبط بها فوائد أخرى فيكون مشاهداً بلاء الله تعالى على الدوام

﴿الخامسة﴾ وهي من كبار الفوائد، كسر شهوات المعاصى والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء وكسر سائر الشهوات التي هي منابع المعاصى . قال علي رضى الله عنه « ماشبعت قط الاعصيت أو هممت بالمعصية » وقالت عائشة رضى الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ان القوم اذا شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم الى الدنيا

﴿السادسة﴾ خفة البدن للتهجد والعبادة وزوال النوم المانع من العبادة . فان رأس مال السعادة العمر . والنوم ينقص العمر اذ يمنع من العبادة . وأصله كثرة الاكل . قال ابو سليمان الداراني من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة العبادة . وتعذر حفظ الحكمة . وحرمان الشفقة على الخلق لانه اذا شبع ظن الخلق كلهم شباعاً . وزيادة الشهوات . وان سائر المؤمنين يدورون حول المساجد وهو يدور حول المزابل

﴿السابعة﴾ خفة المؤنة وامكان القناعة بقليل من الدنيا

وامكان ايثار الفقر فان من تخلص من شره بطنه لم يفتقر الى مال كثير فيسقط عنه أكثر هموم الدنيا فهما أراد أن يستقرض لقضاء شهوة البطن استقرض من نفسه وترك شهوته . كان اذا قيل لابراهيم ابن أدهم رحمة الله عليه في شيء انه غال قال أرخصوه بالترك.

فصــل

لعلك تقول قد صار الشبع والاكثار في الاكل عادة فكيف أتركها (فاعلم) ان ذلك يسهل على من اراده بالتدريج وهو أن ينقص كل يوم من طعامه لقمة حتى ينقص رغيفاً في مقدار شهر فلا يظهر أثره ويصير التقليل عادته ، ثم اذا أذعنت بالتقليل فلك النظر في الوقت والقدر والجنس ، أما القدر فله ثلاث درجات (أعلاها) وهي درجة الصديقين الاقتصار على قدر القوام وهو الذي يخاف النقصان منه على العقل أو الحياة ، وهو اختيار سهل التستري ، وكان يرى أن الصلاة قاعداً لضعفه بالجوع أفضل من الصلاة قائما مع قوة الاكل (الثانية) أن تقنع بنصف مد كل يوم وهو ثلث البطن وعلى ذلك كان فعل عمر رضى الله عنه وجماعة من الصحابة إذ كان قوتهم في الاسبوع صاعا من شعير (الثالثة) المد الواحد وما جاوز ذلك فهو مشاركة مع أهل العادة وميل عن طريق السالكين المسافرين الى الله تعالى . وقد يؤثر في المقادير اختلاف الاحوال والاشخاص، وعند ذلك فالاصل فيه أن يمد اليد

اذا صدق جوعه ويكف وهو بعد صادق الاشتهاء ، وعلامة صدق الجوع ان تشتهي أي خبز كان من غير أدم فاذا استثقل الاكل بغير أدم فهو علامة الشبع

﴿وأما الوقت﴾ ففيه أيضاً ثلاث درجات ﴿أعلاها﴾ أن ينطوي ثلاثة أيام فما فوقها، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوي ستة ايام ، وابراهيم بن ادهم والثوري سبعا ، وبعضهم انتهى الى اربعين يوماً . وقيل من طوى اربعين يوما ظهرت له لا محالة اشياء من عجائب الملكوت، ولا يمكن ذلك الا بالتدريج ﴿واما الاوسط﴾ بأن يطوي يومين ﴿ والادنى ﴾ بأن يأكل في اليوم مرة واحدة فمن اكل مرتين لم تكن له حالة جوع اصلا فيكون قد ترك فضيلة الجوع

﴿واما الجنس﴾ فأعلاه خبز البر مع الادام، وادناه خبز الشعير بلا ادام والمداومة على الادام مكروه جداً ، قال عمر رضي الله عنه لولده «كل مرة خبزاً ولحما ومرة خبزاً وسمناً ومرة خبزاً ولبناً ومرة خبزاً وملحاً ومرة خبزاً قفارا» فهذا تنبيه على الاحسن في اهل العادة

﴿ واما السالكون الطريق ﴾ فقد بالغوا في ترك الادام بل في ترك الشهوات جملة حتى كان بعضهم يشتهي الشهوة عشر سنين وعشرين سنة وهو يخالف نفسه ويمنعها شهواتها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم). وانما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام . وقد شرحنا طريق السلف في ترك الشهوات في كتاب كسر الشهوتين

الأصل الثاني في شره الكلام

وذلك لابد من قطعه فان الجوارح كلها تؤثر أعمالها في القلب ولكن اللسان أخص به لأنه يؤدى عن القلب ما فيه من الصور فيقتضى كل كلمة صورة في القلب محاكية لها فلذلك اذا كان كاذباً حصل في القلب صورة كاذبة واعوج به وجه القلب واذا كان في شيء من الفضول مستغنى عنه اسود به وجه القلب وأظلم حتى تنتهي كثرة الكلام الى اماتة القلب ، ولذلك عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر اللسان فقال (من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة) وسئل عن أكثر ما يدخل النار ، فقال عليه السلام (الا جوفان الفم والفرج) وقال عليه السلام (وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم) وقال (من صمت نجا) وقال له معاذ أى الاعمال أفضل فأخرج لسانه ووضع عليه يده ، وقال (ان اكثر خطايا ابن آدم في لسانه) ، وقال عليه السلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وقال عليه السلام (من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به) — ولهذا كان الصديق رضى الله عنه يضع حجراً في فيه ليمنع نفسه من الكلام *

فصل

اعلم ان للسان عشرين آفة شرحناها في «كتاب آفات اللسان» ويطول ذكرها ، ويكفيك العمل بآية واحدة قال الله تعالى ﴿ لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف ﴾ الآية ومعناه أن لا تتكلم فيما لا يعنيك وتقتصر على المهم ففيه النجاة ، قال أنس رضي الله عنه استشهد غلام منا يوم احد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئا لك الجنة يابني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومايدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره) وحد مالا يعني هو الذي لو ترك لم يفت به ثواب ولم تنتجز به ضرورة ومن اقتصر من الكلام على هذا قل كلامه ، فليحاسب العبد نفسه عند ذكره مالا يعنيه انه لو ذكر الله تعالى بدلا عن تلك الكلمة لكان ذلك كنزاً من كنوز السعادة فكيف يسمح العقل بترك كنز مكنوز وأخذ مدرة هذا لو لم يكن فيه اثم ، فان كان اثم فقد استبدل بترك كل كنز وأخذ شعلة من النار . ومن جملة مالا يعنى حكاية الاسفار وأحوال أطعمة البلاد وعاداتهم وأحوال الناس وأحوال الصناعات والتجارات وهو من جملة ما ترى الناس يخوضون فيه *

فصل

لعلك تريد أن تعرف تفصيل بعض هذه آلافات ﴿ فاعلم ﴾ ان الغالب على الالسنة من جملة العشرين آفة خمسة ﴿ الكذب والغيبة والمماراة والمدح والمزاح ﴾ — ﴿ الاولى ﴾ الكذب وقد قال صلى الله عليه وسلم (لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عندالله كذاباً) . وقال صلى الله عليه وسلم ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك منه الناس ويل له ويل له) وقيل يارسول الله أيزني المؤمن أيسرق المؤمن . قال عليه السلام(قديكون ذلك)فقيل له أيكذب . فقال(لا انما يفتري الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) . وقال عليه السلام (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فقعد وقال عليه السلام ألا وقول الزور) . وقال عليه السلام (كل خصلة يطبع الله عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب)

فصل

اعلم ان الكذب حرام في كل شيء إلا لضرورة حتى قالت امرأة لولدها الصغير تعال حتى أعطيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (وماذا كنت تعطينه لو جاء) قالت تمرة . قال (أما لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة) . فليحذر الانسان الكذب حتى في التخيل

وحديث النفس . فان ذلك يثبت في النفس صورة معوجة حتى تكذب الرؤيا فلاتنكشف فى النوم أسرار الملكوت والتجربة تشهد بذلك . نعم انما يرخص في الكذب اذا كان الصدق يفضى الى محذور آخر أشد من الكذب فيباح كاتباح الميتة اذا أدى تركها الى محذور أشد من أكلها وهو فوات الروح، قالت أم كلثوم رضي الله عنها مارخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الكذب الا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد الاصلاح . والرجل يقول القول في الحرب . والرجل يحدث امرأته . وهذا لان أسرار الحرب لو وقف عليها العدو اجترأ . وأسرار الزوج لو وقفت عليها المرأة نشأ منها فساد أعظم من فساد الكذب، وكذلك المتخاصمان تدوم بينهما المعصية والعداوة فاذا أمكن الاصلاح بكذب فذلك أولى . فهذا ماورد فيه الخبر ومافي معناه كذب الانسان ليستر مال غيره عن ظالم أو انكاره لسر غيره بل انكاره لمعصية نفسه عن غيره فان المجاهرة بالفسق واظهاره حرام وكذلك انكاره جناية نفسه على غيره لتطييب قلبه و كذلك انكاره معزوجته أن تكون ضرتها أحب اليه وكل ذلك يرجع الى دفع المضرات· ولا يباح لجلب زيادة مال وجاه وفيه يكون كذب أكثر الناس . ثم اذا اضطر الى الكذب فليعدل الى المعاريض ما أمكن حتى لايعتاد نفسه الكذب

كان ابراهيم بن أدهم اذا طلب في الدار قال لخادمته قولى له

اطلبه في المسجد . وكان الشعبي يخط دائرة ويقول لخادمته ضعي الاصبع فيها . وقولى ليس ههنا . وكان بعضهم يعتذر عند الامير ويقول منذ فارقتك مارفعت جنبي من الارض الا ماشاء الله تعالى . وكان بعضهم ينكر ماقال فيقول ان الله ليعلم ماقلت من ذلك من شيء فيوهم النفي بحرف « ما » وهو يريد غير ذلك . وتبـاح المعاريض لغرض خفيف لقوله صلى الله عليه وسلم (لايدخل الجنة عجوز ونحملك على ولد البعير وفى عينى زوجك بياض) لان هذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراد . فيبـاح مثل ذلك مع النساء والصبيان لتطييب قلوبهم بالمزاح — وكذلك من يمتنع عن أكل الطعام فلاينبغي أن يكذب ويقول لاأشتهي اذا كان يشتهي بل يعدل الى المعاريض . قال النبي عليه السلام لامرأة قالت ذلك (لاتجمعي كذباً وجوعاً)*

﴿ الآفة الثانية الغيبة ﴾

قال الله تعالى ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ وقال عليه السلام (الغيبة أشد من الزنا) وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام « من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار » وقال صلى الله عليه وسلم (مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم . فقيل لى هؤلاء الذين كانوا يغتابون الناس)

﴿ واعلم ﴾ ان حد الغيبة كما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه وان كنت صادقاً سواء ذكرت نقصاناً في نفسه أو عقله أو ثوبه أو فعله أو قوله أو داره أو نسبه أو دابته أو شيئاً مما يتعلق به حتى قولك انه واسع الكم أو طويل الذيل . حتى ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقيل ما أعجزه فقال عليه السلام (اغتبتموه) وأشارت عائشة رضى عنها بيدها الى امرأة انها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتيها . فبهذا يعلم ان الغيبة لاتقتصر على اللسان بل لافرق بين أن يحصل التفهيم باليد أو بالرمز أو بالاشارة أو بالحركة أو بالمحاكاة أو التعريض المفهم كقولك ان بعض أقربائنا وبعض اصدقائنا كذا كذا

﴿ واعلم ﴾ ان اخبث انواع الغيبة غيبة القراء . يقولون مثلا الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان لطلب الدنيا او نعوذ بالله من قلة الحياء وهم يفهمون المقصود بذلك . يقولون ما احسن احوال فلان لولا انه بلى بمثل ما ابتلى به امثالنا وهو قلة الصبر عن الدنيا فنسأل الله تعالى ان يعافينا . وغرضهم بذلك الغيبة فيجمعون بين الغيبة والرياء واظهار التشبه بأهل الصلاح في الحذر من الغيبة . وهذه خبائث يغترون بها وهم يظنون انهم تركوا الغيبة — وكذلك قد يغتاب واحد فيغفل عنه الحاضرون فيقول سبحان الله مااعجب هذا حتى ينتبه القوم الى الاصغاء فيستعمل ذكر الله في تحقيق خبثه

ويقول قلبي مشغول بفلان تاب الله علينا وعليه وليس غرضه الدعاء
بل التعريف ولو قصد الدعاء لأخفاه ولو اغتم قلبه لاجله لكتم
عيبه ومعصيته — وكذلك المستمع قد يظهر تعجبا من كلام المغتاب
حتى يزيد نشاطه في الغيبة . والمستمع احد المغتابين، كذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف اذا حرك نشاطه بالتعجب .
وكذلك قد يقول دع غيبة فلان وهو بقلبه غير كاره لغيبته انما
غرضه ان يعرف بالتورع — وذلك لايخرجه عن اثم الغيبة مالم
يكرهها بقلبه ، ويورطه في اثم الرياء بل يخرج من الاثم بأن يكرهه
قلبه ويكذب المغتاب ولا يصدقه عليه لانه فاسق يستحق التكذيب
والمسلم المذكور بالغيبة يستحق احسان الظن به . قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وعرضه وماله وان
يظن به ظن السوء) . فالغيبة بالقلب حرام كما انه باللسان حرام الا
ان يضطر الى معرفته بحيث لايمكنه التجاهل *

فصل

إنما يرخص فى الغيبة في ستة مواضع ﴿ الاول منها ﴾ المتظلم
يذكر ظلم الظالم عند سلطان ليدفع ظلمه فاما عند غير سلطان وعند
غير من لا يقدر على الدفع فلا . اغتيب الحجاج عند بعض
السلف ، فقال ان الله لينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من
الحجاج لمن ظلمه ﴿ الثانى ﴾ الذي يستعان به على تغيير المنكر يجوز

أن يذكر له أيضا ﴿ الثالث ﴾ المستفتي اذا افتقر الى ذكر السؤال كما قالت هند للقاضي إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني - وهذا كله شكاية ولكن انما يحل اذا كانت فيها فائدة ﴿ الرابع ﴾ تحذير المسلم من شر الغير اذا علم أنه لو لم يذكره لقبلت شهادته كما يذكر المزكي اذ يعامل ويناكح فيتضرر به فيذكر لمن يتوقع ضرره به فقط ﴿ الخامس ﴾ أن يكون معروفا باسم فيه عيبه كالاعمش والاعرج فالعدول الى اسم آخر أولى ﴿ السادس ﴾ أن يكون مجاهراً بذلك العيب لا يكرهه أن يذكر كالمخنث وصاحب الماخور[1] قال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بالفسق والامام الجائر، وهؤلاء يجمعهم أنهم مجاهرون لا يكرهون الذكر، والصحيح أن ذكر الفاسق بمعصية يخفيها ويكره ذكرها لا يجوز من غير عذر *

فصل

علاج النفس في كفها عن الغيبة أن يتفكر في الوعيد الوارد فيها في قوله صلى الله عليه وسلم (إن الغيبة أسرع فى حسنات العبد من النار في اليبس) وورد أن حسنات المغتاب تنقل الى ديوان المظلوم بالغيبة فينظر في قلة حسناته وكثرة غيبته وانه ينتهي الى افلاسه على القرب ثم يتفكر فى عيوب نفسه فان كان فيه عيب فيشتغل بنفسه عن غيره وان كان قد ارتكب صغيرة فيعلم أن

(١) الماخور الموضع الذى يباع فيه الخمر *

ضرره من صغيرة نفسه اكثر من ضرره من كبيرة غيره وان لم يكن فيه عيب فيعلم أن جهله بعيوب نفسه أعظم عيب، ومتى يخلو الانسان من عيب ثم ان خلا عنه فليشكر الله تعالى بدلا من الغيبة فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب فليحذر منه، ثم مهما سبق لسانه الى الغيبة فينبغي أن يستغفر الله تعالى ويذهب الى المغتاب ويقول ظلمتك فاعف عنى فيستحله فان لم يصادفه فليكثر من الثناء عليه ومن الدعاء له ومن الحسنات حتى اذا نقل بعضها الى ديوان المظلوم بقي له ما يكفيه فهي كفارة الغيبة *

﴿ الآفة الثالثة المراء والمجادلة ﴾

قال صلى الله عليه وسلم (من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ومن تركه وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة) وهذا لان الترك على المحق أشد، وقال عليه السلام (لا يستكمل العبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وهو محق) ﴿ وحدّ المراء ﴾ هو الاعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ وإما في المعنى، والباعث عليه تارة الترفع باظهار الفضل، وسببه خبث الرعونة، واما السبعية التى في الطبع المتشوفة الى تنقيص الغير وقهره فالمراء والمجادلة تقوية لهذين الخبيثين المهلكين بل الواجب ان يصدق ما سمعه من الحق ويسكت عما سمعه من الخطاء الا اذا كان في ذكره فائدة دينية وكان يسمع منه فيذكره برفق لا بعنف

﴿ الآفة الرابعة المزاح ﴾

والافراط فيه يكثر الضحك ويميت القلب ويورث الضغينة ويسقط المهابة والوقار ، قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه فيهوى بها أبعد من الثريا) وقال عليه السلام (لا تمار أخاك ولا تمازحه)

﴿ واعلم ﴾ أن اليسير منه في بعض الاوقات لا بأس به لاسيما مع النساء والصبيان تطييباً لقلوبهم نقل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه قال (انى لامزح ولا أقول الا حقاً) ويعسر على غيره ضبط ذلك وقد روى أنه سابق عائشة رضى الله عنها بالعدو ، وقال عليه السلام لعجوز (لا يدخل الجنة عجوز) أى لا يبقى عجوزاً فى الجنة[1] ، وقال لصبي يا أبا عمير ما فعل النغير ، والنغير ولد العصفور كان يلعب به الصبي. وقال صلى الله عليه وسلم لصهيب وهو يأكل التمر (أتأكل التمر وأنت رمد) وقال إنما آكل بالشق الآخر فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا وأمثاله من المفاكهة لا بأس بها بشرط ان لا يتخذها عادة *

﴿ الآفة الخامسة المدح ﴾

كما جرت به عادة الناس عند المحتشمين[2] من أبناء الدنيا وكما

---

(١) وفي النسخة العراقية « لا يدخل الجنة عجوز » اي لا يبقى في الجنة عجوزاً. (٢) اى الاكابر والسلاطين

جرت به عادة القصاص والمذكرين . فانهم يمدحون من يحضر مجالسهم من الاغنياء . وفي المدح ست آفات ﴿ أربع ﴾ على المادح ﴿ واثنتان ﴾ على الممدوح . أما المادح ﴿ فالآفة الاولى فيه ﴾ انه قد يفرط فيه فيذكره بما ليس فيه فيكون كذاباً ﴿ الثانية ﴾ انه قد يظهر له من الحب مالا يعتقده فيكون منافقاً مرائياً ﴿ الثالثة ﴾ انه يقول مالا يتحققه فيكون مجازفاً كقوله انه عدل وانه ورع وغير ذلك مما لا يتحقق فيه

مدح رجل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا . فقال عليه السلام (ويحك قطعت عنق صاحبك ان كان لابد من كون أحدكم مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكى على الله أحداً حسيبه الله ان كان يرى انه كذلك)—﴿ الرابعة ﴾ أن يفرح الممدوح به وربما كان ظالماً فيعصى بادخال السرور على قلبه . وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق) وقال الحسن من دعا لفاسق بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله . فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم لتفتر رغبته في الظلم والفسق

﴿ وأما الممدوح ﴾ فاحدى الآفتين فيه أن يحدث فيه كبراً أو إعجاباً وهما مهلكان — ولذلك قال قطعت عنق صاحبك ﴿ الثانية ﴾ أن يفرح به فيفتر عن العمل ويرضى عن نفسه . قال

صلى الله عليه وسلم (لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليـه في وجهه) وأما اذا سلم المدح من هذه الآفات في المادح والممدوح فلابأس به وربما يندب اليه : قال صلى الله عليه وسلم (لو وزن ايمان أبي بكر بايمان العالمين لرجح) وقال صلى الله عليه وسلم (لو لم أبعث لبعثت ياعمر) وقد أثنى على كثير من الصحابة اذ علم ان ذلك يزيد في نشاطهم ولا يورثهم عجباً *

فصل

حق على الممدوح أن يتأمل في خطر الخاتمـة ودقائق الرياء وآفات الاعمال . ويتذكر مايعرفه من نفسه من القبائح الباطنـة لاسيما في أفكاره وحديث نفسه ما لوعرفه المادح لكف عن المدح . وينبغي أن يظهر كراهة المدح ويكره بالقلب . واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (احثوا التراب في وجوه المداحين) وقال بعضهم لما أثنى عليه اللهم ان عبدك هذا تقرب إليَّ بمقتك وأنا أشهدك على مقته . فقال علي رضي الله عنه لما أثني عليه (اللهم اغفر لي مالا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون)

الأصل الثالث في الغضب

اعلم ان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة . ومن غلب عليه فقد نزع الى عرق الشيطان فانه مخلوق من النار . وكسر شدة الغضب من المهمات في الدين . قال صلى الله عليه وسلم (ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) وقال عليه السلام (الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل) وقال عليه السلام (ماغضب أحد قط إلا أشفى على جهنم) وقال رجل يارسول الله أى شيء أشد قال غضب الله قال فما ينقذنى من غضب الله . قال (أن لاتغضب) . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرني بعمل وأقلل فقال عليه الصلاة والسلام (لاتغضب) فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً وهو يقول لاتغضب . فكيف لاتعظم آفة الغضب وهو يحمل في الظاهر على الضرب والشتم وإطالة اللسان . وفي الباطن على الحقد والحسد واظهار السوء والشماتة والعزم على افشاء السر وهتك الستر والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته . وكل واحد من هذه الخبائث مهلك ٥

فصـــل

عليك في صفة الغضب وظيفتان ﴿ احداها ﴾ كسره بالرياضة
ولست أعني بكسره اماطته فانه لا يزول أصله ولا ينبغي أن يزول
بل إن زال وجب تحصيله لانه آلة القتـال مع الكفار والمنع من
المنكرات وكثير من الخيرات وهو ككلب الصائد انما رياضته فى
تأديبه حتى ينقاد للعقل والشرع فيهيج باشارة العقل والشرع ويسكن
باشارتهما ولا يخالفهما كما ينقاد الكلب للصياد ـ وهذا ممكن بالمجاهدة
وهو اعتياد الحلم والاحتمال مع التعرض للمغضبات ﴿ الثانية ﴾ ضبط
الغضب عند الهيجان بالكظم ، ويعين عليه علم وعمل ﴿ أما العلم ﴾
فهو أن يعلم انه لا سبب لغضبه الا انه أنكر أن يجرى الشيء على
مراد الله لا على مراده ، وهذا غاية الجهـل ، والآخر أن يعلم أن
غضب الله عليه أعظم من غضبه وان فضل الله أكبر ، وكم عصاه
وخالف أمره فلم يغضب عليه إن خالفه غيره فليس أمره عليه ألزم
على عبده وأهله ورفقته من أمر الله عليه ﴿ وأما العمـل ﴾ فهو ان
يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إذ يعلم أن ذلك من الشيطان
فان لم يسكن جلس إن كان قائما ويضـطجع ان كان قاعداً كذلك
ورد الخبر باختلاف الحال انه يؤثر فى التسكين ، وان لم يسكن

فيتوضأ ، قال عليه الصلاة والسلام (ان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ) وقال عليه السلام (ألا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليضرب خده بالارض) وهذه إشارة إلى تمكين اعز الاعضاء من أذل المواضع لينكسر الكبر فانه السبب الاعظم في الغضب ليعلم انه عبد ذليل فلا يليق به الكبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الرجل ليدرك بالحلم درجة القائم الصائم وانه ليكتب جباراً وما يملك الا أهل بيته) ، وقال صلى الله عليه وسلم (من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه امضاه ملأ الله تعالى قلبه يوم القيامة أمنا وايمانا) وقال عليه السلام (ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ يكظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله جوفه إيمانا) *

الأصل الرابع في الحسد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) وقال عليه السلام (ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد) وسأحدثكم بالمخرج من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ ، وقال عليه

السلام (دبّ اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء) والبغضة هى الحالقة ، وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتى مسخط لقضائي غير راض بقسمتي التى قسمت بين عبادي

﴿ واعلم ﴾ أن الحسد حرام وهو أن تحب زوال النعمة من غيرك أو تحب نزول مصيبة به ، ولا تحرم المنافسة وهي أن تغبطه وتشتهى لنفسك مثله ولا تحب زوالها منه، ويجوز أن تحب زوال النعمة ممن يستعين بها على الظلم والمعصية لانك لا تريد زوال النعمة وانما تريد زوال الظلم ، وعلامته انه لو ترك الظلم والمعصية لم تحب زوال نعمته . وسبب الحسد إما الكبر وإما العداوة وإما خبث النفس إذ يبخل بنعمة الله على عباده من غير غرض فيه له

فصــــل

إعلم أن الحسد من الامراض العظيمة للقلب ، ومرض القلب لا يداوى الا بمعجون العلم والعمل (فاما العلاج العلمى) فهو أن يعلم أن حسده يضره ولا يضر محسوده بل ينفعه ، اما أنه يضره فهو أنه يبطل حسناته ويعرضه لسخط الله تعالى إذ يسخط قضاء الله ويشح بنعمتهالتى وسعها من خزائنه على عباده وهذا ضرر في دينه (وأما ضرره في دنياه) فهو أنه لا يزال في غم دائم وكمد

لازم وذلك مراد عدوه منه فان أهم أغراض عدوه وأكمل النعمة عليه حزن حاسده . فقد كان يريد المحنة لعدوه فحصلت له، والحسود لا يخلو قط من الغم والمحنة إذ لا يزال أعداؤه أو واحد منهم في نعمة

(وأما أنه) ينفع عدوه ولا يضره لان النعمة لا تزول بحسده وانه يضاعف حسناته إذ تنقل حسنات الحاسد اليه ، لا سيما اذا طول اللسان فيه فانه مظلوم من الحاسد فقد طلب الحاسد زوال نعمة الدنيا منه فأضاف اليه نعمة الآخرة وحصل لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعاد الى عينه فأعماها . وزادت عليه شماتة عدوه ابليس فانه فاتته النعمة وفاته الرضاء بالقضاء ، ولو رضى به لكان فيه ثواب لا سيما اذا حسد على العلم والورع فان محب العالم يعظم ثوابه (وأما العلاج العملى) فهو أن يعرف حكم الحسد وما يتقاضاه من قول وفعل فيخالفه ويعمل بنقيضه فيثنى على المحسود ويظهر الفرح بنعمته ويتواضع له وبذلك يعود المحسود صديقا له ويزايله الحسد ويتخلص عن اثمه والمه قال الله تعالى ﴿ إدفع بالتى هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم ﴾

فصـــل

لعلّ نفسك لا تطاوعك على التسوية بين عدوك وصديقك بل تكره مساءة الصديق دون العدو ، وتحب نعمة الصديق دون العدو ولست مكلفاً بما لا تطيق فان لم تقدر على ذلك فتتخلص من الاثم بأمرين ﴿ أحدهما ﴾ أن لا تظهر الحسد بلسانك وجوارحك وأعمالك الاختيارية بل تخالف موجبها ﴿ والثانى ﴾ أن تكره من نفسك حبها زوال نعمة الله تعالى عن عبد من عباده فاذا اقترنت الكراهة عن باعث الدين بحب زوال النعمة الذي اقتضاه الطبع اندفع عنك الاثم وليس عليك تغيير الطبع فان ذلك لا تقدر عليه فى أكثر الاحوال. وعلامة الكراهية أن تكون بحيث لو قدرت على إزالة نعمته لم تقدم على الازالة مع حبك لها ولو قدرت على معونته في دوام نعمته أو فى زيادتها فعلت مع كراهيتك لذلك . فاذا كنت كذلك فلا اثم عليك فيما يتقاضاه طبعك فان الطبع إنما يصير مقهوراً في حق المستهتر بالله الذى انقطع نظره عن الدنيا وعن الخلق ، بل علم أن المنعم عليه إن كان في النار فما تنفع هذه النعمة وإن كان في الجنة فأي نسبة لهذه النعمة الى الجنة بل يرى كل الخلق عباد الله تعالى فيحبهم لانهم عباد لمحبوبه ويحب أن يظهر أثر نعمة محبوبه علي عباده ، وهذه حالة نادرة لا تدخل تحت التكليف *

الأصل الخامس في البخل وحب المال

واعلم أن البخل من المهلكات العظيمة قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وقال الله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ الآية وقال الله تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ الآية وقال صلى الله عليه وسلم (إياكم والبخل فانه أهلك من كان قبلكم) وقال صلى الله عليه (السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج الجنة الا سخى ، والبخل شجرة تنبت فى النار فلا يلج النار الا بخيل) وقال عليه السلام (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه) وقال عليه السلام (شرّ ما في الرجل شح هالع وجبن خالع [1]) وقال عليه السلام(إن الله يمقت البخيل في حياته ويحب السخي عند موته) وقال عليه السلام (السخي الجهول أحب الى الله من العابد البخيل)، وقال عليه السلام (لا يجتمع اثنان في مؤمن البخل وسوء الخلق)*

---

(١) هلع هلعا من باب تعب اي جزع وقوله خالع الخلع نزع الشيء واخراجه *

فصل

اعلم ان أصل البخـل حب المال وهو مذموم ومن لامال له لايظهر بخله بالامساك ولكن يظهر بحب المال . ورب رجل سخي لكنه بحب المال فيسخى به ليذكر بالسخاء وذلك أيضاً مذموم لان حب المـال يلهي عن ذكر الله عز وجل ويصرف وجه القلب الى الدنيا ويحكم علاقته فيها حتى يثقل عليه الموت الذى فيه لقـاء الله تعالى ، قال الله عز وجل ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ وقال الله تعالى ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا) وقيل للنبي عليه الصلاة والسلام أى أمتك أشر فقال عليه السلام (الاغنياء). وقال عليه السلام (من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهو لايشعر)، وقال رجل يارسول الله انى لاأحب الموت قال عليه السلام هل لك مال قال نعم . قال عليه السلام (قدم مالك فان قلب الرجل مع ماله ان قدمه أحب أن يلحقه وان أخره أحب أن يتخلف) . وقال عليه الصـلاة والسلام (اذا مات العبد قالت الملائكة ماقدم . وقال الناس ماخلف) وقال عليه الصلاة والسلام (تعس [1] عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس

---

(١) تعس بفتح العين اي سقط على وجهه وفي الدعاء تعسا له وتعس وانتكس فالتعس ان يخذل وجهه والنكس ان لا يستقل بعد سقطته

وانتكس واذا شيك فلاانتـُقش (١)

فصل

اعلم ان المال ليس مذموماً من كل وجه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وقال عليه الصلاة والسلام (الدنيا مزرعة الآخرة) وكيف يكون مذموماً مطلقاً والعبد مسافر الى الله تعالى والدنيا منزل من منازل سفره وبدنه مركبه ولايمكنه السفر الى الله الا به ولايبقى البدن الابمطعم وملبس ولاوصول اليهما إلا بالمال لكن من فهم فائدة المال وعلم انه آلة علف الدابة لسلوك الطريق لم يعرج عليه ولم يأخذ منه الاقدر الزاد فان اقتصر على ذلك سعد به كما قال النبي عليه السلام لعائشة رضى الله عنها (اذا اردت اللحاق بى فاقنعي من الدنيا بزاد الراكب ولاتجددى ولاتخلعى قميصا حتى ترقعيه) وقال عليه الصلاة والسلام (اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا) وان زاد على قدر

---

(١) اي اذا وصل شوك في عضوه فلاانتقش علي بناء المبني للمفعول دعاء عليه بعدم اخراجه بالمنقاش يعني اذا وقع فى البلاء فلايترحم عليه وانما خص انتقاش الشوك بالذكر لان الانتقاش اسهل مايتصور فى المعاونة لمن اصابه مكروه واذا نفى ذلك الاهون فمافوقه بالطريق الاولى

الكفاية هلاك) كما قال عليه الصلاة والسلام (من اخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهلك وهو لايشعر) وكذلك المسافر اذا اخذ مايزيد على زاد الطريق مات تحت ثقله ولم يبلغ مقصد سفره

فالزيادة على قدر الكفاية مهلكة من ثلاثة اوجه ﴿ احدها ﴾ ان يدعو الى المعاصي فانه يمكن منها ومن العصمة ان لاتقدر . وفتنة السراء اعظم من فتنة الضراء والصبر مع القدرة أشد ﴿ والثاني ﴾ ان يدعو الى التنعم بالمباحات وهو اقل الدرجات فينبت على التنعم جسده ولايمكنه الصبر عنه وذلك لايمكن استدامته الا بالاستعانة بالخلق والالتجاء الى الظلمة وذلك يدعو الى النفاق والكذب والرياء والعداوة والبغضاء . ويتشعب منه جملة من المهلكات — ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (حب الدنيا رأس كل خطيئة)

﴿ والثالث ﴾ أن يلهي عن ذكر الله عز وجل الذى هو أساس السعادة الاخروية اذ يزدحم على القلب خصومة الفلاحين ومحاسبة الشركاء والتفكر فى تدبير الحذر منهم وتدبير استنماء المال وكيفية تحصيله أولا وحفظه ثانيا واخراجه ثالثا. وكل ذلك مما يسود القلب ويزيل صفاءه ويلهي عن الذكر كما قال الله تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ الى آخر السورة .

فصـــل

لعلك تشتهى أن تعرف مقدار الكفاية وتقول ما من غنى الا ويدعي أن ما في يده دون مقدار الكفاية ﴿ فاعلم ﴾ أن الضرورة انما تدعو الى المطعم والملبس فقط ، فان تركت التجمل في الملبس فيكفيك فى السنة ديناران لشتائك وصيفك فتتخذ بهما ثوبا خشنا يدفع عنك الحر والبرد ، وان تركت التنعم فى مطعمك والشبع من الطعام فى جميع أحوالك فيكفيك فى كل يوم مد فيكون في السنة خمس مابة رطل، ويكفيك لادامك ان لم توسع فيه واقتصرت على اليسير منه في بعض الاوقات ثلاثة دنانير على التقريب في السنة عند رخاء الاسعار فاذاً يبلغ كفايتك خمسة دنانير وخمس مابة رطل وهو القدر الذى نقدره إذا فرضنا نفقة العزب ، فان كنت معيلا فخذ لكل واحد منهم مثل ذلك ،فاذا كنت كسوبا وكسبت في اليوم ما يكفيك ليومك فانصرف واشتغل بعبادتك فان طلبت الزيادة كنت من أهل الدنيا ، وان لم تكن كسوبا وكنت مشغولا بالعلم والعبادة واقتنيت ضيعة يدخل منها هذا القدر دائما ، فأرجو أن لا تصير بذلك من أهل الدنيا لا سيا فى هذه الاعصار وقدتغيرت القلوب واستولى عليها الشح وانصرفت الهمم عن تفقدذوي الحاجات فاقتناء هذا القدر أولى من السؤال وهذا بشرط أن يكون بودك أن

تتخلص من التعرض الى الجوع والبرد لتطرح الضيعة وتتركها ولا تكون كارها الموت ولا محبا للضيعة ، ولتكن الضيعة وهى مدخل طعامك كالخلاء الذي هو موضع فراغك فانما تريده للضرورة وبودك لو تخلصت منه لتخرج عن النهي في قوله صلى الله عليه وسلم (لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا) ، فانك اذا قصدت الفراغة[1] للاستعانة بها على الدين كنت متزوداً مسافراً لا معرجاً على الضيعة ، وربما لا يحتمل بعض الاشخاص القناعة بالقدر الذى ذكرته الا بشدة ومشقة ، ولا حرج في الدين فى ازدياد الضعف على هذا القدر [2] إذ لا يصير من أبناء الدنيا ولا يخرج من حزب أبناء الآخرة والمسافرين الى الله تعالى مادام يقصد بذلك دفع الالم الشاغل عن الذكر والعبادة دون التلذذ والتنعم فى الدنيا ، ثم ما فضل من الطعام صرفه الى البائس والارامل [3] ولا يبقى بعد هذه الرخصة داعية الى الزيادة الا للتنعم أو للتصدق أو للاستظهار لو أصاب المال آفة ❊

﴿أما التنعم﴾ فاعراض عن الله تعالى واشتغال بالدنيا ﴿ وأما التصدق ﴾ فترك المال أفضل منه ، قال عيسى عليه السلام يا طالب

---

(١) كذا فى الاصل ومثله في النسخة النورية إلا ان فى النورية حاشية على كلمة « الفراغة » وهي « أى أسباب المعيشة »

(٢) وفى النسخة الكردية « فأرى انه على الضعف من هذا القدر لا تصير من ابناء الدنيا ولا تخرج الخ »

(٣) وفي النسخة الدمشقية « الى اللباس والادام والارامل »

الدنيا لتبرّ فتركك لها أبر وأبر ﴿ وأما الاستظهار ﴾ لخوف آفة لا مرد له وهو سوء الظن لا آخر له بل ينبغي أن تدفع ذلك بحسن الظن بتدبير الله عز وجل وهو أن تتصور أن تصيب المال آفةمن حيث لا يتوقع فيتصور أن ينفتح للرزق أيضاً باب لا يحتسب ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . وان فرض على الندور خلافه فلا ينبغي أن يعتقد العبد أن سلامته طول عمره عن البلاء محتوم بل البلاء هو الذي يصقل القلب ويزكيه ويخلصه من الخبائث كلها ، ولهذا كان موكلا بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فاتكل على فضل الله ﴿واعلم﴾ أنك لا يصيبك الا ما فيه خيرك وخيرتك فان الله مدبر الملك والملكوت أعلم بمصالحك *

فصل

هذا الذى ذكرته تقريب يمكن الزيادة عليه والنقصان منه بالاجتهاد في بعض الاشخاص وفي بعض الاحوال. ولكن اعتقد قطعاً أن المال كالدواء النافع منه قدر مخصوص، والافراط فيه قاتل والقرب من الافراط ممرض ان لم يقتل، فعليك بالقليل والحذر من الافراط والرفاهية ـ فذلك خطر عظيم . وليس في التقليل الا مشقة قليلة فى أيام قلائل وذو الحزم لا يثقل عليه أن يجوع نفسه لوليمة الفردوس لعلمه أن اللذة على قدر الجوع *

فصـــل

لعلك ترغب في معرفة حد البخـل إذ الشخص الواحد قد تشك في انه بخيل أم لا ويختلف الناس فيه ﴿فاعلم﴾ ان حدالبخل منع مايوجبه الشرع أو المروءة ولاتظن ان من سلم الى زوجتـه وقريبه مافرضه القاضي ، وضايق وراء ذلك في لقمة فليس ببخيل . وان من رد الخبز واللحم الى الخباز والقصاب لنقصان قدر منه يسير ليس ببخيل وان كان له ذلك في الشرع فان معنى الشرع في هذه الامور قطع خصومة البخلاء بتقدير مقدار يطيقه البخيل — ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ بل لا بدمن مراعاة المروءة ودفع قبح الاحدوثة وذلك يختلف باختلاف الاشخاص وقدر المال . ومن له مال وأمكنه أن يقطع هجو شاعر وذمه عن نفسه بقدر يسير فلم يفعله فهو بخيل وإن لم يكن ذلك واجباً عليه إذ قال صلى الله عليه وسلم (ماوقى المرء به عرضه فهو له صدقة) والتحقيق فيه ان المال خلق لفائدة لأجلها يمسك وفي بذله أيضاً فائدة فمهما ظهر له ان فائدة البذل أعظم من فائدة الامساك ثم شق عليه البذل فهو بخيل محب للمال . والمال لاينبغي أن يحب لذاته بل لفـائدته فيصرف الى أقوى فائدة وحفظ المروءة أفضل وأقوى من التنعم بالاكل الكثير مثلا . وقد يحمله البخل وحب المال على أن يجهل أقوى الفائدتين وأولاهما وذلك غاية البخل . فان علم وعسر عليه

البذل فهو بخيل أيضاً وان بذل تكلفاً . بل انما يبرأ عن البخل بأن لا يثقل عليه بذل المال فيما ينبغي أن يبذل فيه عقلا وشرعا . وأما درجة السخاء فلاتنال إلا ببذل مايزيد على واجب الشرع والمروءة جميعاً *

فصل

لعلك تريد أن تفهم علاج البخل ﴿فاعلم﴾ ان دواءه معجون مركب من العلم والعمل ﴿ أما العلم ﴾ فهو أن تعلم مافي البخل من الهلاك في دار الآخرة والمذمة في الدنيا وتعلم ان المال لايتبعه ان بقي الى قبره . وانما المال لله تعالى مكنه منه ليصرفه الى أهم أموره وتعلم ان إمساك المال ان كان للتنعم في الشهوات فحسن الاحدوثة وثواب الآخرة أعظم وألذ منه . فقضاء الشهوة سجية البهـائم . وهذه سجية العقلاء . وان كان يمسكه ليتركه لولده فكانه يترك ولده بخير ويقدم على ربه بشر — وهذا عين الجهل كيف وولده إن كان صالحاً فالله تعالى يكفيه وان كان فاسقا فيستعين به على المعصية ويكون هو سبب تمكنه منهـا فيتضرر هو ويتنعم غيره ﴿ وأما العمل ﴾ فهو أن يحمل نفسه عل البذل تكلفا ولا يزال يفعل ذلك حتى يصير له عادة. ومن نوافذ حيـله فيه أن يخدعه بحسن الاسم وتوقع المكافأة حتى يرغب فى البذل . ثم بعد ذلك يتدرج أيضا الى قمع هذه الصفات *

الأصل السادس في الرعونة وحب الجاه

قال الله عز وجل ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً﴾ الآية وقال عليه السلام (حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل) وقال عليه الصلاة والسلام (ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم) وقال عليه الصلاة والسلام في مدح الخمول (رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لا بره) ، وقال عليه الصلاة والسلام (ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم ، واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج احدهم تتجلجل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم) وقال سليمان بن حنظلة بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة ، فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ، فقال ان هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع ، وقال الحسن إن خفق النعال خلف الرجل قل ما يثبت معه قلوب الحمقاء وقال أبو أيوب والله ما صدق الله عبد الاسره ان لا يشعر بمكانه . فقد عرفت بهذا مذمة الشهرة والجاه إلا أن يشهر الله عبداً في الدين من غير طلب منه كما يشهر الانبياء والخلفاء الراشدين والعلماء والاولياء .

فصل

حقيقة الجاه هي ملك القلوب لتتسخر لذي الجاه على حسب مراده وتطلق اللسان بالثناء عليه وتسعى في حاجته، وكما أن معنى المال ملك الدراهم ليتوصل بها الى الاغراض — كذلك معنى الجاه ملك القلوب لكن الجاه أحب لان التوصل به الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه ولانه محفوظ عن أن يسرق ويغصب أو تعرض له الآفة ولانه يسرى وينمو من غير تكلف، فان من ملك قلبه باعتقاد التعظيم فلا يزال يثنى ويقتنص قلوب سائر الناس لصاحبه، وفيه سر آخر وهو أن الجاه معناه العلو والكبرياء والعز وهي من الصفات الالهية والالهية محبوبة للانسان بالطبع بل هو ألذ الاشياء عنده وذلك لسر خفى فى مناسبة الروح للامور الالهية وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ فهو أمر رباني شغفه من حيث الطبع الاستبداد والانفراد بالوجود وهو حقيقة الالهية إذ ليس مع الله موجود بل الموجودات كلها كالظل من نور القدرة فلها رتبة التبعية لا رتبة المعية، فليس فى الوجود مع الله غيره، وكان الانسان يشتهى ذلك بل في كل نفس أن يقول أنا ربكم الأعلى لكن أظهره فرعون وأخفاه غيره ولكن ان فاته الانفراد بالوجود فيشتهي أن

لا يفوته الاستعلاء والاستيلاء على الموجودات كلها ليتصرف فيها على حسب مراده وهو الالهية، لكن تعذر على الانسان ذلك في السموات والكواكب والبحار والجبال ، فاشتهى الاستيلاء على جميعها بالعلم لان العلم نوع استيلاء أيضا كما أن من عجز عن وضع الاشياء العجيبة فيشتهي أن يعرف كيفية الوضع وكذلك يشتهي أن يعرف عجائب البحر وما تحت الجبال ويتصور أن يتسخر له الاعيان التى على وجه الارض من الحيوان والمعادن والنبات ، فيحب أن يتملكها ويتمولها ويتصور أن يتسخر له الانسان فيحب أن يتسخر بواسطة قلبه ، ويملك قلبه بالقاء التعظيم فيه ويحصل التعظيم بأن يعتقد فيه كمال الخصال فان الاجلال يتبع اعتقاد الكمال — فلهذا يحب الانسان ان يتسع جاهه وينتشر صيته حتى الى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطاؤها ولا يرى أهلها لان كل ذلك يناسب صفات الربوبية ، وكلما صار أعقل كانت هذه الصفة عليه أغلب وشهواته البهيمية فيه أضعف*

فصل

لعلك تقول فاذا كان كذلك فلم كان طلب الرفعة مذموما وهو من نتائج العقل وخواص الروح المناسبة للامور الربانية

﴿ فاعلم ﴾ أن الرفعة الحقيقية طلبها محمود غير مذموم إذ مطلوب الكل هو القرب من الله تعالى — وذلك هو الرفعة والكمال إذ هو

عز لا ذل فيه وغنى لا فقر معه ، وبقاء لافناء بعده ، ولذة لا كدورة لها وطلب ذلك محمود ، وانما المذموم طلب الكمال الوهمي دون الحقيقي والكمال الحقيقي يرجع إلى العلم والحرية والقدرة وهو أن لا يكون مقيداً بغيره ولا يتصور للعبد حقيقة القدرة فان قدرته إنما تكون بالمال والجاه وذلك كمال وهمي فانه أمر عارض لا بقاء له ولا خير فيما لا بقاء له بل قيل :

أشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

كيف وهذه القدرة العارضة مع سرعة انقضائها بالموت وبآفاتها قبله لا تصفو عن الكدورات فمن توهمها كمالا فقد زل، بل الكمال في الباقيات الصالحات التي تنال بها القرب من الله سبحانه ،ولا تزول بالموت بل تتضاعف تضاعفا غير محدود ، وذلك هو المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وهو العلم بكل الموجودات إذ ليس في الوجود الا الله تعالى وأفعاله ، لكن قد ينظر فيها الناظر لا من حيث أنها أفعال الله تعالى كالذي ينظر في التشريح لغرض الطب أو ينظر في هيئة العالم لمعرفة الاستدلال بأحكام النجوم ، فهذا لا قدر له ، ومن الكمال الحقيقى الحرية وهو انقطاع علاقتك عن جميع علائق الدنيا بل عن كل ما يفارقك بالموت والاقتصار فى الالتفات الى لازمك الذى لابد لك منه وهو الله تعالى كما أوحى

الله الى داود «يا داود أنا بدّك(١) اللازم فالزم بدك» فالعلم والحرية من الباقيات الصالحات وهما كمالان حقيقيان والمال والبنون زينة الحياة الدنيا وهما كمالان وهميان ، والمنكوسون هم الذين عكسوا الحقيقة فأعرضوا عن طلب الكمال الحقيقي واشتغلوا بطلب الكمال الوهمي وهم الذين يحترقون عند الموت بنيران الحسرة إذ يشاهدون أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أما الآخرة فلأنهم يطلبونها ولم يحصلوا أسبابها من المعرفة والحرية ، وأما الدنيا فلأنها ودعتهم وانقلبت الى أعدائهم وهم ورثتهم ولا تظنن أن الايمان والعلم يفارقانك بالموت ، فالموت لا يهدم محل العلم أصلا وليس الموت عدما حتى تظن أنك اذا عدمت الموت عدمت صفاتك بل معنى قطع علاقة الروح من البدن الى أن تعاد اليه ، وإذا تجرد عن البدن فهو على ما كان عليه قبل الموت من العلم والجهل ، وفهم هذا طويل وتحته أسرار لا يحتمل هذا الكتاب كشفها *

فصل

اذا عرفت حقيقة الجاه وماهيته وأنه كمال وهمي فقد عرفت

(١) البد بالتشديد معرب «بت» الفارسية وهو الصنم كما في قاموس الفيروز آبادى

أن طريق العلاج فى قمع حبه من القلب، اذ علمت أن أهل الارض لو سجدوا لك مثلا لما بقي الا الى مدة قريبة لا الساجد ولا المسجود له ، كيف ويشح الدهر عليك بأن يسلم لك الملك فى محلتك فضلا عن قريتك أو بلدتك ، فكيف ترضى أن تترك ملك الابد والجاه الطويل العريض عند الله تعالى وعند ملائكته بجاهك الحقير المنغص عند جماعة من الحمقى لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يملكون لك موتا ولاحياة ولا نشوراً ولا رزقا ولا أجلا ، نعم ملك القلوب كملك الاعيان وانت محتاج منه الى قدر يسير لتحرس نفسك عن الظلم والعدوان وعما يشوش عليك سلامتك وفراغك التى تستعين بها على دينك . فطلبك لهذا القدر مباح بشرط القناعة بقدر الضرورة كما فى المال ، وبشرط أن لا تكتسبه بالمرايات بالعبادات فذلك حرام كما سيأتى ، وأن لا تكتسبه بالتلبيس بان تظهر من نفسك ما أنت خال عنه فلا فرق بين من يملك القلوب بالتلبيس وبين من يملك الاموال ، فاذا حصلت الجاه بطريقه واقتصرت على قدر التحرز من الآفات فترجى لك السلامة الا أنك فى خطر عظيم اكثر من خطر المال لان قليل الجاه يدعو الى كثيره فانه الذ من المال — ولذلك لا يسلم الدين غالبا الا لخامل مجهول لا يعرف كما فهمت ذلك من الاخبار *

فصـــل

من البواعث على طلب الجاه حب المدح فان الانسان يتلذذ به من ثلاثة أوجه ﴿ أحدها ﴾ أنه يشعر صاحبه بكمال نفسه والشعور بالكمال لذيذ لان الكمال من الصفات الالهية ﴿ والثاني ﴾ أنه يشعر بملك قلب المادح وقيام الجاه عنده وكونه مسخراً له

﴿ الثالث ﴾ أنه يشعر صاحبه بأن المادح يصغى الى مدحه فينتشر بسببه جاهه فكذلك اذا صدر المدح من بصير بصفات الكمال واسع الجاه والقدرة فى نفسه وكان على ملأ من الناس تضاعفت لذة المدح ، وتزول اللذة الاولى بأن يصدر عن غير أهل البصيرة فانه لا يشعر بالكمال ، وتزول الثانية بأن يصدر عن خسيس لا قدرة له لان ملك قلبه لا يعتد به ، وتزول الثالثة بأن يمدح في الخلوة لا في الملأ الا من حيث يتوقع أنه أيضا ربما يمدح في الملأ وأما الذم فانه مكروه لنقيض هذه الاسباب . واكثر الخلق أهلكهم حب المدح وكراهية الذم ويحملهم ذلك على المرايات وفنون المعصية

وعلاج ذلك أن يتفكر فى اللذة الاولى فان مدح بكثرة المال والجاه فيعلم انه كمال وهمى وهو سبب فوات كمال حقيقي فهو جدير بان يحزن لاجله لا ان يفرح به وان مدح بكمال العلم والورع ، فينبغى ان يكون فرحه بوجود تلك الصفات ويشكر الله تعالى عليها لا يشكر غيره هذا ان كان متصفا به وأما ان كان غير متصف به

ففرحه به حماقة كفرح من يثني عليه غيره ويقول ما أطيب العطر الذي فى أحشائك أو امعائك وهو يعلم ما فيها من الاقذار والانتان وهذا حال من يفرح من المدح بالورع والزهد والعلم وهو يعلم من باطن نفسه انه خال عنه

﴿وأما اللذة الثانية والثالثة﴾ وهي لذة الجاه عند المادح وغيره، فعلاجه ما ذكرناه في حب الجاه ٥

الأصل السابع في حب الدنيا

واعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وليس الدنيا عبارة عن المال والجاه فقط بل هما حظان من حظوظ الدنيا، وشعبتان من شعبها وشعب الدنيا كثيرة، ودنياك عبارة عن حالتك قبل الموت، وآخرتك عبارة عن حالتك بعد الموت، وكل مالك فيه حظ قبل الموت فهو من دنياك الا العلم والمعرفة والحرية، وما يبقى معك بعد الموت فانها أيضاً لذيذة عند أهل البصائر، ولكنها ليست من الدنيا وان كانت في الدنيا ولهـذه الحظوظ الدنيوية تعاون وتعلق بما فيـه الحظ وتعلق بأعمالك المتعلقة باصلاحها فهى ترجع الى أعيان موجودة والى حظك فيها والى شغلك في اصلاحها (أما الاعيان) فهى الارض وما عليها قال الله تعالى ﴿إنا جعلنا ما على

الارض زينة لها﴾ الآية ومطلوب الآدمى من الارض (أما عينها)
فللمسكن والحرث (وأما نباتها) فللتداوى والاقتيات (وأمامعادنها)
فللنقود والاوانى والآلات(وأما حيواناتها)فللمركب والمأكل (وأما
الآدميون) منها فللمنكح والاستحسان وقد جمع اللهسبحانه ذلك
في قوله ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ الآية
(وأما حظك منها) فقد عبر القرآن الكريم عنـه بالهوى فقال الله
تعالى﴿ونهي النفس عن الهوى﴾ وقال تعالى تفصيلا له﴿ إنما الحيوة
الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد﴾
الآية وذلك يندرج فيه جميع المهلكات الباطنة من الغل والكبر
والحسد والرياء والنفاق والتفاخر والتكاثر وحب الدنيـا وحب
الثناء ، وهي الدنيا الباطنة (وأما الاعيان) هي الدنيـا الظاهرة
(وأما شغلك فى اصـلاحها) فهى جملة الحرف والصناعات التى
الخلق مشغولون بها ، وقد نسوا فيها أنفسهم ومبـدأهم ومعادهم
لاستغراقهم باشغالهم بها ، وانما شاغلهم العلاقتان فان علاقة القلب
بحب حظوظها، وعلاقة البدن بشغل اصلاحها فهذه هي حقيقة الدنيا
التى حبها رأس كل خطيئة ، وانما خلقت للتزود منها الى الآخرة
ولكن كثرة أشغالها وفنون شهواتها أنست الحمقى سفرهم ومقصدهم
فقصروا عليها همتهم ، فكانوا كالحاج في البادية يشتغل بتعهد الناقة

وعلفها وتسمينها فيتخلف عن الرفقـة حتى يفوته الحج وتهلكه سباع البادية ٥

فصل

هذه الدنيا المذمومة المهلكة هي بعينها مزرعة الآخرة في حق من عرفها إذ يعرف أنها منزل من منازل السائرين الى الله عز وجل وهي كرباط بنى على قارعة الطريق ، أعد فيها العلف والزاد وأسباب السفر، فمن تزود منها لآخرته واقتصر منها على قدر الضرورة التي ذكرناها فى المطعم والملبس والمنكح وسائر الضرورات فقد حرث وبذر ، وسيحصد فى الآخرة ما زرع ، ومن عرج عليها واشتغل بلذاتها هلك ومثل الخلق فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضـاء الحاجة وخوفهم المقام واستعجال السفينة فتفرقوا فيها ، فبادر بعضهم وقضى حاجته ورجع الى السفينة فوجد مكانا خاليا واسعا، ووقف بعضهم فنظر في ازهار الجزيرة وأنوارها وظرائف أحجارها وعجائب غياضهـا ونغمات طيورها ، فرجع الى السفينة فلم يجد إلا مكاناً ضيقاً حرجاً وأكب بعضهم على تلك الاصداف والاحجار وأعجبه حسنها فلم تسمح نفسه الا بأن يستصحب شيئاً منها فلم يجـد فى السفينة الا مكانا

ضيقا وزادته الحجارة ثقلا وضيقا فلم يقدر على رميها ولم يجد لها مكانا يحملها على عنقه وهو ينوء باعبائها ، وتولج بعضهم الغياض ونسى المركب واشتغل بالتفرج فى تلك الازهار والتناول من تلك الثمار وهو في تفرجه غير خال من خوف السباع والحذر من السقطات والنكبات ، فلما رجع الى السفينة فلم يصادفها فبقى على الساحل فافترسته السباع ومزقته الهوام فهذه صورة أهل الدنيا بالاضافة الى الدنيا والآخرة فتأملها واستخرج وجه الموازنة فيها ان كنت ذا بصيرة *

فصل

من عرف نفسه وعرف ربه وعرف زينة الدنيا وعرف الآخرة شاهد بنور البصيرة وجه عداوة الدنيا للآخرة إذ ينكشف له قطعاً أن لاسعادة فى الآخرة إلا لمن قدم على الله سبحانه عارفاً به محباً له فان المحبة لاتناله إلا بدوام الطلب والفكر . ولا يتفرغ لهما إلا من أعرض عن أشغال الدنيا . ولا تستولى المعرفة والحب على القلب مالم يفرغ من حب غير الله تعالى . ففراغ القلب عن غير الله ضرورة اشتغاله بحب الله تعالى ومعرفته . ولن يتصور ذلك إلا لمعرض عن الدنيا قانع منها بقدر الزاد والضرورة . فان كنت من أهل البصيرة

فقد صرت من أهل الذوق والمشاهدة . وان لم تكن كذلك فكن
من أهل التقليد والايمـــان وانظر الى تحذير الله سبحانه إياك .
والكتاب والسنة . وقد قال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم
استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ الآية وقال عز اسمه ﴿ فأما
من طغى وآثر الحياة الدنيا ﴾ الآية ولعل ثلث القرآن في ذم الدنيا
وذم أهلها . وقد قال صلى الله عليه وسلم (الدنيا ملعونة ملعون مافيها
الا ما كان لله تعالى منها) وقال صلى الله عليه وسلم (ياعجباً كل العجب
للمصدق بدار الآخرة وهو يسعى لدار الغرور) وقال عليه السلام
(الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون)
وقال عليه السلام (ان الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض اليـه من
الدنيا وانه لم ينظر اليها منذ خلقها) وقال عليه السلام (من أصبح
والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم قلبه أربع خصـال
هما لاينقطع عنه أبداً وشغلا لايتفرغ عنه أبداً وفقراً لا يبلغ غناه
أبداً وأملا لايبلغ منتهاه أبداً)

وقال ابو هريرة قال صلى الله عليه وسلم (يا أباهريرة ألاأريك
الدنيا جميعها) قلت نعم . فأخذ بيدي الى مزبلة فيها رؤس أناس
وعذرات وخرق وعظام . فقال عليـــه السلام (ياأباهريرة هذه

الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هي اليوم عظام بلاجلد ثم ستصير رماداً وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون (١) عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك) وقال صلى الله عليه وسلم (ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار) قالوا يارسول الله مصلين (٢) قال (نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة (٣) من الليل فاذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه) . وقال عيسى عليه السلام لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت) وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا. وقال عيسى عليه السلام للحواريين لا كل خبز الشعير

(١) أي يطلبون ويكتسبون . وانتجع طلب الكلأ في موضعه
(٢) وفي النسخة الدمشقية أو مصلين
(٣) أي ساعة لطيفة

بالملح الجريش (١) ولبس المسوح (٢) والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة. وروى ان عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شوهاء عليها من كل زينة فقال لها كم نكحت فقالت اني لاأحصيهم . فقال يطلقونك أو ماتوا عنك فقالت بل قتلت كلهم . فقال عيسى عليه السلام عجبا لازواجك الباقين كيف لايعتبرون بأزواجك الماضين *

فصل

اعلم ان من ظن انه يلابس الدنيا ببدنه ويخلو عنها بقلبه فهو مغرور . قال النبي صلى الله عليه وسلم (مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء الا يبتل قدماه) وكتب على رضوان الله عليه الى سلمان الفارسي رضى الله عنه : «مثل الدنيا مثل الحية يلين مسها ويقتل سمها . فاعرض عما يعجبك منها لقلة مايصحبك منها . وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها . وكن أسر ماتكون بها أحذر ماتكون منها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنه مكروه». وقال عيسى عليه السلام مثل الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله

(١) الملح الغير الطيب (٢) الثوب الخلق الخشن المرقع

﴿ واعلم ﴾ ان من اطمأن الى الدنيا وهو يتيقن انه راحل عنها هو فى غاية الحماقة . بل مثل الدنيا مثل دار هيأها صاحبها وزينها لضيافة الواردين والصادرين . فدخل واحد داره فقدم اليه طبقا من ذهب عليه بخور وريحان ليشمها ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه فجهل رسمه فظن انه وهب ذلك له فلما تعلق به قلبه استرجع منه فضجر وتوجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيبة قلبه وانشراح صدره فكذلك سنة الله في الدنيا فانها دار ضيافة على المجتازين لاعلى المقيمين ليتزودوا منها ماينتفعون به كما ينتفع بالعارية ثم يتركونها لمن يلحق بعدهم بطيبة نفس من غير تعلق القلب بها لا كمن يعلق القلب بها *

الأصل الثامن في الكبر

قال الله سبحانه ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ وقال تعالى ﴿ فبئس مثوى المتكبرين﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى العظمة ازارى والكبرياء ردائي فمن نازعنى فيهما قصمته) وقال صلى الله عليه وسلم (لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر) وقال عليه السلام (يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطؤهم الناس لهوانهم على

الله عز وجل) وقال صلى الله عليه وسلم لبلال (ان في جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله سبحانه أن يسكنه كل جبار فاياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه) وقال عليه السلام (اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبر) وقال عليه السلام (لا ينظر الله تعالى الى من جر ثوبه خيلاء) وقال عليه السلام (من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان) وقال عليه السلام في فضيلة التواضع (ما زاد الله عبداً بعفو الا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) وقال عليه السلام (طوبى لمن تواضع في غير مسكنة) وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفى وقطع النهار بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (اذا تواضع العبد لله رفعه الله الى السماء السابعة) وقال عليه السلام (ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا رحمكم الله) وقال عليه السلام (إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده فيكون مهنة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه)

فصل

حقيقة الكبر أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال فيحصل فيه نفخة وهزة من هذه الرذيلة والعقيدة — ولذلك قال

صلى الله عليه وسلم (أعوذ بك من نفخة الكبر) — ولذلك استأذن بعضهم عمر رضى الله عنه ليعظ الناس بعد الصبح فقال لا أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. ثم هذه النفخة يصدر منها أفعال على الظاهر كالترفع فى المجالس والتقدم في الطريق والنظر بعين التحقير والغضب اذا لم يبدأ بالسلام وقصر فى حوائجه وتعظيمه ويحمله على أن يأنف إذا وعظ ، ويعنف اذا وعظ وعلم ، ويجحد الحق اذا ناظر، وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير، وانما عظم الكبر حتى لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة منه لان تحته ثلاثة أنواع من الخبائث العظيمة

﴿ أولها ﴾ أنه منازعة الله تعالى في خصوص صفته إذ الكبرياء رداؤه كما قال الله فان العظمة لا تليق إلا به ، ومن أين تليق العظمة بالعبد الذليل الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً فضلا عن أمر غيره

﴿ الثانية ﴾ أن يحمله على جحد الحق وازدراء الخلق قال صلى الله عليه وسلم في بيان الكبر (الكبر من سفه الحق)' وغمص الناس والانفة من الحق تغلق باب السعادة وكذا استحقار الخلق ، وقال بعضهم إن الله سبحانه خبأ ثلاثا فى ثلاث خبأ رضاه في طاعته فلا تحقرن شيئاً منها لعل رضاء الله فيه وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن صغيرة فلعل سخط الله تعالى فيها وخبأ ولايته فى عباده فلا

تحقرن أحداً منهم فلعله ولىّ الله تعالى

﴿ الثالثة ﴾ أنه يحول بينه وبين جميع الاخلاق المحمودة لان المتكبر لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وعلى ترك الانفة والحسد والغضب ولا يقدر على كظم الغيظ وعلى اللطف في النصح وعلى ترك الرياء ، وبالجملة فلا يبقى خلق مذموم الا ويضطر المتكبر الى ارتكابه، ولا خلق محمود الا ويضطر الى تركه *

فصل

العلاج الجلى لقمع رذيلة الكبر أن يعرف الانسان نفسه وأن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، ويفهم قوله تعالى ﴿ قتل الانسان ما اكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ﴾ فليعلم أنه خلق من كتم العدم وأنه لم يك شيأ مذكوراً فلا شىء أقل من العدم، ثم خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ليس له سمع ولا بصر ولا حياة ولا قوة، وخلق له ذلك كله وهو بعد غاية النقصان يستولى عليه الامراض والعلل ويتضاد فيه الطبائع فيهدم بعضها بعضا فيمرض كرها ويجوع كرها ويعطش كرها ويريد أن يعلم

الشيء فيجهله ويريد أن ينسى الشيء فيذكره ويكره الشيء فينفعه ويشتهي الشيء فيضره لا يأمن في لحظة من أن يختلس روحه أو عقله أو صحته أو عضو من أعضائه ، ثم آخره الموت والتعرض للعقاب والحساب فان كان من أهل النار فالخنزير خير منه فمن أين يليق به الكبر وهو عبد مملوك ذليل لايقدر على شيء ، قال الحسن البصري رحمة الله عليه لبعض من يتبختر في مشيته ما هذه المشية لمن في بطنه خراء ، فكيف يليق الكبر بمن يغسل العذرة بيده مرتين في كل يوم وهو حامل لها على الدوام ٭

فصل

علاج الكبر على التفصيل بالنظر الى ما به التكبر وهو أربع خصال ﴿ الاولى ﴾ العلم قال صلى الله عليه وسلم (آفة العلم الخيلاء) وقال عليه السلام (لا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم) وقلما يخلو العالم من آفة الكبر. فانه يرى نفسه فوق الناس بالعلم الذى هو أشرف فضيلة عند الله عز وجل فيتكبر تارة بالدين بأن يرى نفسه عند الله عز وجل أفضل من غيره ، وتارة في الدنيا بأن يرى حقه واجبا على الناس ويتعجب منهم ان لم يتواضعوا له — وهذا بأن يسمى جاهلا أولى لان العلم الحقيقى ما

يعرف به ربه ونفسه وخطر خاتمته وحجة الله عز وجل عليه، ويلاحظ الخاتمة فلا يرى جاهلا الا ويقول انه عصى الله تعالى بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله تعالى عليّ آكد. قال أبو الدرداء رضى الله عنه من ازداد علما ازداد تواضعاً قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وقال عليه السلام (يكون قوم يقرؤن القرآن فلا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا) ثم التفت وقال (أولئك منكم أيها الامة أولئك هم وقود النار) ومن هذا اشتد حذر السلف حتى أنه صلى حذيفة مرة رحمه الله بقوم فلما سلم قال لتلتمسن إماما غيرى أو لتصلُن وحدانا انى رأيت في نفسى أنه ليس في القوم أفضل مني

وينبغى أن يتذكر الانسان أنه كم من مسلم نظر الى عمر رضي الله عنه قبل اسلامه واستحقره ثم كانت خاتمة عمر كما كانت وذلك المسلم لعله ارتد بعده فكان المتكبر من أهل النار والمتكبر عليه من أهل الجنة ، وما من عالم إلا ويتصور ان يختم له بالسوء ويختم للجاهل بالسعادة . فكيف يكون الكبر مع معرفة ذلك ، وقد قال صلي الله عليه وسلم (يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار

فتندلق اقتابه[1] فتدور به كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه) فأى عالم يسلم عن ذلك فلم لا يشغله خوفه عن التكبر وقد قال الله تعالى في بلعم[2] ابن باعورا وهو من أكابر العلماء ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ﴾ الآية لانه أخلد الى الشهوات، وقال بعلماء اليهود ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ فلينظر في الاخبار التى وردت في علماء السوء حتى يغلب خوفه كبره، وإنما يبقى الكبر مع هذا لمن اشتغل بعلوم غير نافعة في الدين كالجدل واللغة وغيرهما أو لمن اشتغل بالعلم وهو خبيث الباطن فازداد خبثه بسببه

﴿ السبب الثاني ﴾ الورع والعبادة ولا يخلو المتعبد في باطنه عن كبر وقد تنتهي الحماقة ببعضهم الى أن يحمل مصائب الناس ومسراتهم على كرامته فمن آذاه ومات أو مرض يقول قد رأيتم مافعل الله سبحانه به . وربما يقول عند الايذاء سترون مايجرى عليه وليس يدرى الاحمق ان جماعة من الكفار ضربوا الانبياء وآذوهم ثم متعوا فى الدنيا فلم ينتقم منهم بل ربما أسلم بعضهم فسعد في الدنيا والآخرة فكأنه يرى نفسه أفضل من الانبياء ومؤذيه

---

(١) أي يخرج من بطنه امعاؤه

« ٢ » وفى النسخة النورية « بلعام »

أخس من الكفار . وحق العابد اذا نظر الى عالم أن يتواضع له لجهله وان نظر الى فاسق أن يقول لعل فيه خلقا باطنا يستر معاصيه الظاهرة ولعل في باطنى حسداً أو رياء أو خبثا خفياً مقتنى الله سبحانه عليه فلايقبل أعمالى الظاهرة وان الله سبحانه ينظر الى القلوب لا الى الصور . ومن الخبث الباطن الكبر إذ روي ان رجلا من بنى اسرائيل يقال له خليع بني اسرائيل لكثرة فساده جلس الى عابد من بنى اسرائيل وقال لعل الله تعالى يرحمنى ببركته . فقال العابد في نفسه كيف يجلس معى مثل هذا الفاسق ، وقال له قم عني فأوحى الله سبحانه الى نبي زمانه مرهما ليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد . وروى ان رجلا وطيء رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد ، فقال له ارفع فوالله لايغفر الله لك فأوحى الله سبحانه اليه أيها المتألى عليّ بل لايغفر الله لك فالاكياس[1] يحذرون من ذلك ويقولون ما كان يقول له عطاء السلمي مع شدة ورعه كان اذا هبت ريح عاصف أو صاعقة يقول مايصيب الناس ذلك الا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا وقال بعضهم في عرفات أنا أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر كم بين من يخلص العمل والورع ثم يخاف على نفسه وبين من يتكلف أعمالا ظاهرة

---

(١) جمع كيس وهو ضد الحمق و يقال الغلبة بالكياسة .

لعلها لاتخلو عن الرياء والآفات ثم يمن [1] على الله بعمله

﴿ السبب الثالث الكبر بالنسب ﴾ وعلاجه أن ينظر في نسبه فان أباه نطفة مذرة وجده التراب ولا أقذر من النطفة ولاأذل من التراب ، ثم المفتخر بالنسب يفتخر بخصال غيره ولو نطق آباؤه لقالوا من أنت في نفسك ما أنت الا دودة من بول من له خصلة حسنة — ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى نسب　　لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

كيف يتكبر بنسب ذوى الدنيا ولعلهم صاروا حممة فى النار يودون لو كانوا خنازير أو كلاباً ليتخلصوا ممـا هم فيه ، وكيف يتكبر بنسب أهل الدين وهم في أنفسهم ما كانوا يتكبرون وكان شرفهم بالدين . ومن الدين التواضع وكان أحدهم يقول ليتنى كنت تبنة وليتنى كنت طائراً . كلهم قد شغلهم خوف العاقبة عن الكبر مع عظم علمهم وعملهم ، فكيف يتكبر بنسبهم من هو عاطل عن خصالهم.

﴿ السبب الرابع الكبر بالمال والجمال والأتباع ﴾ والكبر بهم جهل فانها أمور خارجة عن الذات أعنى المال والاتباع وكيف يتكبر بخصلة تمتد اليها يد السارق والغاصب وكيف يفتخر بالجمال وحمى شهر تفسده والجدري يزيله ولو تفكر الجميل في أقذار باطنه لادهشه

«١» وفي النسخة العراقية «ثم يتمنى»

ذلك عن تزويق ظاهره ولو لم يتعهد الجميل بدنه أسبوعاً بالغسل والتنظيف لصار أقذر من الجيفة من تغير النكهة والصنان ورائحة العذرة وكراهيــة الوسخ والمخاط والرمص ، فمن اين للمزبلة أن تفتخر بجمالها والانسان بالحقيقة مزبلة فانه منبع الاقذار والنجاسات *

الأصل التاسع في العجب

قال الله تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ الآية وقال عز وجل ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ وقال ﴿ لاتزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى ﴾ وقال عليــه السلام (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه) وقال ابن مسعود رضي الله عنه الهلاك في اثنين (القنوط والعجب) وانما جمع بينهما لان القانط لايطلب السعادة لقنوطه والمعجب لايطلبها لظنه انه قد ظفر بها ، وقال صلى الله عليه وسلم (لو لم تذنبوا لخفت عليكم ماهو أعظم من ذلك العجب العجب) وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئاً فقالت اذا ظن أنه محسن .

ونظر رجل الى بشر بن منصور وهو يطيل الصلاة ويحسن العبادة فلما فرغ قال لايغرنك ما رأيت مني فان ابليس عبدالله تعالى وصلى آلاف سنين ثم صار الى ما صار اليه *

فصل

حقيقة العجب استعظام النفس وخصالها التي هي من النعم والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم والأمن من زوالها فان أضاف اليه أن رأى لنفسه عند الله حقا ومكانا سمي ذلك ادلالا ، وفي الخبر أن صلاة المدل لا ترتفع فوق رأسه وعلامة ادلاله أن يتعجب من رد دعائه ويتعجب من استقامة حال من يؤذيه ، والعجب هو سبب الكبر ولكن الكبر يستدعي متكبراً عليه والعجب مقصور على الانفراد أما من رأى نعمة الله تعالى على نفسه بعمل أو علم أو غيره وهو خائف على زواله وفرح بنعم الله تعالى عليه من حيث أنها من الله فليس بمعجب . بل العجب أن يأمن وينسى الاضافة الى المنعم *

فصل

العجب جهل محض فعلاجه العلم المحض فانه ان أعجب بقوة وجمال أو أمر مما ليس يتعلق باختياره فهو جهل أيضاً إذ ليس ذلك اليه فينبغي أن يعجب بمن أعطاه ذلك من غير استحقاق ، وينبغي أن يتفكر في زوال ذلك المخوف على القرب بأدنى مرض وضعف وان أعجب بعلمه وعمله وما يدخل تحت اختياره فينبغي أن يتفكر

في تلك الاعمال بماذا تيسرت له وانها لا تتيسر الا بعضو وقدرة وإرادة ومعرفة وأن جميع ذلك من خلق الله عز وجل ، واذا خلق الله العضو والقدرة وسلط الدواعي وصرّف الصوارف كان حصول الفعل ضروريا، وليس للمضطر أن يتعجب بما يحصل منه اضطراراً وهو مضطر الى اختياره فانه يفعل إن شاء ولكن إن يشأ الله شاء أو لم يشأ مهما خلقت فيه المشية(١). قال الله سبحانه وتعالى ﴿وما تشاؤن إلا أن يشاء الله﴾ فمفتاح العمل انجزام المشية وانصراف الدواعي الصارفة مع كمال القدرة والاعضاء ، وكل ذلك بيد الله تعالى: أرأيت لو كان بيد ملك مفتاح خزانة فأعطاك إياه فأخذت منها أموالا أتعجب بجوده اذا أعطاك المفتاح بغير استحقاق أو بكمالك في أخذه وأي كمال في الاخذ بعد التمكن *

فصل

من العجائب أن يعجب العاقل بعلمه وعقله حتى يتعجب ان أفقره الله تعالى وأغنى بعض الجهال ويقول كيف وسع النعمة على الجاهل وحرمني. فيقال له كيف رزقك العلم والعقل وحرمها الجاهل فهذه عطية منه أفتجعلها سبباً لاستحقاق عطية أخرى بل لو جمع

«١» كذا في جميع الاصول وفي الجملة اضطراب !

لك بين العقل والغنى وحرم الجاهل عنهما جميعاً كان ذلك أولى بالتعجب وما تعجب العاقل منه الا كتعجب من أعطاه الملك فرسا وأعطى غيره غلاما ويقول كيف يعطي الغلام لفلان ولا فرس له ويحرمني وأنا صاحب الفرس وانما صار صاحب الفرس بعطائه فيجعل عطاءه سببا لاستحقاق عطاء آخر وهو عين الجهل بل العاقل يكون أبداً تعجبه من فضل الله تعالى وجوده من حيث اعطاه العلم والعقل ووفقه للعبادة من غير تقدم استحقاق منه وحرم غيره ذلك وسلط عليه دواعي الفساد واضطره اليه بصرف دواعي الخير عنه وذلك بغير جريمة سابقة منه ، واذا شاهد ذلك تحقيقا غلب عليه الخوف إذ قد يقول قد أنعم الله عليّ في الدنيا من غير وسيلة وخصني به دون غيري ، ومن يفعل مثل هذا بغير سبب فيوشك أن يعذب ويسلب النعم أيضا بغير جناية وسبب فماذا أصنع ان كان ما افاضه عليّ من النعم مكراً أو استدراجا كما قال الله تعالى ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ وكما قال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ *

الأصل العاشر في الرياء

قال الله تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ﴾ وقال تعالى ﴿ انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولاشكورا ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك ﴾ الآية أراد به الاخلاص . وقال صلى الله عليه وسلم (ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر) قيل وماهو قال عليه السلام (الرياء . يقول الله عز وجل يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء) . وقال عليه السلام فى حديث طويل (يقال للغازي والعالم والمنفق اذا قال فعلت كيت وكيت يقال أردت أن يقال فلان عالم أو شجاع أو جواد أو قاري، فيذهب به الى النار) وقال صلى الله عليه وسلم (استعيذوا بالله من جب الحزن) قيل وماهو قال عليه السلام (واد في جهنم أعد للقراء المرائين) وقد قال تعالى ﴿ من عمل لى عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الاغنياء عن الشرك ﴾ وقال عليه السلام (لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من الرياء) وقال عليه السلام (ان أدنى الرياء الشرك) وقال عيسى عليه السلام اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لكيلا يرى النـاس انه صائم . واذا أعطى

بيمينه فليخف عن شماله . واذا صلى فليرخ ستر بابه فان الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق . ولهذا قال عمر رضى الله عنه لرجل طأطأ رقبته ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب وانما الخشوع في القلوب . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (ان المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائي ياغاوي يافاجر ياخاسر . اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلاأجر لك عندنا) وقال قتادة رحمة الله عليه اذا رائى العبد يقول الله تعالى انظروا كيف يستهزىء بى . وقال الحسن رحمة الله عليه صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها نفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا الشهرة ه

فصل

حقيقة الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس بالعبادات وأعمال الخير ومايرايا به ستة أصناف .

﴿ الاول ﴾ الرياء من جهة البدن وهو اظهار النحول والصفار ليظن به السهر والصيام . واظهار الحزن ليظن به انه شديد الاهتمام بأمر الدين واظهار شعث الشعر ليظن به انه لشدة استغراقه بالدين ليس يتفرغ لنفسه واظهار ذبول [1] الشفتين ليستدل به على صومه . وخفض الصوت ليستدل به على ضعفه من شدة المجاهدة

(١) ذبل الشيء ذبولا ذهبت ندوته والذبلاء اليابسة الشفة

﴿الثاني﴾ الرياء بالهيئة كحلق الشارب واطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه ، وتغميض العينين ليظن به انه في الوجد والمكاشفة أو غائص في الفكر

﴿الثالث﴾ الرياء في الثياب كلبس الصوف والثوب الخشن وتقصيره الى قريب من الساق وتقصير الكمين وترك الثوب مخرقاً ووسخاً ليظن انه مستغرق الوقت عن الفراغ له ، ولبس المرقعة والسجادة ليظن انه من الصوفية مع افلاسه عن حقائق التصوف . ولبس الدراعة والطيلسان [١] وتوسيع الاكمام ليظن انه عالم ، والتقنع فوق العمامة بازار . ولبس الجوارب ليظن انه متقشف [٢] لشدة ورعه من غبار الطريق ، ثم منهم من يطلب المنزلة في قلوب أهل الصلاح فيلازم الثوب الخلق ولو لبس ثوباً جديداً لكان عنده كالذبح إذ يخاف أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ، ومنهم من يطلب المنزلة من السلاطين والتجار . ولو لبس خلقان الثياب لازدروه ، ولو لبس فاخر الثياب لم يعتقدوا زهده ، فيطلب المرقعة المصبوغة والفوطة الرقيقة والاصواف الرفيعة فيكون ثيابهم في القيمة والنفاسة كثياب الاغنياء وفي اللون والهيئة كثياب الصلحاء ولو

---

(١) الدراعة القميص والطيلسان فارسي معرب لباس العجم

(٢) القشف محركة قذر الجلد ورثاثة الهيئة وسوء الحال والمقشف من لايبالي بما تلطخ بجسده انتهى مصححه محيي الدين صبري

كلفوا أن يلبسوا الخلق لكان عندهم كالذبح خيفة عن السقوط عن أعين الاغنياء . ولو كلفوا لبس الخز والقصبي والديبقي ومايباح لبسه وقيمته دون قيمة ثيابهم لاشتد عليهم خوفاً من سقوط منزلتهم عن قلوب الصلحاء . إذ يقولون بدا له من الزهد *

﴿ الرابع ﴾ الرياء بالقول كرياء أهل الوعظ والتذكير وتحسين الالفاظ وتسجيعها والنطق بالحكمة والاخبار و كلام السلف مع ترقيق الصوت واظهار الحزن مع الخلو عن حقيقة الصدق والاخلاص فى الباطن ليظن به ذلك وكادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والمبادرة الى الحديث انه صحيح أو سقيم ليظن به غزارة العلم و كتحريك الشفتين بالذكر والامر بالمعروف بمشهد الناس مع خلو القلب عن التفجع بالمعصية و كاظهار الغضب عن المنكرات والاسف عن المعاصى مع خلو القلب من التألم به *

﴿ الخامس ﴾ الرياء بالعمل كتطويل القيام وتحسين الركوع والسجود واطراق الرأس وقلة الالتفات والتصدق والصوم والحج والاخبات في المشى مع إرخاء الجفون، مع ان الله تعالى عالم ان باطنه لو كان خالياً لما فعل شيئاً من ذلك بل تساهل في الصلاة وتسرع في المشى . وقد يفعل ذلك في المشى فاذا شعر باطلاع غيره عليه عاد الى السكينة كى يظن به الخشوع *

﴿ السادس ﴾ الرياء بكثرة التلامذة والاصحاب وكثرة ذكر الشيوخ ليظن انه لقي شيوخاً كثيرة وكمن يحب أن يزوره العلماء والسلاطين ليقال انه ممن يتبرك به . فهذه مجامع مايراءى به في الدين وكل ذلك حرام بل هو من الكبائر . وأما طلب المنزلة في قلوب الناس بأفعال ليست من العبادات وأعمال الدين فليست بحرام مالم يكن فيه تلبيس كما ذكرناه في طلب الجاه . فأهل الدنيا قد يطلبون الجاه بكثرة المال والغلمان وحسن الثياب الفاخرة وحفظ الاشعار وعلم الطب والحساب والنحو واللغة وغير ذلك من الاعمال والاحوال ولم يحرم ذلك مالم ينته الى الايذاء بالتكبر والى أخلاق أخرى مذمومة وانما استقصينا أقسام الرياء لانه أغلب الاخلاق الذميمة على النفوس فمن لايعرف الشر ومواقعه لايمكنه أن يتقيه .

فصل

الرياء على درجات خبيثة ﴿ احداها ﴾ أن لايكون بالامور الدينية والعبادات كالذى يلبس عند الخروج ثياباً حسنة خلاف مايلبسه في الخلوة [1] وكالذى ينفق في الضيافات وعلى الاغنياء أموالا ليعتقد انه سخي لاليعتقد انه ورع صالح . فذلك ليس بحرام

(١) وفي النسخة العراقية منها أن يلبس في الملأ غيرما يلبسه في الخلوة

فان تملك القلوب كتملك الاموال . نعم القليل منـه صالح نافع والكثير منه يلهي عن ذكر الله كالكثير من المال ومهما انصرفت الهمة الى سعة الجاه فيجر ذلك الى الغفلة والمعاصى فيكون محذوراً لذلك لا لنفسه ، وأما اظهار الشمائل التى ذكرناها ليعتقد الناس فيه الدين والورع حرام لشيئين ﴿ أحدهما ﴾ انه تلبيس اذا أراد أن يعتقد الناس انه مخاص مطيع لله محب وهو بهذه النية فاسق ممقوت عندالله . ولو سلم الرجل دراهم الى جماعة يخيل اليهم انه يجود عليهم بها . وانما هي ديون لازمة عصى لتلبيسه وان لم يطلب به أن يعتقد صلاحه لان ملك القلوب بالتلبيس حرام ٭

﴿ الثانى ﴾ انه اذا قصد بعبادة الله خلق الله فهو مستهزىء ومن وقف بين يدى ملك في معرض الخدمة وليس غرضه ذلك بل غرضه ملاحظة عبد من عبيد الملك أو جارية من جواريه فانظر ماذا يستحقه من النكال لاستهزائه بالملك فكأنه اذا قصد العباد بالعبادة فقد اعتقد ان عباد الله أقدر على نفعه وضره من الله تعالى إذ عظمة العباد فى قلبه دعته الى أن يتجمل عندهم بعبادة الله ولهذا سمي الرياء الشرك الاصغر ثم يزداد الاثم بزيادة فساد القصد والنية ومن المرائين من لا يطلب الا مجرد الجاه . ومنهم من يطلب أن يودع الودائع ويوقف عنده الاوقاف ومال الايتام ليختزل منها

وذلك أخبث لامحالة . ومنهم من يرائي ليقصداليه النساء والصبيان ليتمكن من الفجور أو ليكثر عنده المال ليصرفه الى الخمر والملاهي . وهذا هو الاعظم اذ جعل عبادة الله تعالى وسيلة الى مخالفته والعياذ بالله .

فصل

كما يعظم الرياء ويتغلظ اثمه بسبب اختلاف الغرض الباعث عليه فيعظم أيضاً بما به المراياة وبقوة قصد الرياء . أما ما به المراياة فهي على ثلاث درجات (اغلظها) أن يرائي بأصل الايمان كالمنافق يظهر أنه مسلم وليس بمسلم بقلبه ، وكالملحد ومعتقد الاباحة يظهر أنه مستديم الايمان وقد أنسل منه باطنه ﴿ الثانية ﴾ الرياء بأصل العبادات كمن يصلي ويخرج الزكاة بين يدى الناس والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل ذلك ﴿ الثالثة ﴾ وهي أدناها أن لا يرائي بالفرائض بل بالنوافل كالذي يكثر النافلة ويحسن هيئة الفريضة ويخرج الزكاة من أجود ماله أو يتهجد أو يصوم يوم عرفة وعاشوراء والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهذا أيضا حرام وان كان لا ينتهى شدة العقوبة فيه الى حد الرياء بالاصول *

وأما تغليظه بدرجات القصـد فهو أنه قد يتجرد قصد الرياء حتى يصلى مثلا على غير طهارة لاجل الناس أو يصوم ولو خـلا بنفسه لافطر وقد يضاف اليه قصد العبادة أيضاً وله ثلاثة أحوال ﴿ احداها ﴾ أن تكون نية العبادة باعثة مستقلة لوخلا بنفسه ولكن زاده رؤية غيره ومشاهدته نشاطاً وخف عليه العمل بسببه فأرجو أن لايحبط ذلك القدر عمله بل تصح عبادته ويثاب عليها ويعاقب على قصد الرياء أو ينقص من ثوابه ﴿ الثانية ﴾ أن يكون قصد العبادة ضعيفا بحيث لو انفرد عن الناس ما استقل بالحمل على العبادة فهذا لا تصح عبادته والقصد الضعيف لا ينفى عنـه شده المقت ﴿ الثالثة ﴾ أن يتساوى القصدان بحيث لا يستقل كل واحـد بالحمل لو انفرد أولا ينبعث للفعل بأحدهما بل بمجموعهما، فهذا قد أصلح شيئا وأفسد مثله فالغالب أنه لايسلم رأسا برأس، ويحتمل أن يقال اذا تساوى القصدان فاحدهما كفارة للآخر، وقوله تعالى ﴿ أنا أغنى الاغنياء عن الشرك ﴾ يدل على أنه لا يقبله ولا يثيبه عليه . أما أنه يعاقبه عليه ففيه نظر فالاغلب عندى والعلم عند الله أنه لا يخلو عن اثم وعقاب ٭

فصل

اعلم أن بعض الرياء جليّ، وبعضه أخفى من دبيب النمل (أما الجليّ) فما يبعث على العمل حتى لولاه لم يرغب في العمل (وأخفى منه) أن لا يستقل بالحمل عليه، ولكن يخفف العمل ويزيد في نشاطه كالذي يتهجد كل ليلة واذا كان عنده ضيف زاد نشاطه وأخفى منه أن لا يزيد نشاطه ولكن لو اطلع غيره على تهجده قبل فراغه أو بعده فرح به ووجد في نفسه هزة، وذلك يدل على أن الرياء كان مستكنا في باطن القلب استكنان النار تحت الرماد حتى ترشح منه السرور عند الاطلاع وقد كان غافلا عنه قبله (واخفى منه) أن لا يسر بالاطلاع لكن يتوقع أن يبدأ بالسلام ويوقر ويتعجب ممن يسيء اليه ولا يسامحه في المعاملة ولا يحترمه وذلك يدل على انه يمن على الناس بعمله فكأنه يتوقع احترامهم وتوقيرهم بعبادته مع اخفائه عنهم

وأمثال هذه الخفايا لا يخلو عنها الا الصديقون، وجميع ذلك اثم ويخاف منه احباط العمل. نعم لا بأس أن يفرح باطلاع غيره عليه اذا كان فرحه بالله تعالى من حيث أظهر منه الجميل وستر منه القبيح مع انه قصد سترهما جميعا فيفرح بلطف صنع الله تعالى وكذلك يفرح لانه يبشره بأنه حيث أحسن صنعه به في الدنيا فكذلك يصنع به في الآخرة، أو يفرح ليقتدي به من يراه أو

يطيع الله بحمده له عليه ، وعلامة هذا أن يفرح ايضاً اذا اطلع على
غيره ممن يرتجي قدوته ومن أجل خفاء أبواب الرياء وشدة استيلائه
على الباطن احترز أولو الحزم فاخفوا عبادتهم وجاهدوا أنفسهم
وقد قال علي رضى الله عنه ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة
ألم يكن يرخص عليكم في السعر . أو لم تكونوا تبدؤن بالسلام .
ألم تكن تقضى لكم الحوائج لا أجر لكم فقد استوفيتم أجوركم .
فاجتهد ان أردت الخلاص أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان
فلا تفرق في عبادتك بين وجودهم وعدمهم وعلمهم بها أو غفلتهم
عنها ، وتقنع بعلم الله تعالى وحده وتطلب الاجر منه فانه لا يقبل
إلا الخالص كي لا تحرم عن فائدته فى أحوج أوقاتك اليه *

فصل

لعلك تقول ما أقدر على انفكاك الرياء الخفي كما وصفته وان
قدرت على الرياء الجلى فهل تنعقد عبادتي مع ذلك .

﴿ فاعلم ﴾ أن وارد الرياء لا يخلو إما أن يرد مع أول العمل
أو في دوامه أو بعد الفراغ منه أما ما يقارن الابتداء فيبطله ويمنع
انعقاده ان صار باعثاً مؤثراً فى الحمل على العمل بل أول العقد
يجب أن يكون خالصاً وانما يبطل بالرياء الباعث على اصل العمل

وأما اذا لم يحمل الا على المبادرة في أول الوقت مثلا فأظن والعلم عند الله تعالى ان أصل الصلاة يصح وإنما تفوته فضيلة المبادرة ويعصى بقصد المراياة به ولكن يسقط الفرض عنه وأما ما يرد في دوام الصلاة ان أبطل باعث الصلاة فتبطل الصلاة مثاله ان يحضر في أثناء الصلاة أوطاره أو يتذكر نسيان شيء ولو خلا لقطع الصلاة لكنه أتم حياء من الناس . فهذا لا يسقط الفرض عنه لان النية قد انقطعت وانقطع باعث العبادة ، وأما اذا لم تنقطع نيته لكن صار مغلوبا مغموراً كما لو حضر قوم فغلب على قلبه الفرح باطلاعهم وانغمر باعث العبادة فغالب الظن انه ان انقضى ركن ولم يعاوده الباعث الاصلي فسدت صلاته لانا نستصحب نية البداية بشرط ان لا يطرأ ما لو قارن ابتداءها لمنع وان لم ينغمر باعث العبادة ولكن حصل مجرد سرور ولم يؤثر في العمل بل في تحسين الصلاة فقط فغالب الظن ان الصلاة لا تفسد ويتأدى الفرض ، وأما ما يطرأ بعد الصلاة من ذكر وسرور ومراياة فلا ينعطف على ما مضى ولكن يعصى به ويأثم ويكون عقابه بقدر قصده واظهاره ومهما ظهرت له داعية ذكر العبادة إما بالتصريح وإما بالتعريض فذلك يدل على ان الرياء كان خفياً في باطنه *

فصل

اذا عرفت حقيقة الرياء وكثرة مداخلته فعليك بالتشمر في معالجته ، وعلاجه فى دفع الاسباب الباعثة عليه (وهي ثلاث) حب المدح وخوف الذم والطمع *

(أما حب المدح) كمن يهجم على صف القتال ليقال انه شجاع ، أو يظهر العبادات ليقال أنه ورع ، وعلاجه ما تقدم في علاج حب الجاه وهو أن تعلم أنه كمال وهمي لا حقيقة له ، وعلاجه فى الرياء خاصة أن يقرر على نفسه ما فيه من الضرر فان العسل وان كان لذيذاً فاذا علم أن فيه سما سهل تركه فليقرر على نفسه أنه يقال له فى يوم فقره بسبب ريائه (يا فاجر يا غاوي) استهزأت بالله عزوجل وراقبت العباد وتحببت اليهم واشتريت حمدهم بذم الله تعالى وطلبت رضاهم بسخطه ، أما كان أحد أهون عليك من الله تعالى فلو لم يكن إلا هذا الخزي والخجلة لكان كافياً فى المنع عنه كيف وقد انضم اليه العقوبة واحباط العبادة وانه ربما يترجح به كفة السيئات بعد أن قارنت كفة الحسنات فيكون سبب هلاكه . وليقرر على نفسه ان رضى الناس غاية لا تدرك ومن طلب رضى الناس بسخط الله تعالى أسخطهم الله عليه فكيف يترك رضى الله بما لا يطمع فى حصوله ﴿ وأما الباعث الثانى ﴾ وهو الخوف من ذمهم فيقرر على

نفسه أن ذمهم لن يضره إن كان محموداً عند الله عز وجل ولم يتعرض لذم الله ومقته خوفا من ذم الخلق ، ويكفيه أن الناس لو علموا مافي باطنه من قصد الرياء لمقتوه ويأبي الله الا أن يكشف سره حتى يعرف نفاقه فيمقته الناس أيضاً بعد أن عقته الله عز وجل ولو أخلص وأعرض بقلبه عنهم وجرد نظره الى الله تعالى لكشف لهم اخلاصه له وأحبوه .

﴿ وأما باعث الطمع ﴾ فيدفعه بأن يعلم أن ذلك أمر موهوم وفوات رضى الله تعالى ناجز ويعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب وان من طمع في الخلق لم يخل عن الذل والمهانة والمنة ، ومن أعرض عن الطمع في الخلق كفاه الله تعالى وسخرله القلوب ، فاذا أحضر في قلبه نعيم الآخرة والدرجات الرفيعة وعلم أن ذلك يفوت بالرياء اعرض قلبه عن الخلق واجتمع همه وفاضت عليه انوار الاخلاص وأمده الله سبحانه بمعونته وتوفيقه *

فصل

لعلك تقول إني قررت هذا كله على نفسي ، ونفر (١) عن الرياء قلبي ولكن ربما هجم عليّ وارد الرياء بغتة في بعض العبادات عند

«١» وفي نسخة ثانية بالخزانة النور « يفر »

اطلاع الخلق فما العلاج عند هجومه ﴿ فاعلم ﴾ أن اصل هذا العلاج ان تخفي عبادتك كما تخفى فواحشك ففيه السلامة *

روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال له أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. واخفاء العبادة انما يشق فى البداية فاذا صار عادة ألف الطبع لذة المناجاة فى الخلوة ، ومهما هجم وارد الرياء فعلاجه أن تجدد على قلبك ما رسخ فيه من قبل من المعرفة بالتعرض لمقت الله عز وجل مع عجز الناس عن منفعتك ومضرتك حتى تنبعث منه كراهية لداعية الرياء ، ثم الشهوة تدعو الى اجابة الرياء بتحسين العمل والفرح به ، والكراهية تدعو الى رده والاعراض عنه وتكون اليد للاقوى ، فان قويت الكراهية حتى منعتك من الركون اليه واستصحبت حالتك التى كنت عليها فلم تزد ولم تنقص ولم تتكلف اظهار الفعل وايثاره فقد اندفع عنك الأثم ولم تكلف اكثر من ذلك ، وأما دفع الخواطر ودفع الطبع عن الميل الى أقوال الناس فلا يدخل تحت التكليف وانما منتهى التكليف الكراهية والاباء عن اجابة الداعية *

فصل

يجوز اظهار الطاعات لاجل اقتداء الناس وترغيبهم إذا صحت النية ولم يكن معه شهوة خفية ، وعلامته أن يقدر أن الناس لو اقتدوا

بأحد أقرانه وكفي مؤنة الترغيب وأخبر بأن اجره في الاسرار كأجره في الاظهار فلا يرغب فى الاظهار ، فان كان ميله الى ان يكون هو المقتدى به أكثر ففيه داعية الرياء لانه ان كان يطلب سعادة الناس وخلاصهم فقد حصل ذلك بغيره ولم يفته الا اظهار نفسه — وكذلك يجوز كتمان المعاصى والذنوب ولكن بشرط أن يكون غرضه أن لا يعتقد فيه الورع بل لا يعتقد فيه الفسق ولا بأس بفرحه باستتار معاصيه وحزنه بانكشافها إما فرحا بستر الله عليه وإما فرحا بموافقة أمر الله تعالى فانه تعالى يحب كتمان المعاصى وينهى عن المجاهرة بها واما لانه يكره ان يذم فيتألم به ذا التألم بذم الناس ليس بحرام بل يوجبه الطبع ، وانما الحرام الفرح بمدح الناس اياه بالعبادة فان ذلك كأجر يأخذه على العبادة ، واما لانه يخاف أن يقصد بسوء إذا عرفت معصيته ، واما لانه يستحي من ظهورها والحياء غير الرياء ولكن قد يمتزج به، وأما ترك الطاعة خوفا من الرياء فلا وجه له؞

قال الفضيل الرياء ترك العمل خوفا من الرياء ، أما العمل لاجل الناس فهو شرك بل ينبغى ان يعمل ويخلص الا اذا كان العمل فى ما يتعلق بالخلق كالقضاء والامامة والوعظ ، فاذا علم من نفسه انه بعد الخوض فيه لا يملك نفسه بل يميل الى دواعى الهوى فيجب

عليه الاعراض والهرب كذلك فعل جماعة من السلف ، وأما الصلاة والصدقة فلا يتركها الا اذا لم تحضره اصلانية العبادة بل لو تجرد نية الرياء(١)فلا يصح عمله فليتركه ، أما من اعتاد فعله لحضر جماعة فيخاف على نفسه الرياء فلا ينبغى ان يتركه بل ينبغى ان يستمر على عبادته ويجتهد فى دفع باعث الرياء ٭

خاتمة في مجامع الأخلاق ومواقع الغرور فيها

اعلم أن الاخلاق المذمومة كثيرة ولكن ترجع أصولها الى ماذكرناه . ولايكفيك تزكية النفس عن بعضها حتى تتزكى عن جميعها ولو تركت واحداً منها غالباً عليك فذلك يدعوك الى البقية لان بعض هذه يرتبط بالبعض ويتقاضى بعض الاخلاق الذميمة بعضاً ولاينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، والسلامة المطلقة لاتنال بدفع بعض الامراض بل انما تنال بالصحة المطلقة كما أن الحسن لايحصل بحسن بعض الاعضاء مالم يحسن جميع الاطراف والنجاة في حسن الخلق . قال النبي صلى الله عليه وسلم (أثقل مايوضع في الميزان خلق حسن) وقد قال النبي عليه السلام (بعثت لأتمم

«١» وفي النسخة النورانية « بل لو لم يجرد الا نية الرياء فلا يصح الخ

مكارم الاخلاق) وقيل له ما الدين قال عليه السلام (الخلق الحسن) وقال عليه السلام (حسن الخلق خلق الله تعالى) وقال عليه السلام (أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)

وقد كثرت الاقاويل في حقيقته وبيان حده . والاكثرون تعرضوا لبعض ثمراته ولم يحيطوا بجميع تفصيله والذى يطلعك على حقيقتـه أن تعلم ان الخلق والخلق عبارتان فيراد بالخلق الصورة الظاهرة وبالخلق الصورة الباطنة وذلك لان الانسان مركب من جسد يدرك بالبصر . ومن روح ونفس يدرك بالبصـيرة لا بالبصر . ولكل واحد منها هيئة إما قبيحة وإما حسنة . والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً ولذلك أضافه الله عز وجل الى نفسه وأضاف البدن الى الطين فقال ﴿ اني خالق بشراً من طين فاذا سويتـه ونفخت فيه من روحي ﴾ ووصف الروح بأنه أمر ربانى فقال ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وأعنى بالروح والنفس هاهنا معنى واحداً وهو الجوهر العارف المدرك من الانسان بالهام من الله تعالى كما قال ﴿ ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾

وكما ان للحسن الظاهر أركاناً كالعين والانف والفم والخد ولا يوصف الظاهر بالحسن مالم يحسن جميعها . فكذلك الصورة

الباطنة لها أركان لابد من حسن جميعها حتى يحسن الخلق وهى أربعة معان : قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث فاذا استوت هذه الاركان الاربعة واعتدلت وتناسقت حصل حسن الخلق

﴿ أما قوة العلم ﴾ فاعتدالها وحسنها أن تصير بحيث يدرك بها الفرق بين الصدق والكذب فى الاقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الاعمال . فاذا تحصلت هذه القوة كذلك حصلت منها ثمرة الحكمة وهى رأس الفضائل قال الله عز وجل ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ومايذكر إلا أولو الالباب ﴾

﴿ وأماقوةالغضب ﴾ فاعتدالها أن يحصل انقباضهاوانبساطها على موجب اشارة الحكمة والشرع — وكذلك قوة الشهوة

﴿ وأما قوة العدل ﴾ فهي في ضبط قوة الغضب . وقوة الشهوة تحت اشارة الدين والعقل . فالعقل منزلته منزلة الناصح وقوة العدل هي القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضى لاشارة العقل والغضب والشهوه وهما اللذان تنفذ بهما الاشارة وهما كالكلب والفرس للصياد . فان حسن بعض هذه دون بعض كان كالوحسن بعض أعضاء الوجه فلايطلق اسم الحسن له الا اذا حسن الجميع واعتدل فاذا حسنت واعتدلت انشعب منه جميع الاخلاق . وأما

قوة الغضب فيعبر عن اعتدالها بالشجاعة والله تعالى يحب الشجاعة وان مالت الى طرف الزيادة سميت تهوراً وان مالت الى النقصان تسمى جبناً ويتشعب من اعتدالها خلق الكرم والنجدة والشهامة والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة [١] وأما افراطها فيحصل منه خلق التهور والصلف [٢] والبذخ والاستشاطة [٣] والكبر والعجب . وأما تفريطها فيحصل منه الجبن والمهانة والذلة والخساسة وعدم الغيرة وضعف الحمية على الاهل وصغر النفس .

وأما الشهوة فيعبر عن اعتدالها بالعفة وعن إفراطها بالشره وعن تفريطها وضعفها بالخمود فيصدر من العفة السخاء والحياء والصبر والسماحة والقناعة والورع والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، ويصدر عن افراطها الحرص والشره والوقاحة والتبذير والتقتير [٤] والرياء والهتكة والمجانة والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك

﴿ وأما قوة العقل ﴾ فيصدر من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي واصابة الظن والتفطن لدقائق

---

(١) والتؤدة بفتح الهمزة وسكونها الرزانة والتأني (٢) التكلم عما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك « ٣ » واستشاط عليه التهب غضبا « ٤ » الوقاحة بالفتح قلة الحياء وقتر من باب قتل أي ضيق على عياله

الاعمال وخفايا آفات النفس ، وأما افراطها فيحصل منه الجربزة والدهاء والمكر والخداع ، ويحصل من تفريطها وضعفها البله والحمق والغمارة [١] والبلادة والانخداع — فهذه هي روابط الاخلاق ، وانما معنى حسن الخلق في الجميع وسط بين الافراط والتفريط فخير الامور أوساطها ، وكلا طرفي قصد الامور ذميم ولذلك قال عز وجل ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ومهما مال واحد من هذه الجملة الى الافراط والتفريط فبعد لم يكمل حسن الخلق ٥

فصل

طريق اصلاح هذه الاخلاق كلها المجاهدة والرياضة ، ومعنى المجاهدة ان يكلف الصفة المفرطة الغالبة خلاف مقتضاها فتعمل بنقيض موجبها . فان غلب البخل فلا تزال تتكلف البذل بالمجهود وتداوم عليه مرة بعد أخرى حتى يسهل عليك البذل في محله فان غلب التبذير فلا تزال تتكلف الامساك حتى يصير عادة فيسهل عليك الامساك في محله ، وكذلك في خلق الكبر وسائر الاخلاق ، وقد ذكرناه في كتاب « رياضة النفوس » على التفصيل ، وينبغي ان تعلم أن من يبذل

«١» الغمر الحقد وزنا ومعنى ورجل غمر لم يجرب الامور

تكلفا فليس بسخي ، وان من يتواضع تكلفاً فهو ثقيل على نفسه وهو عاطل عن خلق التواضع بل الخلق عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل بسهولة من غير روية وتكلف لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق فانه لا يزال يتكلف أولا حتي يصير ذلك طبعاً وعادة فيفهم من هذا ان البخيل قد يبذل وأن السخي قد يمسك فلا تنظر الي الفعل بل الى الهيئة الراسخة التي تصدر منها الافعال بيسرٍ من غير تكلف *

﴿ واعلم ﴾ ان تفاوت الناس فى الحسن الباطن كتفاوتهم في الحسن الظاهر وان يسلم الحسن المطلق إلا على الندور ، وانما سلم ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أثنى الله سبحانه عليه فقال ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وليست النجاة موقوفة على الكمال البالغ لكن على أن يكون الميل الى الحسن أكثر . فان القبيح المطلق في الظاهر ممقوت ، والحسن المطلق معشوق وما بينهما درجات فالقريب من الحسن المطلق أسعد في الدنيا من القريب الى القبيح المطلق ، وكذلك يتفاوت سعادة الآخرة بحسب تفاوت حسن الصورة الباطنة *

فصل

اعلم انك قد تظن بنفسك حسن الخلق وانت عاطل عنه فاياك أن تغتر، وينبغي أن تحكم فيـه غيرك فتسأل عنه صديقا بصيراً لايداهنك، وبالجملة اذا نسبك غيرك الى سوء الخلق أوشك أن تكون كذلك لان اكثر الاخلاق يتعلق بالغير فينبغي أن تظهر لهم. ومن مواقع الغرور فيه مثلا أن تغضب فتظن انك تغضب لله تعالى وتظهر العبادة وتظن انك تظهر للاقتداء أو تكف عن الاكل أو عن طلب الدنيا أو تكظم الغيظ، وانما يهون عليك ذلك أن تعرف به فيكون الرياء الباعث على الجميع، وكذلك يكثر مواقع الغرور فيه على ما ذكرناه فى كتاب الغرور، فان هذا الكتاب لا يحتمل استقصاءه *

فصل

ينبغي أن تتفقد هذه الاخلاق من قلبك وتبدأ بالاهم فالاهم فتقبل على أغلب هذه الصفات فتكسرها على التدريج وأظن أن الاغلب عليك حب الدنيـا، وسائر المعاصى والاخلاق المذمومة تتبعها، ولا يمكنك الخلاص من حب الدنيا الا بأن تطلب خلوة خالية وتتفكر فى سبب اقبالك على الدنيا واعراضك عن الآخرة.

فلا تجد له سبباً الا محض الجهل والغفلة . فان أقصى عمرك في الدنيا مائة سنة . فهب أن مملكة وجه الارض تسلم لك من المشرق الى المغرب في مائة سنة أليس تفوتك بها المملكة في مدة لا آخر لها وهي مملكة الآخرة ، فان كان لا يدخل في خيالك طول الابد ، فقدر الدنيا كلها مملوءة ذرة فقدّر طائراً يأخذ في كل الف الف سنة حبة واحدة فتفنى الذرة ولم ينقص من الابد شيء لان الباقي أيضاً لا نهاية له كما كان قبل ذلك ، وأنت ترى نفسك ترضى بتعب الاسفار إما في تجارة أو طلب رياسة ، وهذا التعب الناجز لاجل شيء موهوم ربما يدركك الموت قبله وربما لا يصفو لك ان ظفرت به وانما ترضى بذلك لانك تستحقر التعب سنة مثلا بالاضافة الى بقية العمر ، وجملة عمرك بالاضافة الى الابد أقل من سنة بالاضافة الى عمرك بل لا اضافة بينهما . فتفكر فيه لينكشف لك جهلك على القرب ، ولعلك تقول انما أفعل ذلك على توقع العفو فان الله تعالى كريم رحيم . فأقول ولم لا تترك الحراثة والتجارة وطلب المال على توقع العثور على كنز في خراب فان الله كريم لا ينقص من ملكه شيء لو عرّفك في منامك كنزاً من الكنوز حتى تأخذه .

﴿ فان قلت ﴾ ذلك نادر وان كان داخلا في قدرة الله تعالى ﴿ فاعلم ﴾ أن توقع العفو مع خراب الاعمال والاخلاق كتوقع كنز

في خراب بل أبعد منـه وأندر ، وقد نبهك الله تعالى عليه وقال ﴿ وأن ليس للانسان الا ما سعي ﴾ وقال الله تعـالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعمـلوا الصالحات كالمفسدين في الارض ﴾ الآية ورغبك عن طلب المال فقال الله تعالى ﴿ وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها ﴾ فما بالك تكذب بكرمه في الدنيا ولا تتكل عليه ، ثم تخدع نفسك بالكرم فى الآخرة وأنت تعلم أن رب الدنيا والآخرة واحد *

فصل

لعلك تقول عواقب أمور الدنيا قد انكشفت لى بالعيـان واطمأن قلبي اليها . واما أمر الآخرة فلم أشاهده ولست أجد التصديق الحقيقى في قلبي . فلذلك فترت رغبتى في ترك الدنيا نقـداً بما هو موعود نسية ولست أثق به ﴿ فأقول ﴾ لو كنت من أرباب البصائر لانكشف لك أمر الآخرة صريحاً كما انكشف أمر الدنيا . واذا لم تكن من أهله فتفكر في أقاويل أرباب البصائر فان الناس في أمر الآخرة أربعة أصناف ﴿ صنف ﴾ أثبتوا الجنة والنار كما ورد به القرآن . وقد سمعت أنواع نعيمها وأنكال جحيمها ﴿ وصنف ﴾ لم يثبتوا اللذات والآلام الحسية بل أثبتوهما على سبيل التخيل كما في المنام حتى يكون كل واحد في جنة أونار يراها وحده . وزعموا

ان تأثير ذلك فيه كتأثير الحقيقة لان تألم النائم كتألم اليقظان وانما
يخلص عنه بالتنبه . وذلك في الآخرة دائم لا انقطاع له ﴿وصنف﴾
ثالث أثبتوا آلاماً عقلية ولذات الملك عقلية ، وزعموا ان ذلك أعظم
من الحسية ، ومثلوا ذلك باستشعار لذة واستشعار زوالها . فان زوال
الملك يؤثر آلاما كثيرة بدنية على مايظفر به عدوه ويأخذ مملكته
ويستسخره مع ان ظفر العدو لا يؤلم البـدن . وهؤلاء هم أصناف
النظار أعنى الاصناف الثلاثة وهم الانبياء والاولياء والحكماء وكلهم
اتفقوا على اثبـات سعادة مؤبدة وشقاوة مؤبدة . فان السعادة
لاتنال إلا بترك الدنيا والاقبال على الله عز وجل . ولو مرضت ولم
تكن من أهل البصيرة في طب ورأيت أفاضل الاطباء قد اتفقوا
على شيء لم تتوقف في اتباعهم ﴿ وصنف رابع ﴾ ليسوا من النظار
في الامور الالهية بل من الاطباء والمنجمين اقتصر نظرهم على الطبائع
الاربع ومزاجها . ورأوا قوام الروح موقوفاً عليها ولم يتفطنوا
لحقيقة الروح الالهى الحقيقي الذى هو العارف بالله تعـالى بل لم
يدركوا الا الروح الجسمانى الذي هو بخار أنضجته حرارة القلب
ينتشر في العروق الضوارب الى جميع البدن فيقوم به الحس والحركة
وهي الروح التى توجد للبهائم أيضاً

﴿ فأما الروح الخاص الانسانى ﴾ المنسوب الى الله سبحانه
حيث قال ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ فلم يتفطنوا لها فظنوا ان

الموت عدم . وأنه يرجع الى فساد المزاج وانت في حق هؤلاء بين أمرين : إما أن تجوّز غلطهم أو تعلم قطعاً صحة قولهم فان جوزت خطأهم لزمك الاعراض عن الدنيا بمجرد الاحتمال فانك لو كنت صادق الجوع وظفرت بطعام وهممت بأكله فأخبرك صبي أن فيه سما وأن حية ولغت فيه قاسيت الجوع وتركت الاكل لانك تقول ان كان كاذبا فليس تفوتني الا لذة الاكل . وان كان صادقا ففيه الهلاك . وبمثل هذا الاحتمال لا يمكن الهجوم عليه فليت شعرى مع احتمال الخلود في النار كيف يستحقر العاقل الهجوم عليه فكيف لا يكون كاليقين التام في الحذر منه حتى تنبه الشاعر عليه مع ركاكة عقله فقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالخسار عليكما

فان قلت انى أعلم ضرورة صدق هؤلاء فان الموت عدم وانه لا عقاب ولا ثواب فان الانبياء والاولياء مغرورون أو ملبسون وانما الذى انكشف له حقيقة الحق هو هذا الطبيب الجاهل وزعمت اني أعلم ذلك كما أعلم ان الاثنين اكثر من الواحد حتى لا يختالجنى فيه ريب . فيدل هذا على فساد المزاج وركاكة العقل والبعد عن قبول العلاج . ولكن مع هذا يقال لك ان كنت تطلب الراحة في الدنيا فقد يتقاضاك عقلك أيضا مجاهدة الشهوات وكسرها . فان الراحة في الحرية والخلاص عن كسر الشهوات لا في اتباعها فانها اذا

سلطت على النفس فهي آلام ناجزة تحمل النفس على احتمال كل ذل ومشقة وما المستريح في الدنيا الا تاركها والزاهد فيها . وأما طالبها فلايزال منها في عناء . فالمعطل أيضاً ان عقل قليلا ترك الدنيا لكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها . فان لم تكن في أمر الآخرة على تخمين ولا من مشاهدة آفات الدنيا على يقين فما انت إلا من الحمقى المغرورين ولتعلمن نبأه بعد حين ولذلك قال الله تعالى ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون ﴾

القسم الرابع

﴿ في الاخلاق المحمودة وهي أيضاً عشرة أصول ﴾

الأصل الأول في التوبة

فانها مبدأ طريق السالكين ومفتاح سعادة المريدين قال الله تعالى ﴿ ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وتوبوا الى الله جميعاً ﴾ وقال النبي عليه السلام (التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) وقال عليه السلام (الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فانفلتت فطلبها

حتى اشتد عليه الجوع والعطش أو ما شاء الله عز وجل قال ارجع الى مكانى الذى كنت فيـه فأنام حتى أموت فوضـع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلتـه عنده وعليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده) *

فصل

حقيقة التوبة الرجوع عن طريق البعد الى طريق القرب ولكن لها ركن ومبدأ وكمال

أما مبدؤها فهو الايمان ومعناه سطوع نور المعرفة على القلب حتى يتضح فيه ان الذنوب سموم مهلكة فيشتعل منه نار الخوف والندم وينبعث من هذه النار صدق الرغبـة في التلافي والحذر . أما في الحال فبترك الذنوب . وأما في الاستقبال فبالعزم على الترك . وأما في الماضى فبالتلافى على حسب الامكان وبذلك يحصل الكمال *

فصل

اذا عرفت حقيقة التوبة انكشف لك انها واجبـة على كل أحد وفي كل حال ولذلك قال الله تعـالى ﴿ وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون ﴾ فخاطب الجميع مطلقا .

أما وجوبها فلان معناها معرفة كون الذنوب سموماً مهلكة

والانبعاث لتركها وهو جزء من الايمان أعني هذه المعرفة فكيف لاتجب . وأما وجوبها على كل واحد فهو ان الانسان مركب من صفات بهيمية وسبعية وشيطانيةوربوبية حتى يصدر من البهيمية الشهوة والشره والفجور . ومن السبعية الغضب والحسد والعداوة والبغضاء . ومن الشيطانية المكر والحيلةوالخداع . ومن الربوبيـــة الكبر والعز وحب المدح والاستيلاء . فاصول هذه الاخلاق الاربع عجنت في طينـة الانسان عجنا محكما لايكاد يتخلص منها . وانمـا ينجو من ظلماتهـا بنور الايمان المستفاد من العقل والشرع فأول مايخلق في الآدمي البهيمية فيغلب عليـه الشره والشهوة في الصبا . ثم يخلق فيه السبعية فيغلب عليه المعاداة والمنافسة . ثم يخلق فيه الشيطانية فيغلب عليـه المكر والخداع إذ تدعوه السبعية والبهيمية الى أن يستعمل كياسته فى حيل قضاءالشهوة وتنفيذ الغضب . ثم يظهر فيه بعد ذلك صفات الربوبية وهو الكبر والاستيلاء وطلب العلو

ثم بعد ذلك يخلق العقل الذى يظهر فيه نور الايمان وهو من حزب الله وجنود الملائكة وتلك الصفات من جنود الشيطان وجنود العقل يكمل عند الاربعين ويبدو أصله عند البلوغ . وأما سائر جنود الشيطان يكون قد سبق الى القلب قبل البلوغ واستولى عليه وألفته النفس واسترسلت في الشهوات متابعة لها الى ان يرد

نور العقل فيقوم القتال والتطارد بينهما في معركة القلب . فان ضعف جند العقل و نور الايمان لم يقو على ازعاج جنود الشيطان فتبقى جنود الشيطان مستقرة آخراً كما سبق الى النزول اولا . وقد سلّم للشيطان مملكة القلب وهذا القتال ضروري في فطرة الآدمي إذ لايتسع له خلقة الولد لما لايتسع له خلقة الاب . وانما حكى لك حال آدم صلوات الله عليه لتتنبه به ان ذلك كان مكتوبا عليه وهو مكتوب على جميع أولاده في القضاء الازلى الذي لايقبل التبديل . فاذاً لايستغنى احد عن التوبة *

فصـــل

واما وجوبها في كل حال فلان الانسان لايخلو في جميع احواله عن ذنب في جوارحه او في قلبه ولايخلو عن خلق من الاخلاق الذميمة مما يجب تزكية القلب عنه فانه مبعد عن الله والاشتغال باماطته توبة لانه رجوع عن طريق البعد الى طريق القرب فان خلا عن جميع ذلك فلايخلو عن غفلة عن الله وذلك ايضا طريق البعد ، ويلزمه الرجوع عنه بالذكر ولذلك قال الله تعالى ﴿ واذكر ربك اذا نسيت ﴾ وان كان حاضراً على الدوام . وانّى يتصور ذلك فلايخلو عن ملازمة مقام نازل عن المقامات الرفيعة وراءه . وعليه ان يترقى منه الى مافوقه ومهما ترقى منه استغفر عن مقامه الذى خلفه لانه تقصير بالاضافة الى ما ادركه وذلك لانهاية له . فلذلك

قال عليه السلام (وانه ليغان على قلبي حتى استغفر الله تعالى في اليوم والليلة سبعين مرة) . وكل ذلك كان توبة منه الا ان توبة العوام عن الذنوب الظاهرة . وتوبة الصالحين عن الاخلاق الذميمة الباطنة وتوبة المتقين عن مواقع الريبة . وتوبة المحبين عن الغفلة المنسية للذكر . وتوبة العارفين عن الوقوف علي مقام يتصور أن يكون وراءه مقام . والمقامات في القرب من الله لانهاية لها فتوبة العارف لانهاية لها أيضا .

فصل

التوبة اذا اجتمعت شرائطها فهي مقبولة لا محاله ولا يخفى عليك ذلك ان فهمت معنى القبول ، فمعنى القبول أن يحصل فى قلبك استعداد القبول لتجلى أنوار المعرفة في القلب ، وانما قلبك كالمرآة يحجبه عن التجلى كدورات الشهوة والرغبة فيها ويرتفع من كل ذنب ظلمة اليه، ومن كل حسنة نور اليه. فالحسنات تصقل النفس ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (اتبع السيئة الحسنة تمحها) ونسبة التوبة الى القلب نسبة الصابون الى الثوب ولا بد أن يزول منه الوسخ اذا استعمل فيه على وجهه ، ومن تاب فانما يشك فى قبول التوبة لانه ليس يستيقن تمام شروطها كما أن من شرب المسهل لا يستيقن حصول الاسهال به لانه لا يدرى وجود

تمام الشرائط في أدويتها ولو تصور ان يعلم ذلك لتصور أن يعلم القبول فى حق الشخص المعين ، ولكن هذا الشك في الاعيان لا يشككنا في ان التوبة فى نفسها بطريق القبول لا محالة *

فصل

علاج التوبة حل عقـدة الاصرار فانه لا مانع منها سوى الاصرار ، ولا حامل عليه سوى الغفلة والشهوة ، وذلك مرض فى القلب ، وعلاجه كعلاج أمراض البدن لكن هذا المرض اكثر من مرض الابدان لثلاثة أسباب ﴿ أحدها ﴾ انه من مرض لا يعرف صاحبه أنه مريض وهو كبرص على وجه من لا مرآة له فانه لا يعالجه لانه لا يعرفه ولو أخبره غيره ربما لم يصدقه ﴿ الثانى ﴾ ان عاقبـة هذا المرض لم يشاهدها الانسان ولم يجربهـا . فلذلك تراه يتكل على عفو الله ويجتهد فى علاج مرض البدن غاية الجهد ﴿ الثالث ﴾ وهو الداء العضال فقـد الاطباء . فان الطبيب هو العالم العامل ، وقد مرض العلماء فى هذه الاعصار مرضا عسر عليهم علاج انفسهم لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب ذلك على العلماء واضطروا الى الكف عن تحذير الخلق من الدنيـا كيلا تنكشف فضيحتهم فافتضحوا لما اصطلحوا على الاقبـال على الدنيا والتجاذب لها والتكالب عليها .

فبهذا السبب عم الداء، وانقطع الدواء، واشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم اذا لم يصلحوا لم يفسدوا[1] ، وليتهم سكتوا وما نطقوا بل صار كل واحد كأنه صخرة فى فم الوادى لا هي تشرب ولا تترك الماء ليشرب به غيرها ، وجملة القول في علاجه أن تنظر في سبب الاصرار وهو يرجع الى خمسة أبواب

﴿ أولها ﴾ أن العقاب الموعود ليس بنقد والطبع يستهين بما لا يوجد محققاً فى الحال ، وعلاجه أن تتفكر لتعلم ان كل ما هو آت قريب وان البعيد ما ليس بآت ، وان الموت أقرب الى كل احد من شراك نعله فما يدريه لعله فى آخر ايامه أو في آخر سنة من عمره ثم يتفكر أنه كيف يتعب في الاسفار فيركب الاخطار خوفا من الفقر فى الاستقبال

﴿ الثانى ﴾ أن اللذات والشهوات أخذت بمخنقه في الحال فليس يقدر على قلعها ، وعلاجه ان يتفكر انه لو ذكر له طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وهو ألذ الاشياء عنده كيف يتركه . فليعلم ان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أصدق من الطبيب النصراني ، والخلود فى النار أشد من الموت بالمرض وليقرر على نفسه انه اذا كان يشق عليه ترك اللذات

«١» نعم ماقال بعض الشعراء فيما له مناسبة بهذا البحث

يامعشر القراء ياملح البلد ＊ مايصلح الملح اذا الملح فسد

أياما قلائل فكيف لا يشق عليه ملابسة النار والحرمان عن الفردوس ونعيمه أبد الدهر

﴿ الثالث ﴾ انه يسوّف بالتوبة يوما فيوما وعلاجه ان يتفكر ويعلم ان بناء خطر السعادة والشقاوة على ما ليس اليه جهل فمن أين يعلم انه يبقى الى ان يتوب ، وان اكثر صياح أهل النار من التسويف لانهم سوفوا حتى فاجأهم مرض ساقهم الى الموت كيف وانما يسوف لانه يعجز عن قمع الشهوات في الحال فان كان ينتظر يوماً يسهل فيه قمع الشهوات فهذا يوم لم يخلق أصلا. بل مثاله مثال امرىء يريد ان يقلع شجرة عجز عنها لضعفه وقوة رسوخ الشجرة فيؤخر الى السنه القابلة وهو يعلم ان الشجرة تزداد كل يوم رسوخاً وقوته تزداد كل يوم قصوراً ونقصانا وذلك غاية الجهل

﴿ الرابع ﴾ أن يعد نفسه بالكرم والعفو وذلك غاية الحمق أوردها الشيطان فى معرض الدين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى)

﴿ الخامس ﴾ ان يكون والعياذ بالله شاكا فى أمر الآخرة ، وقد ذكرنا علاجه في خاتمة الاخلاق الذميمه ٥

فصل

التوبة من الذنوب كلها مهمة واجبة وعن الكبائر أهم والاصرار على الصغيرة أيضاً كبيرة فلا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع رجوع واستغفار ، وتواتر الصغائر عظيم التأثير فى تسويد القلب وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر فانه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر ، وتعظم الصغيرة بأسباب ﴿ أحدها ﴾ ان يستصغرها العبد ويستهين بها فلا يغتم بسببها، قال بعضهم الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل شيء عملته مثل هذا ﴿ الثاني ﴾ السرور بها والتبجح بسببها واعتقاد التمكن منها نعمة حتي ان المذنب ليفتخر فيقول مارأيتنى كيف شتمته وكيف مزقت عرضه وكيف خدعته في المعاملة وذلك عظيم التأثير في تسويد القلب ﴿ الثالث ﴾ ان يتهاون بستر الله عليه ويظن ان ذلك لكرامة عند الله تعالى ولا يدرى انه ممقوت ، وقد أمهل ليزداد اثما فيكون في الدرك الاسفل من النار ﴿ الرابع ﴾ ان يجاهر بالذنب ويظهره أو يذكره بعد فعله ، وفي الخبر كل الناس معافى إلا المجاهرون ﴿ الخامس ﴾ ان يصدر الصغيرة عن عالم يقتدى به فذلك عظيم لانه يبقى بعد موته . فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه ، ومن

سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ،

وروى ان بعض علماء بنى اسرائيل تاب عن ذنوبه وبدعته فأوحى الله الى نبي زمانه ان ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فادخلتهم النار . وعلى الجملة فلا باعث على التوبة الا الخوف الصادر عن البصيرة والمعرفة . فلنذكر فضيلة الخوف .

الأصل الثاني في الخوف

وقد جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وناهيك بذلك فضلا فقال تعالى ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ وقال ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال الله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (رأس الحكمة مخافة الله) وقال عليه السلام (من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله تعالى خوفه الله من كل شيء) وقال عليه السلام (قال الله تعالى وعزتي وجلالى لاأجمع على عبدي خوفين ولاأجمع له أمنين فاذا أمننى في الدنيا أخفته يوم القيامة . واذا خافنى في الدنيا أمنته يوم القيامة)

فصل

﴿ اعلم ﴾ ان حقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب . وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لامحـــالة — وهذا أكمل وأتم لان من عرف الله خافه بالضرورة . ولذلك قال الله تعالى ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام (خفني كما تخاف السبع الضارى) ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (أنا أخوفكم لله تعالى) واعلم أن الواقع في مخالب السبع انما لايخافه اذا لم يعرف السبع . فان من علم أن من صفة السبع أن يهلكه ولايبالى فان تركه لم يكن لرقته عليه وشفقته فانه أحقر عنده من أن يشفق عليه فلابد من أن يخاف ولله المثـل الاعلى وهو العزيز الحكيم . ولكن من عرف انه لو أهلك الاولين والآخرين لم يبال ولم ينقص شيء من ملكه ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الارض جميعاً ﴾ وكم أهلك من عباده في الدنيا وعرضهم لانواع العذاب ولم تأخذه رقة ولاشفقة فان ذلك محال عليه فلابد وأن يخاف . فمعرفة الجلال والعزة والاستغناء يورث الهيبة بالضرورة وهذا أكمل أنواع الخوف وأفضلها *

فصل

علاج الخوف وتحصيله على رتبتين ﴿ أحداهما ﴾ معرفة الله تعالى فانها توجب الخوف بالضرورة فان الواقع في مخالب السبع لايحتاج الى علاج ليخاف ان كان يعرف السبع . ومن عرف جلال الله تعالى واستغناءه وانه خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا وانه تمت كلمتـه بالسعادة والشقاوة في حق كل أحد صدقاً وعدلا وان ذلك لايتصور تغييره ولا يصرفه عن تنفيذ قضائه الازلى صارف وهو لايدرى ما الذى سبق به القضاء في حقه . ولايدري ما الذى يختم له به واحتمل عنده أن يكون مقضـياً له بشقاوة الابد فهذا لايتصور أن لايخاف

وأما من عجز عن حقيقة المعرفة فعـلاجه النظر الى الخائفين ومشاهدة أحوالهم أو سماع ذلك . فان اخوف خلق الله الانبياء والاولياء والعلماء واهل البصيرة واعظم الخلق امناً الغافلون الاغبياء الذين لايمتد نظرهم لا الى السابقة ولا الى الخاتمة ولا الى معرفة جلال الله تعالى . وهذا كان الصبي لايخاف الحية مالم ينظر الى ابيه يخافها ويهرب منها ويرتعد فرائصه اذا رآها فينظر اليه فيقلده ويستشعر خوفه وان لم يعرف بالحقيقة صفة الحية . وقد قال صلى الله عليه وسلم

(ماجاءني جبرائيل عليه السلام قط إلا وهو يرتعد فرائصه فرقاً[١]
من النار)وقيل لما ظهر على ابليس ماظهر طفق جبرائيل وميكائيل
يبكيان . فأوحى الله سبحانه اليهما مالكما تبكيان . قالا يارب مانأمن
مكرك . فقال الله تعالى هكذا كونا لاتأمنا مكرى.ولا يأمن مكر الله
الاالقوم الخاسرون . وقيل لماخلق الله تعالى النار طارت افئدة
الملائكة عن أماكنها فلما خلق بنى آدم عادت وكان ازيز[٢] قلب
ابراهيم عليه السلام يسمع في الصلاة من مسيرة ميل . وبقي داود
عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت الرعى[٣]
من دموعه، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لطائر ليتنى مثلك
يا طائر ولم أخلق ، وقال أبو ذر رضى الله عنه وددت لو أني شجرة
تعضد[٤] وقالت عائشة رضى الله عنها وددت لو انى كنت نسياً
منسياً ،وقد حكينا أحوال الخائفين فى « كتاب الخوف » فليتأمل القاصر
عن ذروة المعرفة أحوال الانبياء والاولياء والعارفين . ليعلم أنه
أحق بالخوف منهم ، واذا تأمل ذلك بالحقيقة غلبه خوفه *

(١) فرق فرقاً من باب تعب خاف (٢) أزت القدر تئز وتؤز أزاً وزيزاً وأزازاً بالفتح وائتزت وتأزت اشتد غليانها أو هو غليان ليس بالشديد والنارأوقدها والازز محركة امتلاء المجلس *
(٣) ألرعى بالكسر الكلأ جمعه أرعاء (٤) أى تقطع وعضده قطعه

فصـــل

الخوف سوط يسوق العبد الى السعادة ولا ينبغى أن يفرط بحيث يورث القنوط فذلك مذموم (١) . بل اذا غلب ينبغي أن عزج الرجاء به . نعم ينبغي ان يغلب الخوف الرجاء ما دام العبد مقارنا للذنوب فأما المطيع المتجرد لله تعالى فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه مثل عمر رضى الله عنه حيث قال لو نودى ليدخلن الجنة جميع الخلق الا رجل واحد لخفت ان أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودى ليدخلن النار جميع الخلق الا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وأما اذا قرب الموت فالرجاء وحسن الظن بربه أولى به . قال صلى الله عليه وسلم (لايموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه)

والرجاء يخالف التمنى فان من لا يتعاهد الارض ولا يبث البذر ثم ينتظر الزرع فهو متمنى مغرور فليس براج . انما الراجي من تعهد الارض وسقاها ، وبث البذر وحصل كل سبب يتعلق باختياره ثم بقي يرجو ان يدفع الله الصواعق والقواطع وان يمكنه من الحصاد بعد الانبات ، ولذلك قال عز وجل ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾

(١) يانفس لاتقنطي من زلة عظمت * ان الكبائر في الغفران كاللمم

وبالجملة فثمرة الرجاء الترغيب في الطلب ، وثمر الخوف الترغيب في الهرب، ومن رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه، وأقل درجات الخوف ما يحمل على ترك الذنوب وعلى الاعراض عن الدنيا ، وما لا يحمل على ذلك فهو حديث نفس وخواطر لا وزن لها تشبه رقة النساء ولا ثمرة لها . بل الخوف اذا تم أثمر الزهد في الدنيا .فلنذكر الزهد ومعناه *

الأصل الثالث في الزهد

قال الله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ وقال الله تعالى في حق قارون ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ فبين أن الزهد من ثمرات العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم (من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل

فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة)

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ وعن معنى الشرح قال عليه السلام (إن النور اذا دخل القلب انشرح الصدر وانفسح) . قيل وهل لذلك من علامة قال (نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله) وقال عليه السلام (استحيوا من الله حق الحياء) وقيل انا نستحي قال عليه السلام (تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون) وقال عليه السلام (من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وانطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام) وقال عليه السلام (لا يستكمل العبد حقيقة الايمان حتى يكون ان لا يعرف أحب اليه من ان يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته ، وقال عليه السلام (اذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه) وقال عليه السلام (ازهد في الدنيا يحبك الله تعالى وازهد فيما في أيدى الناس يحبك الناس) وقال عليه السلام (من أراد ان يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا)

فصـــل

للزهد في الدنيا حقيقة وأصل وثمرة(١) (أما حقيقته) فهو عزوف النفس(٢) عن الدنيا وانزواؤها(٣) عنها طوعاً مع القدرة عليها ، وأصلها العلم والنور الذى يشرق في القلب حتى ينشرح به الصدر ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى وان نسبة الدنيا الى الآخرة أقل من نسبة خزفة الى جوهرة (وثمرتها) القناعة من الدنيا بقدر الضرورة وهو قدر زاد الراكب ، فالاصل نور المعرفة فيثمر حال الانزواء ، ويظهر على الجوارح بالكف الا عن قدر الضرورة في زاد الطريق (والضرورى) من زاد الطريق مسكن وملبس ومطعم وأثاث

(أما المطعم) فله طول وعرض (أما طوله) فبالاضافة الى الزمان (وأقصر درجاته) الاقتصار على دفع الجوع في الحال ، فاذا دفعه غدوة لم يدخر شيئا لعشائه (وأوسطه) أن يدخر لشهر

---

(١) الزهد في اللغة ترك الميل الى الشيء ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والاعراض عنها ، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة انتهى كتبه مصححه محي الدين صبرى الكردى *

(٢) عزفت نفسي عنه تعزف عزوفا زهدت فيه وانصرفت عنه

(٣) والانزواء بالفارسى كوشه نشستن وازخلق فارغ بودن *

الى أربعين يوما فقط (وأدناه) أن يدّخر لسنة . فان جاوز ذلك خرج عن جميع أبواب الزهد الا أن لا يكون له كسب ولا يأخذ من الايدى كداود الطائي فانه ملك عشرين ديناراً فامسكها وقنع بها عشرين سنة ، فذلك لا يبطل مقام الزهد ودرجته في الآخرة الا عند من يشرط التوكل في الزهد (وأما عرضه) فاقله نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد ، والزيادة عليه تبطل رتبة الزهد ، وأما الجنس فأقله ما يقوت ولو النخالة ، وأوسطه خبز الشعير ، وأعلاه خبز البرّ غير منخول فان نخل فهو تنعم لازهد . فأما الادام فاقله الخل والبقل والملح . وأوسطه الادهان وأعلاه اللحم. وذلك في الاسبوع مرة أو مرتين . فاذا دام لم يكن صاحبه زاهداً . قالت عائشة رضى الله عنها كان يأتى أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ، وقيل ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر

﴿ وأما الملبس ﴾ فأقله مايستر العورة ويدفع الحر والبرد . وأعلاه قميص وسراويل ومنديل من الجنس الخشن . ويكون بحيث لو غسل ثوبه لم يجد غيره . فان كان صاحب القميصين لم يكن زاهداً . قال ابوذر (١) أخرجت عائشة رضى الله عنها كساء ملبداً

(١) وفي النسخة الكردية قال أبو بردة الخ

وازاراً غليظاً . فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة (١) لها علم فلما سلم قال (شغلني النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبي جهم) الحديث . وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد (٢) فلما سلم عن صلاته قال (أعيدوا الشراك الخلق فانى نظرت اليه فى الصلاة) . وكان عليه السلام قد احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنها فخر ساجداً . فقال عليه السلام (أعجبني حسنها فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى) ثم خرج بهما فدفعها الى أول مسكين رآه . وقد عُدَّ على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم . واشترى عليّ رضوان الله عليه فى خلافته ثوباً بثلاثة دراهم وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذي هذا من رياشه . وقال بعضهم قومت ثوب سفيان ونعله بدرهم ودانقين. وقال عليّ رضوان الله عليه إن الله عز وجل أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغنى ولا يزري بالفقير فقره.

﴿ وأما المسكن ﴾ فأدناه أن تقنع بزاوية في مسجد أو رباط كأهل الصُفّة . وأعلاه أن يطلب لنفسه موضعاً خاصاً وهي حجرة

(١) الخميصة هي ثوب خز أو صوف معلم (٢) والسير بالفتح الذي يقد من الجلد *

إما بشراء أو إجارة بشرط أن لايزيد سعته على قدر الحاجة ولا يرفع بناؤه ولا يهتم بتجصيصه . وفي الاثر ان من يرفع بناءه فوق ستة أذرع ناداه مناد الى أين يا أفسق الفاسقين . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولاقصبة على قصبة . وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً (١) فقال (ان الامر أعجل من ذلك) واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من خص . فقيل له لو شئت لاتخذته من الطين . فقال هذا كثير لمن يموت . وقال صلى الله عليه وسلم (من بنى فوق مايكفيه كاف ان يحمله يوم القيامة) . وقال عليه السلام (كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر وبرد)

﴿ واما ﴾ اثاث البيت ففيه ايضاً درجات . وادناها حال عيسي بن مريم عليه السلام اذ لم يكن معه إلا مشط وكوز . فرأى انساناً يمشط بأصابعه فرمى المشط . ورأى آخر يشرب بيده فرمى الكوز (وأوسطه) أن يستعمل الجنس الخشن واحداً فى كل غرض ، ويجتهد أن يستعمل واحداً في أغراض .

وقال عمر رضى الله عنه لعمير بن سعيد وهو أمير حمص ما معك من الدنيا . فقال معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل

---

(١) الخص بالضم البيت من القصب

بها حية ان لقيتها ومعي جرابي أحمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل رأسي وثوبي ، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووضوئي . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي ، فقال صدقت وقال الحسن ادركت سبعين من الاخيار ما لاحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا . وكان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف وعباءة خشنة . فهذه سيرة الزهاد في الدنيا . فمن حرم هذه الرتبة فلا أقل من أن يتحسر على فواتها ويجتهد أن يكون قربه منهم اكثر من قربه من المتنعمين في الدنيا *

فصل

الزهد على درجات ﴿ احداها ﴾ أن يزهد ونفسه مائلة الى الدنيا ولكن يجاهدها ، وهذا متزهد وليس بزاهد ولكن بداية الزهد التزهد ﴿ الثانية ﴾ أن تنفر نفسه عن الدنيا ولا تميل اليها لعلمه بأن الجمع بينها وبين نعيم الآخرة غير ممكن فتسمح نفسه بتركها كما تسمح نفس من يبذل درهما ليشتري جوهرة وان كان الدرهم محبوبا عنده ، وهذا زهد ﴿ الثالثة ﴾ ان لا تميل نفسه الى الدنيا ولا تنفر عنها بل يكون وجودها وعدمها عنده بمثابة واحدة

ويكون المال عنده كالماء وخزانة الله تعالى كالبحر فلا يلتفت قلبه اليه رغبة ونفوراً ، وهذا هو الاكمل لان الذي يبغض شيئا فهو مشغول به كالذي يحبه ولذلك ذم الدنيا قوم عند رابعة العدوية فقالت لولا قدرها في قلوبكم ما ذممتموها ، وحمل الى عائشة رضى الله عنها مائة الف درهم فلم تنفر عنها ولكن فرقتها فى يومها . فقالت خادمتها لو اشتريت بدرهم لحما تفطرين عليـه . فقالت لو ذكرتني لفعلت فهذا هو الغنى وهو اكمل من الزهد ، ولكنه مظنة غرور الحمقى إذ كل مغرور يستشعر في نفسه ان لا علاقة لقلبه مع الدنيا وعلامة ذلك ان لايدرك الفرق بين أن يسرق جميع ماله أو يسرق مال غيره . فما دام يدرك التفرقة فهو مشغول به *

فصل

كمال الزهد هو الزهد فى الزهد بان لا يعتد به ولا يراه منصبا فان من ترك الدنيا وظن أنه ترك شيئا فقد عظم الدنيا إذ الدنيـا عند ذوي البصائر لا شيء ، وصاحبها كمن منعه عن دار الملك كلب على بابه فألقى اليه لقمة خبز وشغله بها ودخل دار الملك وجلس على سرير الملك فان الشيطان كلب علي باب الله تعالى ، والدنيا كلها أقل من لقمة بالاضافة الى الملك إذ اللقمة لها نسبة الى الملك

إذ يفنى بأمثالهـا والآخرة لا يتصور ان تفنى بأمثال الدنيا لانها لا نهاية لها *

فصل

الزهد باعتبار الباعث عليه على ثلاث درجات ﴿احداها﴾ أن يكون باعثه الخوف من النار وهذا زهد الخائفين ﴿الثانية﴾ وهي أعلى منه أن يكون باعثه الرغبة في نعيم الآخرة . وهذا زهد الراجين . والعبادة على الرجاء أفضل منها على الخوف لان الرجاء يقتضي المحبة ﴿الثالثة﴾ وهي أعلاها أن يكون الباعث عليه الترفع عن الالتفات الى ماسوى الحق تنزيهاً للنفس عنه واستحقاراً لما سوى الله . وهذا زهد العارفين وهو الزهد المحقق وماقبله معـاملة إذ ينزل صاحبها عن شيء عاجلا ليعتاض عنه أضعافه آجلا *

فصل

الزهد باعتبار مافيه من الزهد على درجات ﴿وكماله﴾ الزهد في كل ماسوى الله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿ودونه﴾ الزهد في الدنيا خاصة دون الآخرة ﴿ثم يدخل﴾ فيه كل مافيه حظ وتمتع في الدنيا من مال وجاه وتنعم ودون ذلك أن يزهد في المال دون الجاه أو في بعض الاشياء دون البعض . وذلك ضعيف لان الجاه ألذ وأشهى من المال فالزهد فيه أهم *

فصـــل

الزهد أن تنزوى عن الدنيا طوعا مع القدرة عليها . أما إن انزوت الدنيا عنك وأنت راغب فيها فذلك فقر وليس بزهد ولكن للفقر أيضا فضل على الغنى لانه منع عن التمتع بالدنيا قهرا وهذا هو أفضل ممن مكن من الدنيا والتمتع بها حتى ألفها واطمأن اليها ولم يتجاف قلبه عنها فيعظم الألم والحسرة عند الموت وتكون الدنيا كأنها جنة الغنى . وتكون كأنها سجن الفقـير إذ يشتهي الخلاص من آلامها والفقر من أسباب السعادة . قال النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى يحمي عبده عن الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه عن الطعام والشراب) وقال عليه السلام (يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمس مابة عام) وقال عليه السلام (خير هذه الامة فقراؤها) وقال عليـه السلام (اذا رأيت الفقر مقبـلا فقل مرحبا بشعار الصـالحين . واذا رأيت الغنى مقبـلا فقل ذنب عجلت عقوبته) وقال موسى عليـه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لاجلك . فقال كل فقير

﴿ واعلم ﴾ ان الفقير إن كان قانعا بما أعطي غير شديد الحرص على الطلب فدرجته قريب من درجة الزاهد . قال صلى الله عليه

وسلم (طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به)
وقال صلى الله عليه وسلم (الفقراء الصبر هم جلساء الله تبارك
وتعالى) وقال عليه السلام (أحب العباد الى الله تعالى الفقير القانع)
وأوحى الله تعالى الى إسماعيل صلوات الله عليه وسلامه اطلبني عند
المنكسرة قلوبهم . قال ومن هم قال الفقراء الصادقون . وعلى الجملة
انما يعظم ثواب الفقير عند القناعة والصبر والرضى . والصبر على
الفقر مبدأ الزهد . ولاتتم هذه المقامات إلا بالصبر فلنذكره ٥

الأصل الرابع في الصبر

قال الله تعالى ﴿ واصبروا ان الله مع الصابرين ﴾ وجمع
للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم . فقال عز من قائل ﴿ أولئك
عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ وقال تعالى
﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقال
تعالى ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ وقال تعالى
﴿ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وذكر الله سبحانه في
القرآن الصبر في نيف وسبعين موضعا . وقال صلى الله عليه وسلم
(الصبر نصف الايمان) وقال عليه السلام (من أقل ما أوتيتم اليقين

وعزيمة الصبر ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار) وقال عليه السلام (الصبر كنز من كنوز الجنة) وسئل النبي عليه السلام مرة عن الايمان فقال (هو الصبر) وقال عيسى عليـــه السلام انكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ماتكرهون *

فصل

حقيقة الصبر ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى وهو من خاصية الآدمي الذي هو كالمركب من شعب ملكية وبهيمية لان البهيمية لم يسلط عليها الا دواعي الشهوة والملائكة لم يسلط عليهم الشهوة بل جردوا للشوق الى مطالعة جمال الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها فهم يسبحون الليل والنهار لايفترون فليس فيهم داعية الشهوة فلم يتصور الصبر لملك ولا بهيمة بل الانسان سلط عليه جندان يتطاردان ﴿ أحدهما ﴾ من حزب الله وملائكته وهو العقل وبواعثه ﴿ والثانى ﴾ من جنود الشيطان وهي الشهوات ودواعيها وبعد البلوغ تظهر بواعث الدين والعقل إذ يحمل على النظر الى العواقب وتبتدىء بقتال جند الشيطان فان ثبت باعث الدين في مقابلة باعث الهوى حتى غلبه فقد حصل مقام الصبر إذ لا يتصور

الصبر إلا عند تعارض الباعثين على التناقض وذلك كالصبر على شرب الدواء البشيع إذ يدعو اليه داعي العقـــل ويمنع منه داعي الشهوة . وكل من غلبته شهوته لم يعزم عليه ومن غلب عقله شهوته فصبر على مرارته لينال الشفاء . وشطر الايمان انما يتم بالصبر — ولذلك قال النبي عليه السلام (الصبر نصف الايمان) لان الايمان يطلق على المعارف والاعمال جميعاً وسائر الاعمال فى طرفي الكف والاقدام والتزكية والتحليه لايتم إلا بالصبر لان جملة أعمال الايمان على خلاف باعث الشهوة فلايتم إلا بثبات باعث الدين في مقابلته ولذلك قال عليه السلام (الصوم نصف الصبر) لان الصبر تارة في مقابلة داعي الشهوة وتارة في مقابلة داعي الغضب . والصوم هو كسر لداعية الشهوة .

فصل

الصبر له ثلاث درجات بحسب ضعفه وقوته (الدرجة العليا) أن تقمع داعيـــة الهوى بالكلية حتى لا يبقى لها قوة المنازعة ويتوصل اليها بدوام الصبر وطول المجاهدة وذلك من الذين قيل لهم « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » وإياهم ينادي المنادي « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية »

(الدرجة السفلى) أن تقوى داعية الهوى وتسقط منازعة باعث

الدين ويغلب الهوى ويسلم القلب لجند الشيطان وذلك من الذين قيل فيهم ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنــة والناس أجمعين ، وعلامته شيئان:

﴿ أحدهما ﴾ أن يقول أنا أشتاق الى التوبة ولكن تعذرت عليّ فلست أطمع فيها فهذا هو القانط وهو الهالك ﴿ الثاني ﴾ أن لا يبقى فيه شوق الى التوبة ولكن يقول الله كريم رحيم وهو مستغن عن توبتى فلا تضيق الجنة الواسعة والمغفرة الشاملة عنى ، وهذا المسكين قد صار عقــله أسير شهوته ولا يستعمله الا فى استنباط حيل قضاء الشهوة فصار عقله كالمسلم الاسير بين الكفار يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها على العنق والظهر الى بيوتهم فانظر كيف يكون حال العبد اذا أخذ أعز أولاد الملك وسلمه الى أخس أعدائه حتى استرقه واستسخره وفي مثل هذه الحاله يكون قدوم هذا الغافل المنهمك على الله تعالى نعوذ بالله منه (الدرجة الوسطى) أن لا يفــتر على المحاربة ولكن يكون الحرب بينهما سجالا تارة له اليد وتارة عليه اليد ، وهذا من المجاهدين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم

وعــــلامة هذا أن يترك من الشهوات ما هو اضــعف ويعجز عمــــا هو أغلب ، وربمــــا يغلبها فى بعض الاوقات دون

بعض وهو فى جميع الأحوال متحسر على عجزه ومستمر المعاودة الى مجاهدته وقتاله ، وذلك هو الجهاد الاكبر ، ومهما اتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وبالجملة فقد قصر عن البهيمة أنسى لم يقاوم بقوة عقله شهوته وقد أيد بالعقل وحرم عنه البهيمة، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولئك كالانعام بل هم أضلّ سبيلا ﴾

فصل

اعلم أن الحاجة الى الصبر عامة فى جميع الاحوال لان جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لايخلو عن نوعين . فانه إما ان يوافق هواه أو يخالفه .

فان وافق هواه كالصحة والسلامة والثروة والجاه وكثرة العشيرة فما أحوجه الى الصبر معها فانه أن لم يضبط نفسه طغى واسترسل في التنعم واتباع الهوى ونسى المبتدى والمنتهى ــ ولذلك قالت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بلينا بفتنة الضراء فصبرنا . وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر — ولذلك قيل يصبر على البلاء كل مؤمن ولا يصبر على العافية الا صديق . ومعنى الصبر فيها ان لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك وديعة عنده ويسترجع على القرب وأن لا ينهمك فى الغفلة والتنعم ويؤدى حق شكر النعمة .

وذلك مما يطول شرحه ﴿ النوع الثانى ﴾ ما يخالف الهوى وذلك أربعة أقسام :

﴿ القسم الاول الطاعات ﴾ والنفس تنفر عن بعضها بمجرد الكسل كالصلاة . وعن بعضها بالبخل كالزكاة ، وعن بعضها بهما جميعاً كالحج والجهاد والصبر على الطاعة من الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر فى ثلاثة أحوال ﴿ احداها ﴾ أول العبادة بتصحيح الاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ومكائد الشيطان ومكائد النفس وغرورها ﴿ الثانيـة ﴾ حالة العمل كيلا يتكاسل عن تحقيق أدائه بفروضه وسننه ، وتوقعه على شرط الادب مع حضور القلب ونفي الوسواس ﴿ الثالثة ﴾ بعد الفراغ وهو أن يصبر عن ذكره وافشائه للتظاهر به رياء وسمعة ، وكل ذلك من الصبر الشديد على النفس

﴿ القسم الثانى المعاصي ﴾ وقد قال صلى الله عليـــه وسلم (المجاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر السوء) والصبر عن المعاصى أشد لا سيما عن معصية صارت عادة مألوفة اذ يتظاهر فيه على بواعث الدين جندان (جند الهوى ، وجند العادة) فان انضم الى ذلك سهولة فعله وخفة المؤنة فيه لم يصبر عنها إلا الصديق — وذلك كمعاصى اللسان فانها هينة سهلة — وذلك كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس ويحتاج في دفع ذلك الى أشد أنواع الصبر

﴿القسم الثالث﴾ مالا يرتبط باختيار العبد ولكن له اختيار في دفعه وتداركه كالاذى الذي يناله من غيره بيد أو لسان. فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يجب وتارة يستحب. قال بعض الصحابة ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الاذى. قال الله عز وجل ﴿ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال الله تعالى ﴿ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ وقال تعالى ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾

﴿القسم الرابع﴾ مالا يدخل أوله وآخره تحت الاختيار كالمصائب بموت الاعزة وهلاك الاموال والمرض وذهاب بعض الاعضاء وسائر أنواع البلاء والصبر عليه من أعلى المقامات قال ابن عباس رضى الله عنه الصبر في القرآن على ثلاث مقامات صبر على اداء الفرائض وله ثلثمائة درجة، وصبر على محارم الله تعالى وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى وله تسعمائة درجة، وقال صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشتك الى عواده (١) ابدلته لحما خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه. فان أبرأته أبدلته ولا ذنب له وان توفيته فالى

«١» وفي النسخة الكردية ولم يشكنى

رحمتي) وقال النبي عليه السلام (قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان أنصب له ميزانا أو انشر له ديوانا) وقال عليه السلام (انتظار الفرج بالصبر عبادة) وقال عليه السلام (من اجلال الله تعالى ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك) فقد عرفت انك لا تستغني عن الصبر في جميع أوقاتك وبه يظهر أنه شطر الايمان . وشطره الآخر فيما يتعلق بالاعمال وهو الشكر . فقد قال صلى الله عليه وسلم (الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر) وهذا باعتبار النظر الى الاعمال والتعبير بالايمان عنها *

الأصل الخامس في الشكر

وقد قال الله تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وقال ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقال ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ وقال ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ وقال ﴿ ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم (للطاعم الشاكر منزلة الصائم الصابر عند الله) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يبكي في تهجده فقالت عائشة رضى الله عنها وما يبكيك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال عليه السلام (أفلا أكون عبداً شكوراً) وقال (ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة . فقيل ومن الحامدون. قال الذين يشكرون الله على كل حال) . وقال (الحمد رداء الرحمن)ه

فصل

اعلم ان الشكر من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات التى سبق ذكرها لانها ليست مقصودة في أنفسها . وانما تراد لغيرها . فالصبر يراد منه قهر الهوى والخوف سوط يسوق الخائف الى المقامات المقصودة المحمودة . والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله تعالى . وأما الشكر فمقصود في نفسه ولذلك لاينقطع في الجنة وليس فيها توبة ولاخوف ولاصبر ولازهد والشكر دائم في الجنة — ولذلك قال الله تعالى ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وتعرف ذلك بأن تعرف حقيقة الشكر وانه ينتظم من علم وحال وعمل . أما العلم فالعلم بالنعمة والمنعم وبأن النعم كلها من الله تعالى وهو المنفرد بجميعها . والوسائط كلهم مسخرون مقهورون . وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد فانهما داخلان

فيه بل الرتبة الاولى في معارف الايمان التقديس . ثم اذا عرفت ذاتاً مقدسة وعرفت انه لامقدس إلا واحد فهو التوحيد . ثم اذا علمت ان كل مافي العالم فهو موجود من ذلك الواحد والكل نعمة منه خاصة فهو الحمد . والى هذا الترتيب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله فله عشر حسنات ، ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة) وهذا لان التقديس والتوحيد داخلان في الحمد وزيادة . وهذه الدرجات بازاء هذه المعارف . وأما حركة اللسان ففضلها بحسب صدورها عن المعرفة أو تجديدها للاعتقاد في القلب . فان الفم آلة لازالة الغفلة لينمحي أثرها

﴿ واعلم ﴾ انك اذا اعتقدت أن لغير الله دخلا فى النعمة الواصلة اليك لم يصح حمدك ولم تتم معرفتك وشكرك . وكنت كمن يخلع عليه الملك وهو يرى ان لعناية الوزير دخلا في خلعة الملك أو في ايصالها اليه او في تيسيرها . وكل ذلك اشتراك في النعمة ويتوزع فرحك في النعمة عليهما . نعم لو رأيت الخلعة الواصلة اليك بتوقيع الملك بقلمه فذلك لايقصر من شكرك لانك تعلم ان القلم مسخر له لادخل له في النعمة بنفسه — ولذلك لايلتفت قلبك الى الفرح بالقلم والشكر له — ولذلك قد لايلتفت الى الخازن والوكيل إذ يعلم

انهما مضطران الى العطاء بعد الامر مسخران لامدخل لهما بأنفسهما في النعمة فكذلك من انفتحت بصيرته علم ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله تعالى كالقلم والكاغد والحبر في التوقيع وان قلوب الخلق خزائن الله تعالى ومفاتيحها بيد الله عز وجل فيفتحها بأن يسلط عليها دواعي جازمة حتى يعتقد ان خيرها فى البذل مثلا . وعند ذلك لايستطيع ترك البذل فيكون مضطراً الى الاختيار لما سلط عليه من دواعى الاختيار فانه لايعطيك أحد شيئاً الا لغرض نفسه ليستفيد به في الآجل ثوابا أوفي العاجل ثناء وذكراً أو غير ذلك . ومالم يعلم ان منفعته فى منفعتك فلايعطيك . فاذاً ليس هو منعما عليك اذ يسعى لنفسه . انما المنعم عليك من سخره وسلط هذه الدواعى عليه . وقرر في نفسه ان غرضه منوط بالاداء والانعام . فان عرفت الامور كذلك كنت موحداً وتصور منك الشكر بل هذه المعرفه هي عين الشكر . قال موسى عليه السلام في مناجاته الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك . قال علم ان ذلك منى فكان معرفة ذلك شكراً . ﴿ الركن الثانى ﴾ الحال المستثمرة من المعرفة وهي الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والاجلال . ومن يرسل اليه بعض الملوك فرسا فيتصور أن يفرح به من ثلاثة أوجه ﴿ أحدها ﴾ من حيث انه ينتفع بالفرس أو من حيث يستدل به على عناية الملك بشأنه وانه سينعم عليه بما هو

أعظم منه أو من حيث ان الفرس يكون موكبا له حتى يسافر الى حضرة الملك ويخدمه . والاول ليس من الشكر فى شىء فانه فرح بالنعمة لا بالمنعم ﴿ والثانى ﴾ داخل فى الشكر لكنه ضعيف بالاضافة الى الثالث . فكمال الشكر أن يكون الفرح بما يفتح الله تعالى من نعمه لا بالنعمة من حيث هى نعمة بل بها من حيث أنها وسيلة اليه اذ بنعمته تتم الصالحات . وعلامة هذا أن لا يفرح بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى بل يغتم بها ويفرح بما زوى الله تعالى عنه من شغل الدنيا وفضولها . وهذا أكمل الشكر . فمن لم يستطع فعليه بالثاني ﴿ وأما الاول ﴾ ففرح بالنعمة لا بالمنعم وليس ذلك من الشكر في شىء

﴿ الركن الثالث ﴾ العمل وذلك بأن يستعمل نعمه في محابه لا في معاصيه . وهذا لا يقوم به الا من يعرف حكمة الله تعالى في جميع خلقه وانه لماذا خلق كل شىء . وشرح ذلك يطول . وقد ذكرنا منه طرفا في الاحياء. وجملته أن تعلم مثلا ان عينه نعمة منه فشكرها أن يستعملها في مطالعة كتاب الله وكتب العلم ومطالعة السموات والارض ليعتبر بها ويعظم خالقها وأن يستر كل عورة يراها من المسلمين ويستعمل أذنه في سماع الذكر وما ينفعه في الآخرة ويعرض عن الاصغاء الى الهجو والفضول . ويستعمل اللسان في ذكر الله تعالى والحمد له في اظهار الشكر منه دون الشكوى . ومن

سئل عن حاله فشكى فهو عاص لانه شكى ملك الملوك الى عبد ذليل لا يقدر على شيء، فان شكر فهو مطيع . وأما شكر القلب فاستعماله في الفكر والذكر والمعرفة واضمار الخير للخلق وحسن النية . وكذلك في اليد والرجل وسائر الاعضاء والاموال وغير ذلك مما لا ينحصر ٥

فصل

اعلم أنه انما يتمكن في كمال الشكر من شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه يرى فى كل شيء حكمته وسره ومحبوب الله فيه . ومن لم ينكشف له ذلك فعليه باتباع السنة وحدود الشرع فتحتها أسرار الشكر . وليعلم انه لو نظر الى غير محرم مثلا فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس وكل نعمة لا يتم النظر اليها إلا بها فان الابصار انما يتم بالعين ونور الشمس والشمس انما تتم بالسموات فكأنه كفر أنعم الله تعالى فى السموات والارض . وقس على هذا كل معصية فانها انما تتمكن بأسباب يستدعي وجود جميعها خلق السموات والارض . ولهذا غور عميق أشرنا اليه فى كتاب الشكر من كتاب الاحياء . ويكفيك ههنا مثال واحد وهو ان الله تعالى خلق الدراهم والدنانير لتكون حاكمة في الاحوال كلها يقدر بها القيم ولولاها لتعذرت المعاملات إذ لا يدرى كيف يشتري الثياب بالزعفران والدواب بالاطعمة فانها لا مناسبة بينهما . وانما يشتركان

فى روح المالية . ومعيار مقدار أرواحهما هو النقدان فمن كنزهما كان كمن حبس حاكما من حكام المسلمين حتى تعطلت الاحكام . ومن اتخذ منهما آنية كان كمن استعمل حاكما من حكام المسلمين فى الحياكة والفلاحة التي يقدر عليها كل أحد حتى يتعطل الحكم وذلك أشد من الحبس . ومن أربى فيهما وجعلهما مقصد تجارته بالمصارفة بين جيدهما ورديهما كان كمن شغل الحاكم عن الحكم فاتخذه سخرة لنفسه ليحتطب له ويكنس له ويكتسب له القوت ٭

وكل ذلك ظلم وتغيير لحكم الله عز وجل فى خلقه وعباده ومعاداة الله تعالى فى محابه . ومن لا ينكشف له بنور البصيرة هذه الاسرار عرف على لسان الشرع صورته دون معناه . وقيل له : ﴿ الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ الى قوله تعالى يكنزون . وقيل من شرب فى إناء من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم . وقيل ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ الآية . فالصالحون يقفون على الحدود ولا يعرفون أسرارها والعارفون اذا اطلعوا على الاسرار بأنفسهم وشاهدوا شواهد الشرع ازدادوا نوراً على نور . والعميان الجاهلون يحرمون الوقوف على الحدود والعثور على الاسرار جميعاً فلاهم كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام . وهم الذين قال فيهم ﴿ ولكن حق القول مني ﴾

الآية . وقال تعالى ﴿ أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ الآية . وقال ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ الى قوله ﴿ فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وآيات الله وحكمته في خلقه . وقد ألقيت الى الخلق على لسان الانبياء صلوات الله عليهم كما فصلت فى جملة الشريعة من أولها الى آخرها . ومامن حد من حدود الشرع إلا وفيه سر وخاصية وحكمة يعرفها من يعرفها وينكرها من يجهلها . وشرح ذلك طويل فليطلب من كتاب الشكر . ولا يتصور تمام الشكر الا ممن قام لله تعالى وحده مخلصاً لارغبة فيه لغيره . فلنذكر الاخلاص والصدق *

الأصل السادس في الأخلاص والصدق

اعلم أن للاخلاص حقيقة وأصلا وكمالا . فهذه ثلاثة أركان ، وأصله النية إذ فيها الاخلاص ، وحقيقته نفى الشوب عن النية وكماله الصدق *

﴿ الركن الاول النية ﴾ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ ومعنى النية ارادة وجهه ، وقال صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات) الحديث وقال ان الملائكة ترفع صحيفة عمل العبد فيقول الله تعالى ألقوها

فانه لم يرد بها وجهي، واكتبوا له كذا وكذا . فيقول الملائكة أنه لم يعمل منهـا شيئا فيقول الله عز وجل انه نواه انه نواه ، وقال صلى الله عليه وسلم (الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله ما أتاه لعملت كما يعمل فهما في الاجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء) ، وقال عليه السلام من (غزا ولا ينوى الا عقالا فله ما نوى) *

ويقـال ان رجلا في بنى اسرائيل مرّ بكثبان رمل فى أيام قحط . فقال فى نفسه لو كان لى هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحي الله تعالى الى نبيهم . قل له ان الله تعالى قد قبل صدقتك وشكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به ، وقال عليه السلام (اذا التقي المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) فقيل ما بال المقتول . فقال (أراد قتل صاحبه) وقال عليه السلام (من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى اداءه فهو زان ومن أدان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق) *

فصل

حقيقة النية هى الارادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن المعرفة وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقـدرة وارادة وعلم . والعلم يهيج الارادة . والارادة باعثة للقدرة . والقدرة خادمة الارادة بتحريك الاعضاء . مثاله أنه خلق فيك شهوة الطعام الا أنها قد تكون فيك راكدة كأنها نائمة . واذا وقع بصرك على طعـام حصلت المعرفة بالطعام فانتهضت الشهوة للطعام فامتدت اليه اليد وإنما امتدت اليد بالقوة التى فيها المطيعة لاشارة الشهوة وانتهضت الشهوة بحصول المعرفة المستفادة من طليعة الحس وكما خلق فيك شهوة الى الاشياء الحاضرة خلق فيك أيضاً ميل الى اللذات الآجلة ينتهض ذلك الميل باشارة المعرفة الحاصلة من العقل (والقدرة) أيضا تخدم هذا الميل بتحريك الاعضاء . فالنية عبارة عن الميل الجازم الباعث للقدرة والذى يغزو قد يكون الباعث له ميل الى المال فذلك نيته ، وقد يكون الباعث ميل الى ثواب الآخرة فذلك نيتـه . فاذاً النية عبارة عن الارادة البـاعثة . ومعنى اخلاصها تصفية الباعث عن الشوب *

فصـــل

اذا حصل العمل بباعث النية فالنية والعمل بهما تمام العبادة فالنية أحد جزءي العبادة لكنها خير الجزئين لان الاعمال بالجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها في القلب ليميل الى الخير وينفر عن الشر فيتفرغ للفكر والذكر الموصلين له الى الانس والمعرفة اللذين هما سبب سعادته فى الآخرة .

فليس المقصود من وضع الجبهة على الارض وضع الجبهة على الارض بل خضوع القلب ولكن القلب يتأثر بأعمال الجوارح ، وليس المقصود من الزكاة ازالة الملك بل إزالة رذيلة البخل وهو قطع علاقة القلب من المال . وليس المقصود من الضحية لحومها ولا دماؤها ولكن استشعار القلب للتقوى بتعظيم شعائر الله تعالى والنية عبارة عن نفس ميل القلب الى الخير فهو متمكن من حدقة المقصود فهو خير من عمل الجوارح الذي انما يراد منه سراية أثره الى محل المقصود وهو القلب . ولذلك يورث جميع أعمال القلب دون الجوارح فيه اثرا ما . وعمل الجارحة دون حضور القلب هباء ولا أثر له . ومهما قصد معالجة المعدة بما يصل من الادوية بالشرب اليها أنفع لامحالة مما يطلى به ظاهر المعدة ليسري اليها أثره . وكذلك اذا لم يسر أثر الطلاء الى المعدة كان باطلا . وبهذا التحقيق يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (نية المؤمن خير من عمله) ه

فصـــل

اذا عرفت فضل النيـة وانها تحل حدقة المقصود فيؤثر فيها فاجتهد أن تستكثر من النيـة في جميع أعمالك حتى تنوى بعمل واحد نيات كثيرة . ولو صدقت رغبتك هديت لطريقه ويكفيك مثال واحد وهو ان الدخول في المسجد والقعود فيه عبادة . ويمكن أن تنوى فيه ثمانية أمور ﴿ أولها ﴾ أن تعتقد أنه بيت الله عز وجل وان داخله زائر الله تعالى فتنوى ذلك . قال عليه السلام (من قعد في المسجد فقـد زار الله تعالى . وحق على المزور اكرام زائره) ﴿وثانيها﴾ نية المرابطة لقول الله تعالى ﴿وصابروا ورابطوا﴾ وقيل معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة ﴿ وثالثها ﴾ الاعتكاف . ومعناه كف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات المعتادة فانه نوع صوم قال صلى الله عليه وسلم (رهبانية أمتي القعود في المساجد). ﴿ ورابعها ﴾ الخلوة ودفع الشواغل للزوم السر للفكر في الآخرة وكيفية الاستعداد لها ﴿ وخامسها ﴾ التجرد للذكر وسماعه أو اسماعه لقوله صلى الله عليه وسلم (من غدا الى المسجد يذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى) ﴿وسادسها ﴾ ان يقصد إفادة علم وتنبيه من يسيء الصلاة ونهياً عن منكر وأمراً بمعروف حتى يتيسر بسببه

خيرات ويكون شريكا فيها ﴿ وسابعها ﴾ أن يترك الذنوب حياء من الله عز وجل بأن يحسن نيته في نفسه وقوله وعمله حتى يستحي منه من رآه[1] أن يقارف ذنباً *

﴿ وثامنها ﴾ أن تستفيد أخاً في الله فان ذلك غنيمة وذخيرة لدار الآخرة ، والمسجد يعشش أهلَ الدين المحبين لله وفى الله ، وقس على هذا سائر الاعمال فباجتماع هذه النيات تزكو الاعمال وتلتحق بأعمال المقربين كما انه بنقيضها يلتحق بأعمال الشياطين كمن يقصد من القعود في المسجد التحدث بالباطل والتفكه بأعراض الناس ومجالسة أخدان اللهو واللعب وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان ومناظرة من ينازعه من الاقران على سبيل المباهاة والمراياة باقتناص قلوب المستمعين لكلامه وما يجري مجراه ، وكذلك لا ينبغي أن يغفل في المباحات عن حسن النية . ففي الخبر ان العبد يسئل يوم القيامةعن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه

﴿ ومثال النية في المباحات ﴾ أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعم بلذته والتفاخر باظهار ثروته أو التزويق للنساء وأخدان الفساد ، ويتصور أن ينوى اتباع السنة وتعظيم بيت الله

---

(١) وفي النسخة النورية « حتى يستحى من زاره أن يقارف ذنبا »

تعالى واحترام يوم الجمعة ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة وإيصال الراحة اليهم بالرائحة الطيبة وحسم باب الغيبة اذا شموا منه رائحة كريهة ، والى الفريقين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم(من تطيب في الله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة) ٭

فصل

اعلم ان النية لا تدخل تحت الاختيار فلا ينبغي أن تغتر فتقول بلسانك وقلبك نويت من القعود في المسجد كذا وكذا ، وتظن أنك قد نويت إذ عرفت من قبل أن النية هي الباعث المتحرك الذى لولاه لم يتصور وجود العمل ، والنية المتكلفة كقول القائل نويت أن أحب فلانا وأعشقه وأعظمه أو نويت أن أعطش أو اجوع أو أشبع فان لكل هذه دواعي وصوارف وتحققها أسبابها أذ لا يتصور حصولها دون أسبابها . وقول القائل نويتها قبل تحققها حديث نفس لا نية . فمن وطىء لغلبة شهوة الوقاع من أين ينفعه قوله نويت الوطىء لحراثة الولد وتكثير عدد من به المباهاة بل لا تظفر بانبعاث هذه النيات من قلبك الا اذا قوى ايمانك وعت

معرفتك بحقارة الحظوظ العاجلة وعظم ثواب الآخرة حتى اذا غلب ذلك عليك انبعث منك الرغبة ضرورة فى كل ما هو وسيلة الى ثواب الآخرة وان لم ينبعث فلا نية لك ، ولمثل هذا توقف السلف فى جملة من الخيرات حتى روى أن محمد بن سيرين لم يصلّ على جنازة الحسن البصرى ، وقال ليس تحضرني النية ، وقيل لطاوس أدع لنا فقال حتى أجد له نية ، وقال بعضهم أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى نية بعد ، ومن عرف حقيقة النية وعلم أنها روح العمل فلا يتعب نفسه بعمل لا روح له ويحقق ذلك أن المباح قد يصير أفضل من العبادة اذا حضرت فيه نية فمن له نية في الأكل والشرب ليقوى على العبادة وليس تنبعث له نية الصوم فى الحال فالأكل أولى له ،ومن ملّ من العبادة وعلم أنه لو نام لعاد نشاطه فالنوم أفضل له . بل لو علم مثلا أن الترفه بدعابة وحديث مزاح فى ساعة يرد نشاطه فذلك أفضل له من الصلاة مع الملال *

قال صلى الله عليه وسلم (ان الله لا يمل حتى تملوا) وقال أبو الدرداء انى لاستجم نفسى بشىء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق ، وقال علي رضى الله عنه روّحوا النفوس فانها اذا أكرهت عميت ، وهذه دقائق يستثقلها الظاهريون من الفقهاء كما

يستثقل الطبيب الضعيف من الاطباء معالجة المحرور باللحم ، والحاذق منهم قد يأمر به ليعود قوة المريض حتى يحتمل الدواء النافع بعده *

﴿ الركن الثانى ﴾ فى اخلاص النية وقد قال الله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ وقال الله تعالى ﴿الا لله الدين الخالص﴾ وقال ﴿الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله﴾ .وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى ﴿ألاخلاص سر من سرى استودعته قلب من احببت من عبادى﴾ وقال عليه السلام لمعاذ (أخلص العمل يجزك القليل منه) وقال عليه السلام (ما من عبد يخلص العمل أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) *

فصل

حقيقة الاخلاص تجرد الباعث الواحد ويضاده الاشراك وهو أن يشترك الباعثان وهو كل ما يتصور أن يمازجه غيره فان صفا من كل شوب منه يسمى خالصا ، وقد عرفت أن النية هى الباعث ، فمن لا يعمل الا للرياء فهو مخلص، ومن لا يعمل الا لله فهو مخلص ولكن خصص الاسم بأحد الجانبين بالعادة كالالحاد فانه ميل ولكن

خصص بالميل الى البـاطل وزوال الاخلاص بشوائب الرياء قد ذكرناه ولكن قد يزول أيضا باغراض أخر فان الصائم قد يقصد مع العبادة أن ينتفع بالحمية الصالحة الحاصلة بالصوم ، وقد يقصد المعتق أن يتخلص بالعتق من مؤونة العبد وسوء خلقه ، والحاج يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يهرب من مشقة تعهد العيال أو من ايذاء الاعداء أو من التبرم[1] بالمقام مع الاهل ، والمتعلم يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المعاش أو يكون محروساً بعز العـلم عن الظلم أو يكتب مصحفا ليجود خطه أو يحج ماشيا ليخفف مؤونة الكراء أو يتوضأ ليتنظف أو يتـبرد أو يغتسل لتطيب رائحته أو يعتكف ليخفف عليه كراء المسكن أو يصوم ليخفف عن نفسه تعب الطبخ وشراء الطعام أو يتصدق ليدفع عن نفسه ابرام السائل أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض ، فهذه الاغراض قد تتجرد وقد تشوب قصد العبادة شوبا خفيا ، فاذا خطر شيء من هذه الاغراض في الفعل فقـد ذهب الاخلاص وذلك عسير جداً ، ولذلك قال بعضهم فى اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن ذلك عزيز ، وقال ابو سـليمان الداراني طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله عز وجل . وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ، ويقول يا نفس اخلصي تتخلصي *

---

(١) التبرم من برم مثل ضجر ضجرا وزنا ومعنى ويتعدى بالهمزة

فصـــل

اعلم ان امتزاج هذه الشوائب على مراتب فانها قد تغلب وقد تكون مغمورة ، وقد تكون مساوية لقصد العبادة ولا تمحو أصل الثواب في المباحات ومهما بقى شوب من ارادة الله عز وجل فله ثواب بقدر ذلك الشوب والباقي لا ثواب عليه ، فاما إذا كان في العبادة أمر بأن يخلصها لله تعالى فان كان الشوب غالبا بطلت العبادة وان كان مساوياً أو مغلوباً بطل الاخلاص ولكن هل يتوقف انعقاد العبادة وحصول أصلها على انتفاء الشوائب كلها فيه نظر أشرنا اليه في الرياء ، ويطلب استقصاؤه من كتاب الاحياء *

﴿ الركن الثالث الصدق ﴾ وهو كمال الاخلاص قال الله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية ، وقال النبي عليه السلام (ان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا) وقال الله تعالى ﴿واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ﴾ ، ويكفي بفضيلة الصدق ان يدرك به فضيلة الصديقين *

﴿ واعلم ﴾ أن الصدق مراتب ستاً من بلغ فى جميعها رتبة الكمال استحق اسم الصديق (أولها الصـدق في القول) فى جميع الاحوال ما يتعلق بالماضى والمستقبل والحال ، ولهذا الصدق كالان

(أحدهما) الحذر عن المعاريض أيضا فانه وان كان صدقا فى نفسه فيفهم خلاف الحق ، والمحذور من الكذب تفهيم خلاف الحق إذ يكتسب القلب صورة معوجة كاذبةبازاء كذب اللسان ، واذا مال وجه القلب من الصحة الى الاعوجاج لم يتجل الحق له على الصحة حتى لا يصدق رؤياه أيضا ، والمعاريض لا توقع فى هذا المحذور لانه صـدق فى نفـه لكن توقع في المحـذور الثانى وهو تجهيل المعنى فلاينبغي أن يفعل ذلك الا لغرض صحيح (وكماله الثانى) أن يرعى الصدق في أقاويله مع الله تعالى فاذا قال ﴿وجهت وجهي﴾ وفى قلبه في تلك الحالة شيء سوى الله عز وجل فهو كاذب واذا قال ﴿ إياك نعبـد ﴾ وهو مع ذلك عبد الدنيا او لنفسه أو لغيره لم يمكنه تحقيق صدق هذه الكلمة فى القيامة ولذلك قال عيسى عليه السلام ياعبيد الدنيا ، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدرهم والدينار) (الصـدق الثانى) فى النية وهو أن يتمحض فيه داعية الخير فان كان فيه شوب فقد فات الصدق لله يقال هذا صادق الحموضة وصادق الحلاوة اذا كان محضـا ، فيرجع هذا الى نفس الاخلاص (والصـدق الثالث) في العزم فان العبد قد يعزم على التصدق إن رزق مالا وعلى العدل ان رزق ولاية وعزمه تارة يكون مع ضعف وتردد وتارة يكون جزما قويا لا تردد فيه ، فالجزم القوى

يسمى قويا صادقا كما وجده عمر من نفسه رضى الله عنه حيث قال لان أقدم فيضرب عنقي أحب الىّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه، ودرجات عزم الصديقين فى القوة قد تتفاوت وأقصاها أن ينتهى الى الرضاء بضرب الرقبة دون الحقيقة (والصدق الرابع) الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم أولا ولكن عند الوفاء ربما تتوانى عن كمال التحقيق لان المؤنة في العزم هين ، وانما الشدة فى التحقيق ولذلك قال تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الى قوله ﴿ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾

(الصدق الخامس) في الاعمال بأن يكون بحيث لا يدل على شيء من الباطن الا والباطن متصف به ، ومعناه استواء السريرة والعلانية فالماشى على هدو يدل بحكمه على أنه ذو وقار فى باطنه فان لم يكن كذلك فى الباطن والتفت قلبه الى أن يخيل الى الناس انه ذو وقار فى باطنه فذلك الرياء ، وان لم يلتفت الى الخلق قلبه ولكنه غافل فليس ذلك برياء ولكن يفوت به الصدق — ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتي واجعل لى علانية صالحة) وقال عبد الواحد كان الحسن البصرى

إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به واذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر قط أحداً أشبه سريرته بعلانيته منه *

﴿ الصدق السادس ﴾ وهو على أبواب الصدق في مقامات الدين كالخوف والرجاء والحب والرضاء والتوكل وغيرها فان لهذه المقامات أوائل ينطلق الاسم بها ولها حقائق وغايات إذ يقال هذا هو الخوف الصادق وهي الشهوة الصادقة — ولذلك قال الله تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ الآية. فهذه درجات الصدق فمن تحقق في جميعها فهو صديق ومن لم يصب بعضها فرتبته بقدر صدقه. ومن جملة الصدق تحقيق القلب بأن الله هو الرزاق والتوكل عليه فلنذكره *

الأصل السابع في التوكل

قال الله تعالى ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾ وقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال ﴿ أليس الله بكاف

عبده ﴾ وقال ﴿ ان الذين يعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً (١)) وقال (من انقطع الى الله كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب . ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها) وكان رسول الله اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي فقال وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ٥

فصل

حقيقة التوكل عبارة عن حالة تصدر عن التوحيد . ويظهر أثرها على الاعمال فهي ثلاثة أركان . المعرفة والحال والعمل ﴿ الركن الاول المعرفة ﴾ وهي الاصل وأعني بها التوحيد فانها انما يتوكل على الله من لايرى فاعلا سوى الله . وكمال هذه المعرفة يترجمه قولك (لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) إذ فيه ايمان بالتوحيد وكمال القدرة والجود والحكمة التي يستحق بها الحمد فمن قال ذلك صادقا مخلصاً

---

(١) والبطنة الامتلاء الشديد من الطعام والخميصة الجوع

فقـد تم توحيده وثبت في قلبه الاصل الذى منـه ينبعث حال
التوكل وأعني بالصدق فيه أن يصير معنى القول وصفاً لازماً لذاته
غالباً على قلبه لا يتسع لتقدير غيره *

فصل

هذا التوحيد له لبان وقشران وطبقاته أربع كاللوز له لب ثم
الدهن اب لبه . والقشرة العليا قشر قشره (فالقشرة العليا) القول
باللسان المجرد وهو إيمان المنافقين

﴿ الثانية ﴾ الاعتقاد بالقلب جزماً وهو درجة عوام الخلق
ودرجة المتكلمين إذ لا يتميزون عن العوام إلا بمعرفة الحيـلة
في دفع تشويش المبتدعة عن هذه الاعتقادات ﴿الثالثة﴾ وهى اللب
أن تنكشف بنور الله عز وجل حقيقة هذا التوحيد وسره بالحقيقة .
وذلك بأن يرى الاشياء الكثيرة ويعلم انها بجملتها صادرة عن فاعل
واحد على الترتيب . وذلك بأن يعرف سلسلة الاسباب وكيفيـة
تسلسلها وارتبـاط أول السلسلة بمسبب الاسباب . وصاحب هذا
المقام بعد في تفرقة لانه يرى الافعال وكثرتها وارتباطها بالفاعل
﴿ الرابعة ﴾ وهو لب اللب أن لايرى فى الوجود إلا واحداً أو يعلم
ان الموجود بالحقيقة واحد وانما الكثرة فيه في حق من تفرق نظره

كالذى يرى من الانسان مثلا رجله ثم يده ثم وجهه ثم رأسه فيغلب عليه كثرته فان رأى الانسان جملة واحدة لم يخطر بباله الآحاد بل كان كمدرك الشيء الواحد . فكذلك الموحد لايفرق نظره بين السماء والارض وسائر الموجودات بل يرى الكل في حكم الشيء الواحد . وهذا له غور ويستدعي كشفه تطويلا فاطلبه من كتاب التوحيد والشكر من كتب الاحياء لتقف على تلويحات منه . والفناء في التوحيد انما يقع في هذا التوحيد وذلك بأن يصير مستغرقاً بالواحد الحق حتى لايلتفت قلبه الى غيره ولاالى نفسه فان نفسه من حيث هي نفسه غير الله وإن لم يتحقق له معنى الغيرية بنظر آخر واعتبار على وجه آخر *

فصل

حقيقة التوكل إنما يستدعي توحيد الفعل ولا يستدعى الفناء في توحيد الذات بل المتوكل يجوز أن يرى الكثرة والاسباب والمسببات ولكن ينبغى أن يشاهد ارتباط السلسلة بمسببها وما عندى أن ذلك يخفى عليك فيما يدخل فيه اختيار الآدميين فانك ان رأيت المطر سبباً في النبات فتعلم أن المطر مسخر بواسطة الغيم ، والغيم مسخر بواسطة الريح وابخرة الجبال ، وكذلك الجبال جمادات

مسخرة الى أن ينتهي الى الاول لا محالة، وان كنت لا تعرف عدد الوسائط فلا يضرك ذلك وإنما الذي يخفى عليك أفعال الآدميين فانك تقول من اطعمني طعاما فانما يطعمني باختياره إن شاء أعطى وإن شاء منع فكيف لا أراه فاعلا ، وانما مثلك في الالتفات اليه مثل النملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة لا تمد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ،ومنها الى الارادة التي القدرة مسخرة لها،ومنها الى المعرفة التي يتوقف انبعاث الارادة وانجزامها عليها. ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة فكذلك أنت تضيف أفعال العباد الى ارادتهم ومعرفتهم وقدرتهم إذ ليس يمتد نظرك الى القلم الذي ينسطر المعرفة به في الواح القلوب،ومنه الى الاصابع التي تنتهي الى قلوب العباد، ومنها الى اليد التي بها خمرت طينة آدم ، ومنها الى القدرة التي بها تتحرك اليد لتخمير الطينة ، ومنها الى القادر الذي منه يبدو واليه يعود ، وذلك لانك لا تعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله خلق آدم على صورته) ولا معنى قوله تعالى خمرتُ طينة آدم بيدي ،ولا معنى قوله تعالى ﴿ علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم كلا إن الانسان ليطغى﴾ ،فانك لا تعلم قلما إلا من قصب ولا يداً ولا أصابع إلا من لحوم وعظام ولا صورة

إلا للالوان والاشكال . فان انكشف لك ذلك علمت أنك «اذا رميت مارميت ولكن الله رمى» حيث ساط عليك دواعي جازمة ومعرفة حاكمة على القطع بأن نجاتك في الرمي مثلا حتى انبعثت القدرة التي انفرد بخلقها خادمة للارادة . والمعرفة خادمة بالتسخير والاضطرار علمت انك مضطر الى عين الاختيار فتفعل ان شئت ذلك وتشاء اذا شاء الله شئت أم أبيت . وهذا الآن فيه سر يحرك قاعدة الجبر والاختيار ويوهم تناقض التوحيد وتكليف الشرع ، وقد شرحناه في كتاب التوحيد والتوكل والشكر من كتب الاحياء . فاطلبه منه إن كنت من أهله *

فصل

لا يكفى الايمان بتوحيد الفعل والذات في اثارة حالة التوكل حتى ينضاف اليه الايمان بالرحمة والجود والحكمة إذ به تحصل الثقة بالوكيل الحق وهو أن يعتقد جزما أو ينكشف لك بالبصيرة ان الله تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم بل على أكمل ما يتصور أن يكون عليه حال العقل ، ثم زادهم اضعاف ذلك علما وحكمة ثم كشف لهم عواقب الامور واطلعهم على أسرار الملكوت ولطائف الحكمة ودقائق الخير والشر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك

والملكوت لما دبروه بأحسن مما هو عليه ولم يمكنهم أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه جناح بعوضة ولم يستصوبوا البتة دفع مرض وعيب ونقص وفقر وضر وجهل وكفر ولا أن يغيروا قسمة الله تعالى من رزق وأجل وقدرة وعجز وطاعة ومعصية بل شاهدوا جميع ذلك عدلا محضاً لاجور فيه ، وحقاً صرفا لا نقص فيه ، واستقامة تامة لا قصور فيها ولا تفاوت بل كل ما يرون نقصاً فيرتبط به كمال آخر أعظم منه وما ظنوه ضرراً فتحته نفع أعظم منه لا يتوصل الى ذلك النفع إلا به ، وعلموا قطعا ان الله تعالى حكيم جواد رحيم لم يبخل على الخلق أصلا ولم يدخر في اصلاحهم أمراً وهذا الآن بحر آخر في المعرفة يحرك أمواجه سر القدر الذى منع من ذكره المكاشفون ، وتحير فيه الاكثرون ولا يعقله إلا العالمون. ولايدرك تأويله إلا الراسخون ، وأن حظ العوام ان يعتقدوا أن كل ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما يخطئهم لم يكن ليصيبهم وأن ذلك واجب الحصول بحكم المشية الازلية وانه لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ *

﴿ الركن الثانى ﴾ حال التوكل ومعناه أن تكل أمرك الى الله عزوجل ويثق به قلبك وتطمئن بالتفويض اليه نفسك ولا

تلتفت الى غير الله أصلا ، ويكون مثالك مثال من وكل في خصومته القاضى من علم أنه أشفق الناس عليه وأقواهم في كشف الباطل واعرفهم به وأحرصهم عليه فانه يكون ساكنا في بيته مطمئن القلب غير متفكر في كل الخصومة غير مستعين بآحاد الناس لعلمه بأن وكيله حسبه وكافيه في غرضه وانه لا يقاومه غيره . فمن تحققت معرفته بأن الرزق والاجل والخلق والامر بيد الله تعالى وهو منفرد به لاشريك له وأن وجوده وحكمته ورحمته لا نهاية لها ولا يوازيها رحمة غيره وجوده اتكل قلبه بالضرورة عليه وانقطع نظره عن غيره فان لم ينقطع فلا يكون ذلك إلا لاحد أمرين

﴿ أحدهما ﴾ ضعف اليقين بما ذكرناه . وضعف اليقين انما يكون لتطرق شك اليه أو لعدم استيلائه على القلب . فان الموت يقين لاشك فيه ولكنه إذ لايستولي على القلب فهو كشك لايقين فيه

﴿ الامر الثانى ﴾ أن يكون القلب في الفطرة جبانا ضعيفا . فالجبن والجراءة فطرتان والجبن يوجب كون النفس مطيعة لاوهام لاشك فى بطلانها حتى قد يخاف الانسان أن يبيت مع الميت في فراش أو في بيت مع علمه بأن الله لايحييه وان قدرته عليه كقدرته على أن يقلب في يده العصا حية وهو لايخاف ذلك بل قد يشبه

العسل بالعذرة فيتعذر عليه تناوله مع علمه بأنه تشبيه كاذب . وذلك لخور النفس وطاعة الاوهام . فكما لايخلو الانسان عن شيء منه وان ضعف فكذلك لايبعـــد أن يحصل اليقين بالتوحيد بحيث لايخالجه ريب ومع ذلك فيفرغ القلب الى الاسباب *

فصل

اذا عرفت أن التوكل عبارة عن حالة القلب في الثقة بالوكيل الحق وقطع الالتفات الى غيره ﴿ فاعلم ﴾ ان فيه ثلاث درجات : (احداها) ماذكرناه وهو كالثقة بالوكيل في الخصومة بعد اعتقاد كماله في الهداية والقدرة والشفقة (الثانية) وهي أقوى منها تضاهي حالة الصبي في ثقته بأمه وفزعه اليها في كل مايصيبه وذلك لثقتـه بشفقتها وكفالتها ولكنه فى توكله فان عن توكله فانه ليس يحصله بفكر وكسب وان كان لايخلو توكله عن نوع ادراك . وأما التوكل على الوكيل بالخصومة فكالمكتسب بالفكر والنظر (والثالثة) وهي الاعلى أن يكون بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل لا كالصبي فانه يزعق بأمه ويتعلق بذيلها بل هذا كالصبي علم انه وإن لم يزعق بأمه فانها تطلبه وإن لم يتعلق بذيلها فهى تحمله وإن لم يسألها اللبن فهي تبتدىء بارضاعه فيكون هذا الشخص في حق

الله عز وجل ساقط الاختيار لعلمه بأنه مجري القدر فلايبقى فيه متسع لغير الانتظار لما يجري عليه . وهذا المقام يأبى الدعاء والسؤال ولايمتنع الدعاء في المقام الثاني والاول . ويمتنع التدبير في المقام الاخير ويمتنع في الثانى أيضا إلا فى التعلق بالوكيل فقط . وفي الاول يمتنع التدبير بالتعلق بغيره ولايمتنع بالطريق الذى رسمه الوكيل وسنه له وامره به *

﴿ الركن الثالث في الاعمال ﴾

وقد يظن الجهال ان شرط التوكل ترك الكسب وترك التداوى والاستسلام للمهلكات — وذلك خطأ لان ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثني على التوكل وندب اليه فكيف ينال ذلك بمحظوره . وتحقيقه ان سعي العبد لايعدو أربعة أوجه وهو جلب ماليس بموجود من المنفعة أو حفظ الموجود أو دفع الضرر كيلا يحصل أو قطعه كى يزول (الاول) جلب النافع وأسبابه ثلاثة : إما مقطوع به وإما مظنون ظنا غالبا ظاهراً يوثق به أو موهوم . أما المقطوع به فمثاله أن لاتمتد اليد الى الطعام وهو جائع ويقول هذا سعي وأنا متوكل أو يريد الولد ولايواقع أهله أو يريد الزرع ولايبث البذر — وهذا جهل لان سنة الله تعالى لاتتغير . وقد عرفك ان ارتباط هذه المسببات بهذه الاسباب من السنة التى لاتجد لها تبديلا . وانما

التوكل فيه بأمرين (أحدهما) أن تعلم أن اليد والطعام والبذر وقدرة التناول وجميع ذلك من قدرة الله تعالى (والثانى) أن لا يتكل عليها بقلبه بل على خالقها وكيف يتكل على اليد ، وربما يفلج فى الحال أو يهلك الطعام ، وذلك تحقيق قولك لاحول ولاقوة إلا بالله . فالحول هى الحركه . والقوة هى القدرة . فاذا كان هذا حالك فأنت متوكل وان سعيت . وأما المظنون فكاستصحاب الزاد في البوادى والاسفار فليس تركه شرطاً في التوكل بل هي سنة الاولين بل يكون الاعتماد على فضل الله بدفع السراق وابقاء الزاد والحياة والقدرة على التناول. وأما الموهومات فكالاستقصاء فى حيل المعيشة واستنباط دقائق الامور فيها . وذلك ثمرة الحرص . وقد يحمل على أخذ الشبهة فكل ذلك يناقض التوكل . والدليل عليه ان النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتنون[1] ولا يسترقون ولم يصفهم بأنهم لا يسكنون الامصار . ولا يكتسبون فما نسبته الى السبب كنسبة الرقية والكي فتركها من شروط التوكل

﴿ الفن الثاني ﴾ من تدبير الاسباب الادخار ، فالمتوكل اذا ورث مالا وادخر لسنة فما فوقها أبطل توكله وان قنع بقوت يومه وفرق الباقى فهو تمام التوكل. وان ادخر لاربعين يوماً قال سهل

(١) وفي النسخة النورية « لا يكتوون »

التستري بطل توكله ولا ينال المقام المحمود الذي وعد للمتوكلين . وقال الخواص لا يبطل . واتفقوا على أن الزيادة عليه تبطل التوكل إلا اذا كان معيلا فله أن يدخر قوت عياله لسنة كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق عياله وفي حق نفسه كان لا يدخر من غدائه لعشائه ولا شك أن طول الامل يناقض التوكل ، ومهما قلت مدة الادخار كانت الرتبة أعظم . ولكن سنة الله تعالى جارية بتكرر الارزاق عند تكرار السنة .فالادخار لاكثر من سنة غاية الضعف وليس من التوكل فى شيء .

فأما ادخار الكوز وأثاث البيت فذلك جائز لان سنة الله تعالى لم تجر بتكررها كتكرر الارزاق ويحتاج اليها في كل وقت وليس كثوب الشتاء فانه لا يحتاج اليه في الصيف وادخاره على خلاف التوكل قال النبي صلى الله عليه وسلم فى فقير دفن أنه يحشر يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كان كالشمس الضاحية كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه*

﴿ الفن الثالث ﴾ في مباشرة الاسباب الدافعة كالفرار من السبع ومن الجدار المائل ومجرى السيل ودفع الامراض بالادوية وذلك أيضاً له درجات فاستنبطها بالقياس الى ما ذكرناه وقد فسرناه في الاحياء *

فصل

اعلم أن ترك الادخار محمود لمن غلب يقينه وقوي قلبه وأما الضعيف الذى يضطرب قلبه لو لم يدخر لم يتفرغ للعبادة فالافضل له ان يدع طريق المتوكلين ولا يحمل نفسه مالا يطيقه إذ فساد ذلك فى حقه اكثر من صلاحه بل يعالج كل واحد على حسب حاله وقوته ، وقد تنتهى القوة الى ان يجوز السفر في البوادى من غير زاد وذلك لمن يصبر عن الطعام اسبوعا ويقنع بالحشيش فان ذلك لا يعوزه غالباً في البادية فأما الضعيف اذا فعل ذلك فهو عاص ملق نفسه فى التهلكة والقوى ان حبس نفسه في كهف جبل ليس فيه حشيش ولايجتاز به إنسان فذلك أيضا حرام لانه خالف سنة الله تعالى فى خلقه وإنما جاز له ذلك في البوادى لان سنة الله جارية بأنها لا تخلو عن الحشيش وقد يجتاز بها الآدميون فاذا قوى كان هلاكه نادراً فلم يكن بذلك عاصياً فله أن يسافر في البادية متكلا على لطيف صنع الله تعالى وغير قاصر التفاته على الاسباب الجلية الواضحة *

الأصل الثامن في المحبة

قال الله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال ﴿ إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله ﴾ الآية وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما) وقال عليه السلام (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله عز وجل) ، وقال أبو بكر رضي الله عنه من ذاق خالص محبة الله عز وجل منعه ذلك من طلب الدنيا وأوحشه من جميع البشر ، وقال الحسن البصري رحمة الله عليه من عرف الله تعالى أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل واذا تفكر حزن *

فصل

﴿ اعلم ﴾ أن أكثر المتكلمين أنكروا محبة الله تعالى وأولوها ، وقالوا لا معنى لها الا الامتثال لاوامره والافما لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا ولا يناسب طباعا فكيف نحبه وانما يتصور منا أن نحب من

هو من جنسنا وهؤلاء محرومون بجهلهم لحقائق الامور وقد كشف الغطاء عن هذا في كتاب المحبة من كتب الاحياء فطالعها لتصادف منها أسراراً تخلو الكتب عنها ، فاقنع في هذا المختصر بتلويحات واشارات ٥

فصل

اعلم أن كل لذيذ محبوب ومعنى كونه محبوبا ميل النفس اليه فان قوى الميل سمى عشقا ، ومعنى كونه مبغوضا نفرة النفس عنه لكونه مؤلما ، فان قوى البغض والنفرة سمي مقتا *

واعلم ان الاشياء التى تدركها بحواسك وجميع مشاعرك إما أن تكون موافقة لك ملائمة وهو اللذيذ أو تكون منافية مخالفة وهو المؤلم او لاموافقة ولامخالفة وهو الذي لاألم فيها ولالذة . وكل لذيذ محبوب أي للنفس الملتذة به ميل لامحالة اليه.

واعلم ان اللذة تتبع الادراك والادراك ادرا كان ظاهر وباطن أما الظاهر فبالحواس الخمس فلاجرم لذة العين في الصور الجميلة . ولذة الاذن في النغمات الموزونة الطيبـــة . ولذة الذوق والشم فى الطعوم والروائح الملائمة الموافقة. ولذة جملة البدن في ملابسة الناعم اللين . وجملة ذلك محبوبة للنفس أى للنفس ميل اليها . وأما الادراك

الباطن فهو اللطيفة التي محلها القلب تارة يعبر عنها بالعقل وتارة بالنور وتارة بالحس السادس . ولا تنظر الى العبارات فتغلط بل قال النبي صلى الله عليه وسلم (حبب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة) فتعلم ان الطيب والنساء فيهما حظ الشم واللمس والبصر . والصلاة لاحظ فيها للحواس الخمس بل للادراك السادس الذي محله القلب ولا يدركها من لاقلب له وان الله يحول بين المرء وقلبه . ومن اقتصر من لذته على الحواس الخمس فهو بهيمة لان البهيمة تشاركه فيها . وانما خاصية الانسان التمييز بالبصيره الباطنة . ولذة البصر الظاهر في الصور الجميلة الظاهرة . ولذة البصيرة الباطنة في الصور الجميلة الباطنة ه

فصل

لعلك تقول مامعنى الصور الجميلة الباطنة (فأقول) ماعندى انك لاتحس من نفسك حب الانبياء والعلماء والصحابة ولا تدرك من نفسك تفرقة بين الملك العادل العالم الشجاع الكريم العطوف على الخلق وبين الظالم الجاهل البخيل الفظ الغليظ وماعندى انك اذا حكى لك صدق أبي بكر وسياسة عمر وسخاوة عثمان وشجاعة علي رضوان الله عليهم لاتجد في نفسك هزة وارتياحاً وميلا الى

هؤلاء والى كل موصوف بخلال الكمال من نبي وصديق وعالم .
وكيف تنكر هذا وفي الناس من يفتدى بنفسه أرباب المذاهب ويحمله حبه لهم على البذل بالمال والنفس في الذب عنهم وتجاوز ذلك حد العشق وأنت تعلم ان حبك لهؤلاء ليس لصورهم الظاهرة فانك لم تشاهدها ولو شاهدتها ربما لم تستحسنها وان استحسنت .
فلو تشوهت صورهم الظاهرة وبقيت صفاتهم المعنوية الباطنة لبقي حبهم واذا فتشت عن محبوبك منهم رجع بعد التفصيل الطويل الذي لايحتمله هذا الكتاب الى ثلاث صفات (العلم والقـــدرة والنزاهة عن العيوب)

أما العلم فكعلمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وعجائب ملكوته ودقائق شريعة أنبيائه .

وأما القدرة فكقدرتهم على انفسهم بكسر شهوتها وحملها على الصراط المستقيم وقدرتهم على العبادة بسياستهم وارشادهم الى الحق

وأما النزاهة فكسلامة باطنهم من عيب الجهل والبخل والحسد وخبائث الاخلاق واجتماع كمال العلم والقدرة مع حسن الاخلاق وهو حسن الباطن وهي الصورة الباطنة التي لاتدركها البهيمة ومن في مثل حالها بالبصر الظاهر . ثم اذا أحببت هؤلاء بهذه الصفات وعلمت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان أجمع منهم لهذه الخصال

كان حبك له أشد بالضرورة فارتفع نظرك الآن من النبي الى مرسل النبي وخالقه والمتفضل على الخلق ببعثه لتعلم ان بعثة الانبياء حسنة من حسناته . ثم انسب قدرة الانبياء وعلمهم وطهارتهم الى علم الله سبحانه وقدرته وقدسه لتعلم انه لاقدوس سوى الواحد الحق وان غيره لايخلو من عيب ونقص بل العبودية أعظم أنواع النقص فأى كمال لمن لاقوام له بنفسه ولايملك لنفسه موتا ولاحياة ولارزقا ولاأجلا ، وأى علم لمن يشكل عليه صفات باطنه فى مرضه وصحته بل لايعلم جميع جوارحه الباطنة وتفصيلها وحكمها بالتحقيق فضــلا عن ملكوت السموات والارض . وانسب هذا الى العلم الازلى المحيط بجميع الموجودات ومعلومات لانهاية لها الذي لايعزب عنــه مثقال ذرة فى السموات ولافى الارض والى قدرة خالق السموات والارض الذي لايخرج موجود عن قبضة قدرته في وجوده وبقائه وعدمه . وانسب نزاهته من العيوب الى قدسه لتعلم انه لاقدس ولاقدرة ولاعلم إلا للواحد الحق . وانما لغيره القدرة التى أعطاه ﴿ ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾

فانظر الآن هل يمكنك أن تنكر ان هذه الصفات والمحامد محبوبة أو تنكر ان الموصوف بكمال الجلال هوالله تعالى وانظر كيف تنكر حبه بعد ذلك *

فصل

ان قصرت بصيرتك عن إدراك الجلال والكمال والميل الى مطالعته والفرح به والعشق له . فلا تقصر عن الميـل الى المنعم المحسن اليك ، ولا تكونن أقل من الكلب فانه يحب صاحبه الذى يحسن اليه . وتأمل هذا في العالم هل لاحد إحسان اليك سوى الله تعالى وهل لك حظ ولذة وتنعم في شيء وحرص على نعمة إلا والله سبحانه خالقها ومبديها ومبقيها وخالق الشهوة اليها والتلذذ بها . وتفكر في أعضائك ولطف صنع الله تعالى بك فيها لتحبه باحسانه اليك فتكون من عوام الخلق ان لم تقدر أن تحبه لجماله وجلاله وكماله كما تحبه الملائكة لذلك وامتثال قوله عليه السلام (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله) وعند هذا تكون كالعبـد السوء يحب ويعمـل للاجرة والنفقة فلاجرم يزيد حبك وينقص بزيادة الاحسان ونقصانه — وذلك ضعيف جداً بل الكامل من يحب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته التي لايتصور أن يشارك فيها ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام أن أود الاوداء إليّ من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفي الزبور من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار لو لم أكن أخلق جنة ولانارا ألم أكن

أهلا ان اطاع واعبد . ومر عيسى عليه السلام بطائفة من العباد وقد تخلوا للعبادة . وقالوا نخاف النار ونرجو الجنة . فقال « مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم » ومر بقوم آخر كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظما لجلاله . فقال أنتم اولياء الله حقا ومعكم امرت ان اقيم ٥

فصل

العارف لايحب إلا الله تعالى فان أحب غيره فيحبه لله عز وجل إذ قد يحب المحب عبدالمحبوب وأقاربه وبلده وثيابه وضيعته وتصنيفه وكل ماهو منه واليه نسبته . وكل مافي الوجود صنع الله عز وجل وتصنيفه . وكل الخلق عباد الله تعالى فان أحب الرسول أحبه لانه رسول محبوبه وحبيبه وان أحب الصحابة فلانهم محبوا رسوله محبوبه ولانهم محبوه وعبيده المواظبون على طاعته . وإن أحب طعاماً فلأنه يقوي مركبه الذى به يصل الى محبوبه أعنى البدن. وإن أحب الدنيا فلانها زاده الى محبوبه وان أحب النظر الى الازهار والانهار والانوار والصور الجميلة فلانها صنعة محبوبه وهي دلالات على جماله وجلاله ومذكرات لصفات المحامد التي هي المحبوبة في ذاتها وان أحب المحسن اليه والمعلم إياه علوم الدين فيحبه لانه واسطة بينه وبين محبوبه في إيصال علمه وحكمه اليه ويعلم انه الذي قيضه

لتعليمه وارشاده والانفاق عليه من ماله وانه لولا تسليط الدواعي اليه واضطراره بسلسلة البواعث والاغراض الى ارشاده والانفاق عليه لما فعله . وأعظم الخلق احساناً علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولله المنة والفضل بخلقه وبعثه كما قال ﴿ هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ فما الرسول الا عبد مسخر مبعوث محمول على تبليغ الرسالة بالاضطرار — ولذلك قال الله تعالى ﴿ انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ وتأمل سورة الفتح وقوله تعالى ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً ﴾ فقد أنزله منزلة النظارة وقال اذا رأيت عباد الله يدخلون في دين الله فقل بحمد الله لابحمدى وهو معنى التسبيح بحمد ربه . فان التفت قلبك الى نفسك وسعيك فاستغفره ليتوب عليك .

﴿ واعلم ﴾ أنه ليس لك من الامر شيء . ومن ههنا نظر عمر رضى الله عنه حيث وصل كتاب خالد بعد فتح فتحه[1] من خالد سيف الله المسلول على المشركين الى أبى بكر أمير المؤمنين . فقال

---

(١) وفي نسخة «بعد فتح مكة» وفي هامش النسخة النورية «بعد فتح اليمامة»

ان نصر الله المسلمين نظر خالد الى تلقيب نفسه وتسميتها سيفاً مسلولا على المشركين . ولو لا حظ الحق كما هو اعلم ان ذلك ليس بسيفه ولكن لله تعالى سر في ارادته بنصرة الاسلام فينصره بخطرة واحدة وهو خاطر رعب يلقيه فى قلب كافر فينهزم ، وينظر اليه غيره فينهزم وتعم الهزيمة فينظر خالد ومن هو فى مثل حاله انه أعلى كلمة الاسلام بصرامته وحدة سيفه . ويطلع عمر رضى الله عنه ومن هو فى مثل حاله من الصديقين والاولياء على حقيقة الحال ويعلم حاجة خالد الى الاستغفار وان يسبح بحمد ربه اذا رأى ذلك كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا لا موجب للمحبة الا أمران ﴿ أحدهما ﴾ الاحسان ﴿ والآخر ﴾ غاية الجلال والجمال بكمال الجود والحكمة والعلو والقدرة والتقديس من العيب والنقص ولا إحسان إلا منه ولا جلال ولا جمال ولا قدس الا له . فكل ما في العالم من حسن وإحسان فهو حسنة من حسنات جوده . يسوقها الى عباده بخطرة واحدة يخلقها فى قلب المحسن وكل ما فى العالم من صورة مليحة وهيئة جميلة تدرك بعين أو سمع أو شم فأثر من آثار قدرته التى هي بعض معانى جماله وجلاله . فليت شعرى لمن عرف بالمشاهدة المحققة والبرهان القاطع جميع هذا كيف يتصور أن يلتفت الى غير الله تعالى او يحب غير الله عز وجل ٥

فصل

إعلم ان لذة كل عين النظر ولذة العارف في الدنيا من مطالعة جمال الحضرة الربوبية اذهى اعظم من كل لذه يتصور ان يكون في الدنيا سواها وذلك لان اللذة على قدر الشهوة . وقوة الشهوة على قدر الملائمة والموافقة مع المشتهى . وكما أن اوفق الاشياء للابدان الاغذية فأوفق الاشياء للقلوب المعرفة . فالمعرفة غذاء القلب وأعنى بالقلب الروح الربانى الذى قال الله تعالى فيه ﴿ قل الروح من امر ربي ﴾ وقال تعالى ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ فأضافه الى نفسه ، وهذا الروح لا يكون للبهائم ولمن هو في مثل حالها من الانس بل يختص به الانبياء والاولياء — ولذلك قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ فالمعرفة أوفق الاشياء لهذه الروح لان الاوفق لكل شيء خاصيته فالصوت الطيب لا يوافق البصر لانه ليس من خاصيته . وخاصية روح الانسان معرفة الحقائق وكلما كان المعلوم أشرف كان العلم به ألذ ، ولا أشرف من الله تعالى ولا أجل منه . فمعرفته ومعرفة صفاته وذاته وعجائب ملكه وملكوته ألذ الاشياء عند القلب لان شهوة

ذلك أشد الشهوات — ولذلك تخلق آخراً بعد سائر الشهوات ، وكل شهوة تأخرت فهي أقوى مما قبلها . فأول ما يخلق شهوة الطعام. ثم يخلق له شهوة الوقاع فيترك شهوة الطعام لاجله ويستحقر فيه . ثم يخلق له شهوة الرياسة والجاه والغلبة، ويستحقر فيها شهوة المنكح والمطعم ثم يخلق له شهوة المعرفة التى هي استيلاء على كل الموجودات فيستحقر فيها الجاه والرياسة وهي آخر شهوات الدنيا وأقواها. وكما أن الصبي ينكر شهوة الوقاع ويتعجب ممن يتحمل مؤنة النكاح لاجلها ، فاذا بلغ شهوة الوقاع أكب عليها وأنكر شهوة الجاه والرياسة ولم يبال بفواتها في قضاء شهوة الفرج — فكذلك المشغوف بشهوة الجاه والرياسة ينكر لذة المعرفة إذ لم يخلق فيه بعد شهوتها . وقد تنتهي شهوة شرهه على الجاه الى مرض قلبه حتى لا يقبل شهوة معرفة الله عز وجل أصلا كما يفسد مزاج المريض فتسقط شهوته للغذاء حتى يموت . وقد ينعكس طبعه فيشتهي الطين والاشياء المضرة المهلكة وهي مقدمات الموت — فكذلك مرض القلب قد ينتهي الى حد ينكر المعرفة ويبغضها ويبغض أهلها والمقبلين عليها ولا يدرك إلا لذة الرياسة أو المطعم والمنكح . وذلك هو الميت الذى لا يقبل العلاج وفى مثله قيل ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن

يهتدوا اذاً أبداً ﴾ وفيهم قيل ﴿ أموات غير أحيـاء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ *

فصـــل

هذه المعرفة وان عظمت لذتها فلا نسبة لها الى لذة النظر الى وجه الله الكريم في الدار الآخرة — وذلك لا يتصور في الدنيا لسر لا يمكن الآن كشفه ولا ينبغي أن تفهم من النظر ما يفهمه العوام والمتكلمون فيحتاج فى تقديره الى جهة ومقابلة — فذلك من نظر من اقعده القصور في بحبوحة عالم الشهادة حتى لم يجاوز المحسوسات التى هى مدركات البهائم لكن ينبغي أن تفهم ان الحضرة الربوبية تنطبع صورتها وترتيبها العجيب على ما هو عليه من البهاء والعظمة والجلال والمجد في قلب العارف كما ينطبع مثلا صورة العالم المحسوس في حواسك فكأنك تنظر اليه وان غمضت عينيك . فان فتحت العين ووجدت الصورة المبصرة مثل الصورة المتخيلة قبل فتح العين لا تخالفها في شيء إلا ان الابصار فى غاية الوضوح بالنسبة الى التخيل — وكذلك ينبغي أن تعلم ان فى إدراك ما لا يدخل فى الخيال والحس أيضاً فى درجتين متفاوتتين فى الوضوح غاية التفاوت، ونسبة الثانية الى الاولى كنسبة الابصار

الى التخيل فتكون الثانية غاية الكشف فيسمى لذلك مشاهدة ورؤية،
الرؤية لم تسم رؤية لانها في العين إذ لو خلقت فى الجبهة لكانت
رؤية بل لانها غاية الكشف وكما ان تغميض الاجفان حجاب من
غاية الكشف في المبصرات فكدورة الشهوات وشواغل هـذا
القالب المظلم حجاب عن غاية المشاهدة . ولذلك قال الله تعالى
﴿ لن ترانى ﴾ وقال تعالى ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ فاذا ارتفع هذا
الحجاب بعـد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهـدة . ويكون
مشاهدة كل واحـد على قدر معرفته — ولذلك تزيد لذة أولياء
الله سبحانه في النظر على لذة غيرهم ويتجلى الله تعـالى لابى بكر
رضى الله عنه خاصة ويتجلى للنـاس عامة ، وكذلك لا يراه إلا
العارفون لان المعرفة بدء النظر بل هي التي تنقلب مشاهدة كما ينقلب
التخيل ابصاراً . فلذلك لا يقتضى مقابلة وجهة . وسر هذا طويل
فاطلبه من كتاب المحبة في الاحياء ٥

فصل

لو كان معشوقك وأنت تراه من وراء ستر رقيق فى وقت
الاسفار وفي حالة ضعف الضوء وفي حالة اجتمع عليك تحت ثوبك
عقارب وزنابير تلدغك وتشغلك فلا يخفى أن لذتك من مشاهدة

معشوقك تضعف فلو أشرقت الشمس دفعة فارتفع الستر الرقيق وانصرفت عنك العقارب والزنابير وهجم عليك العشق المفرط البليغ فلا نسبة لهذه اللذة العظيمة التي تحصل الآن الى ما كان قبل ذلك — وكذلك فافهم انه لا نسبة للذة النظر الى لذة المعرفة بل هي أعظم منها كثيراً ، والستر الرقيق قالبك ، والعقارب شواغل الدنيا وغمومها وشهواتها ، وهجوم العشق شدة الشهوة لانقطاع المضعفات والمنغصات عنها . واشراق الشمس هو استعداد حدقة القلب لاحتمال تمام التجلى فانها في هذه الحياة لا يحتمل بصر الخفاش نور الشمس ❊

فصل

إنما ضعفت شهوة معرفة الله تعالى لزحمة سائر الشهوات وإنما خفيت معرفة الله تعالى مع جلائها لشدة ظهورها ، ومثاله انك تعلم ان أظهر الاشياء المحسوسات ، ومنها المبصرات . ومنها النور الذي به يظهر لك الاشياء . ثم لو كانت الشمس دائمة لا تغيب ولا يقع لها ظل لكنت لا تعرف وجود النور وكنت تنظر الى الالوان فلا ترى إلا الحمرة والسواد والبياض . فأما النور فلا تدركه إلا بأن تغيب الشمس أو يقع لها حجاب بما له ظل فتدرك باختلاف الاحوال

بين الظلمة والضياء ان النور شيء آخر يعرض للالوان فتصير مبصرة ولو تصور لله سبحانه غيبة او لانوار قدرته حجاب عن بعض الاشياء لادركت من التفاوت ما يضطر معه الى المعرفة ولكن الموجودات كلها لما تساوت في الشهادة لخالقها بالوحدانية من غير تفاوت خفي الامر لشدة جلائه . ولو تصور انقطاع انوار قدرته عن السموات والارض لانهدمت وانمحقت وادرك في الحال من التفاوت ما يضطر الى المعرفة بالقدرة والقادر . وهذا مثال ماذكرناه وتحته اسرار ، وفيه مواقع غلط . فاجتهد لعلك تقف على اسراره ولا ترتبك في مواقع غلطه . فمنه غلط من قال انه في كل مكان وكل من نسبه الى مكان او جهة فقد زل فضلاً ورجع غاية نظره الى التصرف في محسوسات البهائم ولم يجاوز الاجسام وعلائقها ، وأول درجات الايمان مجاوزتها فبه يصير الانسان إنساناً فضلاً عن ان يصير مؤمناً ه

فصل

اعلم أن للمحبة علامات كثيرة يطول إحصاؤها ومن علاماتها تقديم أوامر الله تعالى على هوى النفس والتوقي بالورع ورعاية حدود الشرع . ومن علاماتها الشوق الى لقاء الله والخلو عن

كراهيـــة الموت إلا من حيث يتشوق الى زيادة المعرفة فان لذة المشاهدة بقدر كمال المعرفة فانها بدء المشاهدة فتختلف لامحـــالة باختلافها . ومن علاماتها الرضاء بالقضاء بمواقع قدر الله عز وجل فلنذكر معنى الرضاء حتى لايغتر الانسان بما يصادف في نفسه من خطرات تخطر فيظن انها حقيقة الحب لله تعالى فان ذلك عزيز جداً .

الأصل التاسع في الرضاء بالقضاء

قال الله تعالى ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم (اذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتباه وإن رضى اصطفاه) وقال عليه السلام (اعبد الله تعالى بالرضاء فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير) وقال عليه السلام لطائفـــة (ما أنتم) فقالوا مؤمنون فقال (وماعلامة إيمانكم) فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عنـد الرخاء ونرضى بمواقع القضاء . فقـال (مؤمنون ورب الكعبة) وفي رواية انه قال (حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) ومما أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام مالاوليائي والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ان محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لايغتمون .

وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (انا الله لا إله إلا انا فمن لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليطلب ربا سواى) . وقال عليه السلام (قال الله تعالى خلقت الخير وخلقت له اهلا . وخلقت الشر وخلقت له أهلا فطوبى لمن خلقته للخير ويسرته على يديه . وويل لمن خلقته للشر ويسرت الشر على يديه . وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف) وأوحى الله سبحانه الى داود عليه السلام ياداود تريد واريد وانما يكون ما اريد فان سلمت لما اريد كفيتك ماتريد وإن لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لايكون إلا ما اريد ٭

فصل

قد انكر الرضا جماعة . وقالوا لايتصور الرضاء بما يخالف الهوى وانما يتصور الصبر فقط وانما اوتوا من انكار المحبة ونحن نحققها وعلامتها الرضاء بالبلاء وبما يخالف الطبع والهوى وذلك يتصور من ثلاثة اوجه :

(احدها) ان يدهشه مشاهدة الحب وافراطها عن الاحساس بالألم وذلك مشاهد فى حب المخلوقين وفي غلبة الشهوة والغضب حتى ان الغضبان تصيبه الجراحة فلايحس بها في الوقت وحتى ان الحريص

تصيبه شوكة في رجله فلا يحس بها . ثم اذا سكن غضبه وظفر بمراده عظم المه . واذا تصور ان ينغمر الم يسير بحب يسير تصور أن ينغمر الم كثير بحب قوي بالغ فان كل واحد من الحب والالم يقبل الزيادة والشدة ومهما تصور مثل هذا في عشق يرجع الى الميل الى صورة مركبة من لحم ودم مشحونة بالاقذار والخبائث . وانما يدرك بعين ظاهرة يغلب الغلط عليها حتى ترى الكبير صغيرا والبعيد قريباً والقبيح جميلا فكيف لايتصور بالادراك جمال الحضرة الربوبية والجلال الازلي الابدي الذى لايتصور انقطاعه ونقصانه المدرك بالبصيرة الباطنة التى هي أصدق وأوضح عند اهلها من البصر الظاهر . ومن هذا الاصل قال الجنيد رحمه الله قلت لسرى السقطي رحمه الله هل يجد المحب الم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال لا وان ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة .

وقال بعضهم احببت كل شيء لحبه حتى لو احب النار احببت الدخول في النار . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله مابقي لى فرح إلا في موقع قدر الله تعالى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام فقيل له لو سألت الله تعالى ان يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى اشد علي من ذهاب ولدى .

(الوجه الثانى) من الرضا أن يحس بالالم ويكرهه بالطبع ولكن يرضى به بعقله وإيمانه لمعرفته بجزالة الثواب على البلاء كما يرضى المريض بألم الفصد وشرب الدواء لعلمه بأنه سبب الشفاء حتى انه ليفرح بمن يهدى اليه الدواء وإن كان بشعا ، وكذلك يرضى التاجر بمشقة السفر وهو خلاف طبعه ، وهذا أيضا يشاهد مثله في الاغراض الدنيوية فكيف ينكر في السعادة الاخروية .

وروى ان امرأة فتح الموصلى الانصارى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين ألم الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه فاذاً من أيقن ان ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه لم يبعد ان يرضى به .

(الوجه الثالث) ان تعتقد ان لله تعالى تحت كل اعجوبة لطيفة بل لطائف — وذلك يخرج عن قلبه الاعتراض بلم وكيف حتى لايتعجب مما يجرى على العالم مما يظنه الجاهل تشويشا واضطرابا وميلا عن الاستقامة ويعلم ان تعجبه كتعجب موسى من الخضر عليه السلام لما خرق سفينة الايتام وقتل الغلام وأعاد بناء الجدار كما في سورة الكهف ، فلما كشف الخضر عن السر الذى اطلع عليه سقط تعجبه وكان تعجبه بناء على ما اخفي عنه من تلك الاسرار وكذلك افعال الله تعالى مثاله ما حكى عن رجل من الراضين انه

كان يقول في كل ما يصيبه (الخيرة فيما قدره الله تعالى) وكان في بادية ومعه اهله وليس له الا حمار يحمل عليه خباءه وكلب يحرسهم وديك يوقظهم ، فجاء ثعلب واخذ الديك فحزن اهله فقال خيرة وجاء ذئب وقتل الحمار فحزن اهله فقال خيرة ، ثم اصيب الكلب فمات فقال خيرة فتعجب اهله من ذلك حتى اصبحوا وقد سبي من حولهم واسترق اولادهم وكان قد عرف مكانهم بصوت الديك ومكان بعضهم بنبح الكلب ومكان بعضهم بنهيق الحمار ، فقال قد رأيتم ان الخيرة فيما قدره الله سبحانه فلو لم يهلكهم الله عز وجل لهلكتم وهلكنا .

وروى ان نبياً كان يتعبد في جبل وكان بالقرب منه عين فاجتاز بها فارس وشرب ونسي عندها صرة فيها الف دينار وجاء آخر فأخذ الصرة ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب فشرب واستلقى ليستريح فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير فطالبه وعذبه فلم يجد عنده فقتله . فقال النبي إلهي ماهذا ؟ الذى اخذ الصرة ظالم آخر وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله فأوحى الله تعالى اليه اشتغل بعبادتك فليس معرفة أسرار الملك من شأنك ان هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص ، وان أبا الفارس كان قد اخذ الف دينار من مال آخذ الصرة فرددته اليه من تركته .

فمن ايقن بأمثال هذه الاسرار لم يتعجب من افعال الله تعالى وتعجب من جهل نفسه ولم يقل لم وكيف فرضي بما دبره الله في ملكوته . وههنا وجوه اربع تتشعب عن محض المعرفة بكمال الجود والحكمة وبكيفية ترتيب الاسباب المتوجهة الى المسببات ومعرفة القضاء الاول الذى هو كلمح البصر ومعرفة القدر الذى هو سبب ظهور تفاصيل القضاء . وانها رتبت على أكمل الوجوه وأحسنها . وليس في الامكان أحسن منها وأكمل ولو كان وادخر لكان بخلا لاجوداً او عجزاً يناقض القدرة وينطوى تحت ذلك معرفة سر القدر — وكما ان من ايقن ذلك لم ينطو ضميره إلا على الرضا بكل مايجرى من الله. وشرح ذلك يطول ولارخصة فيه أيضاً فلنتجاوزه .

فصل

لعلك تقول كيف أجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى وبين بغض أهل الكفر والعصيان وقد تعبدت به شرعاً وذلك مراد الله تعالى فيهم.

فاعلم أن طائفة من الضعفاء ظنوا ان ترك الامر بالمعروف من جملة الرضا بالقضاء وسموه حسن الخلق وهو جهل محض بل عليك ان ترضى وان تكره جميعاً والرضا والكراهية يتضادان اذا

تواردا على شيء واحد من وجه واحد ولا يتناقض ان يقتل عدوك الذى هو عدو عدوك ايضا فترضاه من حيث انه عدوك وتكرهه من حيث انه عدو عدوك . فكذلك للمعصية وجهان وجه الى الله تعالى من حيث أنها بقضائه ومشيئته فهو من هذا الوجه مرضي به . ووجه الى العاصي من حيث أنه صفته وكسبه ،وعلامة كونه ممقوتا من الله تعالى فهو من هذا الوجه مكروه ، وقد تعبدك الله تعالى ببغض من يبغضه من المخالفين لامره فعليك بما تعبدك به والامتثال له ، ولو قال لك محبوبك إني أريد أن أمتحن حبك بأن أضرب عبدى وأرهقه الى أن يشتمنى فمن أبغضه فهو محبي ومن أحبه فهو عدوى فيمكنك أن تبغض عبده إذا شتمه مع انك تعلم انه الذى اضطره إلى الشتم وكان ذلك مراداً منه ، فيقول أما فعله فى الشتم فانى أرضى به من حيث أنه تدبيرك في عبدك ومرادك ممن اردت ابعاده ، وأما شتمه من حيث هو صفته وعلامة عداوته فانى ابغضه لانى احبك فابغض لا محالة من عليه علامة عداوتك وهذه دقيقة زل فيها الضعفاء فلذلك يتهافتون فيها *

فصل

كذلك ينبغي أن لا تظن أن معنى الرضا بالقضاء ترك الدعاء ولا ترك التداوى ولا ترك السهم الذي ارسل اليك حتى يصيبك

مع قدرتك على دفعه بالترس بل تعبدك الله عز وجل بالدعاء ليستخرج به من قلبك صفاء الذكر وخشوع القلب ورقته لتستعد به لقبول الالطاف والانوار فمن جملة الرضا بقضائه أن يتوصل إلى محبوباته بمباشرة ما جعله سببا له بل ترك الاسباب مخالفة لمحبوبه ومناقضة لرضاه فليس من الرضاء للعطشان أن لا يمد اليد إلى الماء البارد زاعما انه رضى بالعطش الذى هو من قضاء الله تعالى بل من قضاء الله تعالى ومحبته ان يزال العطش بالماء فليس في الرضا بالقضاء ما يوجب الخروج عن حدود الشرع ورعاية سنة الله تعالى أصلا بل معناه ترك الاعتراض على الله عز وجل إظهاراً وإضماراً مع بذل الجهد في التوصل الى محاب الله تعالى من عباده ، وذلك بحفظ الاوامر وترك النواهى ه

الأصل العاشر في ذكر الموت حقيقته

وأصناف العقوبات الروحانية

﴿ إعلم ﴾ أن المقامات التسع التى ذكرناها ليست هي على رتبة واحدة بل بعضها مقصودة لذاتها كالمحبة والرضا فانهما أعلى المقامات وبعضها مطلوبة لغيرها كالتوبة والزهد والخوف والصبر إذ التوبة رجوع عن طريق البعد للاقبال على طريق القرب ، والزهد ترك

الشواغل عن القرب والخوف سوط يسوق إلى ترك الشواغل، والصبر جهاد مع الشهوات القاطعة لطريق القرب، وكل ذلك غير مطلوب لذاته بل المطلوب القرب[1] وذلك بالمعرفة والمحبة فانها مطلوبة لذاتها لا لغيرها ولكن لا يتم ذلك إلا بقطع حب غير الله تعالى عن القلب فاحتيج الى الخوف والصبر والزهد لذلك. ومن الامور العظيمة النفع فيه ذكر الموت فلذلك أوردناه ولذلك عظم الشرع ثواب ذكره إذ به يتنغص حب الدنيا وتنقطع علاقة القلب عنها قال الله تعالى ﴿ قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ﴾ وقال صلى الله

---

(١) نعم ماقال قدوة العرفاء والادباء الشيخ سعدي الشيرازى في كتابه (بندنامه)

خوش آندل كه شيداست برروى دوست

خوش آندل كه شد منزلش كوى دوست

ونعم ماقال صاحب المثنوى حضرة مولانا جلال الدين البلخي

أي لقاى توجواب هر سؤال * مشكل از توحل شود بي قيل وقال

وهذه ترجمة البيتين :

طوبي لذلك القلب الذى عشق وجه الحبيب، وطوبى لذاك القلب الذى عند الحبيب منزله.

يامن لقاؤك جواب كل سؤال، بك ينحل كل مشكل من دون قيل وقال

عليه وسلم (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) وقال عليه السلام (من كره لقاء الله كره الله لقاءه) وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال (نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة) . ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس وقد استعلاه الضحك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (شوبوا مجالسكم بذكر مكدر اللذات) قيل وما هو قال عليه السلام (الموت) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم لما أكلتم منها لحما سمينا) وقال عليه السلام (كفى بالموت واعظا) وقال عليه السلام (تركت فيكم واعظين صامتا وناطقاً فالصامت الموت والناطق القرآن) وذكر رجل عند النبي عليه السلام وأحسن الثناء عليه فقال عليه السلام (كيف كان ذكر صاحبكم للموت) قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال (إن صاحبكم ليس هناك) وقال رجل من الانصار يا رسول الله من أكيس الناس وأكرم الناس . فقال (أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً أولئك هم الاكياس ذهبوا براحة الدنيا وكرامة الآخرة [1])

---

(١) وفي النسخة العراقية بشرف الدنيا الخ

فصل

اعلم أن الموت عظيم هائل وما بعده أعظم منه وفي ذكره منفعة
عظيمة فانه ينغص الدنيا ويبغضها إلى القلب وبغضها رأس كل حسنة
كما أن حبها رأس كل خطيئة وللعارف في ذكره فائدتان ﴿ احداهما ﴾
النفرة من الدنيا ﴿ والاخرى ﴾ السوق الى الآخرة فان المحب
لا محالة مشتاق ومعنى الشوق في المحسوسات استكمال الخيال بالترق
الى المشاهدة فان المشتاق اليه مدرك لا محالة بالخيال وغائب عن
الابصار وأحوال الآخرة ونعيمها وجمال الحضرة الربوبية مدرك
كل ذلك للعارف بعرفه[1] كأنه نظر من وراء ستر رقيق في وقت
الاسفار وضعف النور فهو مشتاق الى استكمال ذلك بالتجلي والمشاهدة
ويعلم أن ذلك لا يكون إلا بالموت . فلذلك لا يكره الموت لانه
لا يكره لقاء الله تعالى ولا سبب لاقبال الخلق على الدنيا إلا قلة
التفكر في الموت . وطريق الفكر فيه أن يفرغ الانسان قلبه عن فكر
سواه . ويجلس في خلوة[2] ويباشر ذكر الموت بصميم قلبه ويتفكر

---

(١) وفي النسخة الكردية للعارف معرفة كأنها الخ (٢) الخلوة
محادثة السر مع الحق * ونعم ماقال حضرة مولانا جلال الدين البلخي
في كتابه المسمى « مثنوي :

أولا فى أخدانه وأشكاله[١] الذين مضوا فيتذكرهم واحداً واحداً ويتذكر حرصهم وأملهم وركونهم الى الجاه والمال. ثم يتذكر مصارعهم عند الموت وتحسرهم على فوات العمر وتضييعه، ثم يتفكر في أجسادهم كيف تمزقت في التراب وصارت جيفة تأكلها الديدان، ثم يرجع الى نفسة ويعلم أنه كواحد منهم أمله كاملهم ومصرعه كمصرعهم. ثم ينظر فى أعضائه وينظر كيف تتفتت، والى حدقته كيف يأكلها الدود والى لسانه كيف يتهوّى ويصير جيفة فى فيه. فاذا فعلت ذلك تتنغص عليك الدنيا وكنت سعيداً إذ السعيد من وعظ بغيره. فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عن قريب الينا راجعون نبوؤهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنّا كلّ جائحة) *

كرشي تور استانه خم شوي * وارهي أز اختران محرم شوى
جونشوى محرم كشايم باتولب * تا ببينى آفتابي نيم شب
وهذه ترجمة البيتين: لو انحنيت بالاستقامة والحق ليلاً لسبقت الكواكب وكنت محرما. وحينما تكون محرما أفتح معك شفتي حتي ترى الشمس في منتصف الليل *

(١) وفي النسخة الكردية واقرانه

فصل

أصل الغفلة عن الموت طول الامل وذلك عين الجهل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمر رضى الله عنهما (اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ، ومن صحتك اسقمك ، فانك ياعبدالله لا تدرى ما اسمك غداً) وقال صلى الله عليه وسلم (ان أخوف ما أخاف على أمتي خصلتان اتباع الهوى وطول الامل) واشترى أسامة وليدة الى شهرين بماية فقال عليه السلام (ألا تعجبون من اسامة المشترى الى شهرين ان أسامة لطويل الامل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناى الا ظننت أن شفرىّ لا يلتقيان حتى يقبض الله عز وجل روحي ، ولا رفعت طرفي وظننت أنى واضعها حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة الا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت) ثم قال (يابنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وقال صلى الله عليه وسلم (نجا أول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل) وقال عليه السلام (أكلكم يحب أن يدخل الجنة) قالوا نعم قال عليه السلام (قصروا آمالكم واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء) ه

فصل

اعلم أن العارف الكامل المستهتر بذكر الله تعالى مستغن عن ذكر الموت بل حاله الفناء في التوحيد لا التفات له الى ماض ولا الى مستقبل ولا الى حال من حيث أنه حال بل هو ابن وقته يعني أنه كالمتحد بمذكوره لست أقول[1] متحد بالذات فلا تغفل فتغلط وتسيء الظن . وكذلك يفارقه الخوف والرجاء لانهما سوطان يسوقان العبد الى هذه الحالة التي هو ملابسها بالذوق وكيف يذكر الموت وانما يراد ذكر الموت لتنقطع علاقة قلبه عما يفارقه بالموت ، والعارف قد مات مرة في حق الدنيا وفي حق كل ما يفارقه بالموت فانه قد ترفع وتنزه عن الالتفات الى الآخرة أيضاً فضلا عن الدنيا ، وقد تنغص عليه ما سوى الله تعالى ولم يبق له من الموت الا كشف الغطاء ليزداد به وضوحا لا ليزداد يقينا وهو معنى قول علي رضي الله عنه (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا) فان الناظر الى غيره من وراء ستر لا يزداد برفع الستر يقينـا بل وضوحا فقط . فاذا ذكر الموت يحتاج اليه من لقلبه التفات الى الدنيا ليعلم أنه سيفارقها فلا يعتكف بهمته عليها ولذلك قال عليه السلام (إن روح القدس

---

(١) وفي النسخة الكردية كالمتحد لمذكور لست أقول

نفث فى روعي أحبب ما أحببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت . واعمل ما شئت فانك مجزي به) *

فصل

لعلك تشتهي أن تعرف حقيقة الموت وماهيته ولن تعرف ذلك مالم تعرف حقيقة الحياة ولن تعرف حقيقة الحياة مالم تعرف حقيقة الروح وهي نفسك وحقيقتك وهي أخفى الاشياء عنك ولاتطمع في أن تعرف ربك قبل أن تعرف نفسك وأعني بنفسك روحك التى هي خاصية الامر المضافة الى الله تعالى فى قوله ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وفي قوله ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ دون الروح الجسماني اللطيف الذي هو حامل قوة الحس والحركة التى تنبعث من القلب وتنتشر في جملة البدن فى تجاويف العروق الضوارب فيفيض منها نور حس البصر على العين ونور السمع على الاذن — وكذا سائر القوى والحواس كما يفيض من السراج نور على حيطان البيت اذا أدير فى جوانبه فان هذه الروح تشارك البهائم فيها وتنمحق بالموت لانه بخار اعتدل نضجه عند اعتدال مزاج الاخلاط فاذا انحل المزاج بطل كما يبطل النور الفائض من السراج عند انطفاء السراج بانقطاع الدهن عنه أو بالنفخ فيه وبانقطاع

الغذاء عن الحيوان تفسد هذه الروح لان الغذاء له كالدهن للسراج والقتل له كالنفخ في السراج وهذه هي الروح التي يتصرف فى تعديلها وتقويتها علم الطب . ولاتحمل هذه الروح المعرفة والامانة بل الحامل للامانة الروح الخاصة للانسان . ونعنى بالامانة تقلد عهدة التكليف بأن يتعرض لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية . وهذه الروح لاتموت ولاتفنى بل تبقى بعدالموت إمافي نعيم وسعادة أو جحيم وشقاوة فانه محل المعرفة والتراب لايأكل محل الايمان والمعرفة أصلا كما نطقت به الاخبار وشهدت له شواهد الاستبصار ولم يأذن الشرع في ذكر تحقيق صفته إذ لايحتمله إلاالراسخون في العلم وكيف يذكر . وله من عجائب الاوصاف مالم يحتمله أكثر عقول الخلق فى حق الله تعالى فلاتطمع فى ذكر حقيقته . وانتظر تلويحا يسيراً في ذكر صفته بعد الموت ٭

فصل

هذه الروح لاتفنى البتة ولاتموت بل تتبدل بالموت حالها فقط ويتبدل منزلها فتترقى من منزل الى منزل والقبر في حقها إماروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران إذ لم يكن لها مع البدن علاقة سوى استعمالها البدن واقتناصها أوائل المعرفة به بواسطة

شبكة الحواس . فالبدن آلتها ومركبها وشبكتها . وبطلان الآلة
والمركب والشبكة لاتوجب بطلان الصائد . نعم ان بطلت الشبكة
بعد الفراغ من الصيد فبطلانه غنيمة إذ يتخلص من ثقله وحمله ·
ولذلك قال عليه السلام (الموت تحفة المؤمن) وإن بطلت الشبكة
قبل الصيد عظمت فيه الحسرة والندامة والألم . فلذلك يقول
المقصر . رب ارجعوني لعلي أعمل صالحا فيما تركت . بل إن كان ألف
الشبكة واحبها و تعلق قلبه بها وحسن صورتها وصنعتها وما يتعلق
بها كان له من العذاب ضعفان ﴿ أحدهما ﴾ حسرة فوات الصيد
الذى لا يقتنص الا بشبكة البدن ﴿ والثانى ﴾ زوال الشبكة مع
تعلق القلب بها وألفه لها . وهذا مبدأ من مبادىء معرفة عذاب
القبر إن استقصيته تحققته قطعا ٥

فصل

لعلك تشتهي الاستقصاء المفضى الى التحقيق ﴿ فاعلم ﴾ أن
هذا الكتاب لا يحتمله فاقنع منه بأنموذج يسير . وافهم أن معنى
الموت زمانة البدن وأنت تعرف أن زمانة البدن خروجها عن
طاعتك مع وجود شخصها ببطلان القوة التى بواسطتها تستعمل
البدن. فافهم ان الموت زمانة مطلقة فيجميع الاعضاء ببطلان قواها

فيسلب الموت منك يدك ورجلك وعينك وسائر حواسك وأنت باق أعنى حقيقتك التى أنت بها أنت [١] فانك الآن الانسان الذى كنت فى الصبى ولعله لم يبق فيك من تلك الاجسام شيء بل انحل كلها وحصل بالغذاء بدلها وأنت أنت وجسدك غير ذلك الجسد. فان كان لك معشوق تفتقر فيه الى حواسك عظم عذابك بفراق معشوقك، وجميع ملاذ الدنيا معشوق ولا تنال إلا بالحواس ولا فرق فى عذاب العاشق بين أن يحجب عنه معشوقه وبين أن تفقأ عينه أو يسلب هو عنه بأن يحمل الى موضع حتى لا يراه فان ألمه من عدم الرؤية. ومن أحب أهله وماله وعقاره وفرسه وجاريته وثيابه يألم بفراقها سواء سلبت هذه الاشياء عنه أو سلب هو عنها بأن حمل الى موضع آخر وحيل بينه وبينها. فالموت يسلبك هذه الاشياء ويحول بينك وبينها فيكون عذابك بقدر عشقك لها. والموت يخلى بينك وبين الله تعالى ويقطع عنك هذه الحواس الشاغلة المشوشة فتكون لذتك فى القدوم على الله تعالى بقدر حبك له وأنسك بذكره. ولاجل هذا نبهك، وقال الله تعالى ﴿ أنا بدك اللازم فالزم بدك ﴾ واجمع العبارات عن نعيم الجنة أن لهم فيها ما

(١) وفى النسخة الكردية حقيقتك التي بها أنت وفى النسخة النورية حقيقتك التي أنت بها آلة

يشتهون ، واجمع العبارات لعذاب الآخرة قوله ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ ، ولا ملذ إلا الشهوة ولكن عند مصادمة المشتهى ولا مؤلم إلا الشهوة ولكن عند مفارقة المشتهى ، ولا ينبغى أن تغتر الآن وتقول ان كان هذا سبب عذاب القبر فانا في أمان منه إذ لا علاقة بين قلبي وبين متاع الدنيا فان هذا لا تدركه بالحقيقة ما لم تطرح الدنيا وتخرج عنها بالكلية ، فكم من رجل باع جارية على ظن أنه لا علاقة بينه وبينها ، فلما أخذها المشترى اشتعل قلبه بنيران الفراق واحترق بها احتراقا ربما ألقى نفسه فى الماء والنار ليقتل نفسه ويتخلص منها . فكذلك يكون حالك في القبر في كل ما يتعلق به قلبك من الدنيا ، ولذلك قال المصطفى عليه السلام (أحبب ما أحببت فانك مفارقه) ووراء هذا عذاب أعظم منه وهو حسرة الحرمان عن القرب من الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم ، وينكشف بالموت عظم قدر ما فات منه وان كان لا يعظم قدره عندك قبل الموت لان الموت سبب الانكشاف ما لم تكن المكاشفة قبله كما أن النوم سبب انكشاف الغيب بمثال أو غير مثال والنوم أخو الموت ولكنه دونه بكثير فهذان عذابان يتضاعفان على كل ميت كان غير الله تعالى أحب اليه من الله تعالى ، وكان أنسه بغير الله تعالى اكثر من أنسه بالله وهما ضروريان تعرفهما ان

عرفت بالحقيقة الروح وبقاءه بعد الموت وعلائقه وما يضاده بالطبع وما يوافقه بالطبع *

فصل

لعلك تقول المشهور عند أهل العلم أن الانسان يعدم بالموت ثم يعاد وأن عذاب القبر يكون بنيران وعقارب وحيات وما ذكرته يخالف ذلك .

فاعلم أن من قال أن الموت معناه العدم فهو محجوب عن حضيض التقليد ويفاع الاستبصار جميعاً . أما حرمانه عن ذروة الاستبصار فلا تدركه مالم تستبصر - وأما حرمانه عن التقليد فتعرفه بتلاوة الآيات والاخبار . قال الله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾ الآية هذا في السعداء ، وأما في الاشقياء فقد ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر لما قتلوا فكان يقول (يافلان يافلان) يذكر واحداً واحداً من صناديدهم (فقد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً) فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات . فقال عليه السلام (والذى نفسي بيده ما أنتم بأسمع لكلامى منهم لكنهم لا يقدرون على الجواب) . وقال عليه السلام (الموت هو

القيامة ومن مات فقد قامت قيامته) ، وأراد بهذه القيامة الصغرى والقيامة الكبرى تكون بعدها ، وشرح قيامة الصغرى ان أردته فاطلبه من كتاب الصبر من كتب الاحياء ، والاخبار في الدلالة على بقاء أرواح الموتى وشعورهم مما يجرى في هذا العالم أيضاً كثيرة *

فصل

أما قولك ان المشهور من عذاب القبر التألم بالنيران والعقارب والحيات فهذا صحيح وهو كذلك ولكنى أراك عاجزاً عن فهمه ودرك سره وحقيقته إلا أنى أنبهك على انموذج منه تشويقا لك الى معرفة الحقائق والتشمر للاستعداد لأمر الآخرة فانه نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . فقد قال عليه السلام (المؤمن فى قبره في روضة خضراء قد فُرِّج له قبره سبعين ذراعا ويضىء وجهه حتي يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا أنزلت فان له معيشة ضنكا) قالوا الله ورسوله اعلم (قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رؤس ينهشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون[1]) *

---

(١) وفي النسخة العراقية ينحشونه وينفخون في جسمه

فانظر الى هذا الحديث واعلم أن هذا حق على الوجه الذى شاهده أرباب البصائر ببصيرة أوضح من البصر الظاهر ، والجاهل ينكره إذ يقول انى أنظر فى قبره فلا أرى ذلك أصلا. فليعلم الجاهل أن هـذا التنين ليس خارجاً عن ذات الميت أعنى ذات روحه لا ذات جسده فان الروح هي التي تتألم وتتنعم بل كان معه قبل موته متمكناً من باطنه لكنه لم يكن يحس بلدغه لخدر كان فيه لغلبة الشهوات فأحس بلدغه بعد الموت، وليتحقق أن هذا التنين مركب من صفاته وعدد رؤسه بقدر عدد أخلاقه الذميمة وشهواته لمتاع الدنيا وأصل هذا التنين حب الدنيا . وتتشعب عنه رؤس بعدد ما يتشعب عن حب الدنيا من الحسد والحقد والرياء والكبر والثروة والمكر والخداع وحب الجاه والمال والعداوة والبغضاء . وأصل ذلك معلوم بالبصيرة . وكذلك كثرة رؤسه اللداغة أما انحصار عددها في تسعة وتسعين انما يوقف عليه بنور النبوة فقط . فهذا التنين متمكن في صميم فؤاد الكافر لا بمجرد جهله بالكفر بل لما يدعو اليه الكفر كما قال الله تعالى ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة﴾ وقال الله تعالى ﴿ اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ الآية ،

وهذا التنين لو كان كما تظنه خارجا من ذات الميت لكان أهون

إذ ربما يتصور أن ينحرف عنه التنين أو ينحرف هو عنه لا بل هو
متمكن من صميم فؤاده يلدغه التنين لدغاً أعظم مما تفهمه من لدغ
التنين وهو بعينه صفاته التي كانت معه في حياته كما أن التنين الذي
يلدغ قلب العاشق اذا باع جاريته هو بعينــه العشق الذي كان
مستكنا في قلبه استكنان النار في الحجر وهو غافل عنه فقد انقلب
ما كان سبب لذته سبب المه . وهذا سر قوله عليه السلام (انما هي
أعمالكم ترد عليكم) وقوله تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من
خير محضراً وماعملت من سوء تودلو أن بينهاو بينه أمداً بعيداً ويحذركم
الله نفسه والله رؤف بالعباد ﴾ بل سر قوله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون
علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أي أن الجحيم في باطنكم فاطلبوها بعلم
اليقين لترونها قبل أن تدركوها بعين اليقين بل هو سر قوله تعالى
﴿ ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ولم يقل
أنها ستحيط بل قال هي محيطة . وقوله تعالى ﴿ انا أعتدنا للظالمين
ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ ولم يقل يحيط بهم وهو معنى قول من
قال ان الجنة والنار مخلوقتان . وقد أنطق الله لسانه بالحق ولعله
لا يطلع على سر ما يقوله . فان لم تفهـم بعض معاني القرآن كذلك
فليس لك نصيب من القرآن إلا في قشوره كما ليس للبهيمة نصيب
من البر إلا في قشوره الذي هو التبن والقرآن غـذاء الخلق كلهم

على اختلاف أصنافهم ولكن اغتذاؤهم به على قدر درجاتهم ، وفى كل غذاء مخ ونخالة وتبن ، وحرص الحمار على التبن أشد منه من الخبز المتخذ من اللب وأنت شديد الحرص على أن لا تفارق درجة البهيمة ولا ترقى الى رتبة الانسانية بل الى الملكية فدونك والانسراح فى رياض القرآن ففيه متاع لكم ولانعامكم ٭

فصل

فان قلت فهل يتمثل هذا التنين تمثلا تشاهده مشاهدة تضاهى ادراك البصر أم هو تألم محض في ذاته كتألم العاشق اذا حيل بينه وبين معشوقه (فأقول) لا بل يتمثل لك حتى تشاهده ولكن تمثلا روحانيا لا على وجه يدركه من هو بعد في عالم الشهادة إذا نظر في قبره فان ذلك من عالم الملكوت . نعم العاشق أيضاً قد ينام فيتمثل له حاله في المنام فربما يرى حية تلدغ صميم فؤاده لانه بعد بالنوم من عالم الشهادة قليلا فيتمثل له حقائق الاشياء تمثلا محاكيا للحقيقة منكشفا له من عالم الملكوت والموت أبلغ في الكشف من النوم لانه أقمع لنوازع الحس والخيال وأبلغ فى تجريد الروح عن غشاوة هذا العالم فلذلك يكون ذلك التمثل تاما متحققا دائما لا يزول فانه نوم لا ينتبه منه الا يوم القيامة ويقال له (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

واعلم أن المتيقظ بجنب النائم ان كان لا يشاهد الحيـة التى
تلدغ النائم فذلك غير مانع من وجود الحية في حقه وحصول الالم
به . فكذلك حال الميت في القبر ٥

فصـــل

لعلك تقول قد أبدعت قولا مخالفاً المشهور منكراً عند الجمهور
إذ زعمت أن أنواع عذاب الآخرة تدرك بنور البصيرة والمشاهدة
إدراكا مجاوزاً حد تقليد الشرائع فهل يمكنك ان كان كذلك حصر
أصناف العذاب وتفاصيله .

فاعلم أن مخالفتى للجمهور لا تنكر وكيف تنكر مخالفة المسافر
للجمهور فان الجمهور يستقرون في البلد الذى هو مسقط رؤسهم
ومحل ولادتهم وهو المنزل الاول من منازل وجودهم ، وانما يسافر
منهم الآحاد .

واعلم أن البلد منزل البدن والقالب ، وانما منازل الروح
الانسانى عوالم الادراكات ، والمحسوسات منزله الاول والمتخيلات
منزله الثاني ، والموهومات منزله الثالث ، وما دام الانسان في المنزل
الاول فهو دود وفراش . فان فراش النار ليس له الا الاحساس
ولو كان له تخيل وحفظ المتخيل بعد الاحساس لما تهافت على

النار مرة بعد أخرى ، وقد تأذى بها أولا فان الطير وسائر الحيوان اذا تأذى في موضع بالضرب يفر منـه ولم يعاوده لانه بلغ المنزل الثانى وهو حفظ المتخيلات بعد غيبوبتها عن الحس . وما دام الانسان في المنزل الثانى بعد فهو بهيمة ناقصة انما حده أن يحترز عن شيء تأذى به مرة وما لم يتأذ بشيء فلا يدرى أنه يحـذر منه وما دام في المنزل الثالث وهو الموهومات فهو بهيمة كالفرس مثلا فانه قد يحذر من الاسـد اذا رآه أولا وان لم يتأذ به قط فلا يكون حذره موقوفا على أن يتأذى به مرة بل الشاة ترى الذئب أولا فتحذره وترى الجمل والبقر وهما أعظم منه شكلا وأهول منـه صورة ولا تحذرهما إذ ليس من طبعها ايذاؤها . وهؤلاء الى الآن تشاركهم البهائم [١] فبعد هذا يترقى الانسان الى عالم الانسانية فيدرك أشياء لا تدخل في حس ولا تخيل ولا توهم ويحـذر به الامور المستقبلة ولا يقتصر حذره على العاجلة اقتصار حذر الشاة على ما تشاهده في الحال من الذئب ومن ههنا يصير الى حقيقة الانسانية والحقيقة هى الروح المنسوبة الى الله تعالى فى قوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ وفى هذا العالم يفتح له باب الملكوت فيشاهد الارواح المجردة عن كسوة التلبيس وغشاوة الاشكال وهذا العالم لا نهاية له .

(١) وفي النسخة الدمشقية تشاركه البهائم

أما عوالم المحسوسات والمتخيلات والموهومات فمتناهية لأنها مجاورة للاجسام وملتصقة بها ، والاجسام لا يتصور أن تكون غير متناهية والسير في هذا العالم مثاله المشى الى الخيال على الماء[١] ثم يترقى منه الى المشى في الهواء. ولذلك لما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه مشى على الماء فقال عليه السلام (نعم ولو ازداد يقيناً لمشى في الهواء)

وأما التردد على المحسوسات فهو كالمشى على الارض وبينها وبين الماء عالم يجرى مجرى السفينة وفيها تتولد درجات الشياطين حتى يجاوز الانسان عوالم البهائم فينتهى الى عالم الشياطين ، ومنه يسافر الى عالم الملائكة وقد ينزل فيه ويستقر — وشرح ذلك يطول وهذه العوالم كلها منازل الهدى ولكن الهدى المنسوب الى الله تعالى يوجد فى هذا العالم الرابع وهو عالم الارواح وهو قوله تعالى ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ ومقام كل إنسان ومحله ومنزله فى العلو والسفل[٢] بقدر ادراكه وهو معنى قول علي رضى الله عنه (الناس أبناء ما يحسنون) فالانسان بين أن يكون دوداً أو حماراً

(١) وفي النسخة النورية «والسير في هذا العالم أعني عالم الخيال والوهم مثاله المشي على الماء»

(٢) وفى النسخة الكردية والتسفل

أو فرساً أوشيطاناثم يجاوز ذلك فيصير ملكا، وللملائكة درجات فنهم الارضية ومنهم السماوية ومنهم المقربون المترفعون عن الالتفات الى السماء والارض القاصرون نظرهم على جمال الحضرة الربوبية وملاحظة الوجه خاصة وهم أبداً في دار البقاء إذ ملحوظهم هوالوجه الباقي وماعدا ذلك فالى الفناء مصيره أعني السماء والارض وما يتعلق بهما من المحسوسات والمتخيلات والموهومات وهو معنى قوله تعالى ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾

وهذه العوالم منازل سفر الانسان ليترقى من حضيض درجة البهائم الى يفاع رتبة الملائكة، ثم يترقى من رتبتهم الى رتبة العشاق منهم وهم العاكفون على ملاحظة جمال الوجه. يسبحون للوجه ويقدسونه بالليل والنهار لا يفترون . فانظر الآن الى خسة الانسان وشرفه والى بعد مراقيه في معارجه . والى انحطاط درجاته في تسفله وكل الآدميين مردودون الى أسفل السافلين . ثم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يترقون منها فلهم أجر غير ممنون وهو جمال الوجه — وبهذا يفهم معنى قوله تعالى ﴿انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان﴾ الآية لان معنى الامانة التعرض للعهدة والخطر ولا خطر على سكان الارض وهم البهائم إذ ليس لهم امكان الترقي من

المنزل الثالث ولاخطر على الملائكة إذ ليس لهم خوف الانحطاط الى حضيض عالم البهائم ، وانظر الى الانسان وعجائب عوالمه كيف يعرج الى سماء العلو رقيا ويهوى الى أرض الحقارة هويا متقلداً هذا الخطر العظيم الذى لم يتقلده فى الوجود غيره فيا مسكين كيف تهددني بالعاقبة وتخوفنى مجاوزة الجمهور ومخالفة المشهور وبذلك فرحي وسروري . ان الذين يكرهون منى ذلك الذى يشتهيه قلبي فاطو طومار الهذيان ولا تقعقع لى بعد هذا بالشنان[1]

فصل

وأما مطالبتك إياى بتفصيل عذاب الآخرة وذكر أصنافه فلا تطمع بالتفصيل فذلك داعية الى الملال والتطويل . واقنع بذكر الاصناف فقد ظهر لى بالمشاهدة ظهوراً أوضح من العيان ان أصناف عذاب الآخرة ثلاثة أعني الروحانى منها حرقة المشتهيات وخزى خجلة المفضحات ، وحسرة فوات المحبوبات . فهذه ثلاثة أنواع من النيران الروحانية تتعاقب على روح من آثر الحياة الدنيا الى

(١) في القاموس ومايقعقع له بالشنان بفتح القافين يضرب لمن لا يتتصح لحوادث الدهر ولا يروعه مالا حقيقة له والقعاقع تتابع أصوات الرعد والشنان كسحاب لغة في الشنان وكغراب الماء البارد وككتاب واد بالشام انتهي

أن ينتهي الى مقاساة النار الجسمانيـة فان ذلك يكون في آخر الامر.
فخذ الآن شرح هذه الاوصاف[1]

﴿ الصنف الاول ﴾ حرقة فرقة المشتهيات فصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التنين الذى وصفه الشرع ، وعدد رؤسه وهي بعدد الشهوات، ورذائل الصفات تلدغ صميم الفؤاد لدغاً مؤلما وان كان البدن بمعزل عنه · فقدر في عالمك هذا ملكا مستوليا على جميع الارض متمكنا من جميع الملاذ متمتعاً بهـا مستهتراً بالوجوه الحسان متهالكا عليهـا مشعوفا بالامارة واستعباد الخلق بالطاعة مطاعا فيهم غافصه عدوه[2] واسترقه واستعمله على ملأ من رعيته في تعهد الكلاب وصار يتمتع بنعمه ويتمتع بأهله وجواريه بين يديه ويتصرف في خزائنـــه وذخائر أمواله فيفرقها على أعدائه ومعانديه ، وانظر الآن هل ترى على قلبه تنينا ذا رؤس كثيرة تلدغ صميم فؤاده وبدنه بمعزل عنه وهو يريد لو أن يبتلى بدنه بأمراض وآلام ليتخلص منه فتوهم هذا فربما تشم به قليلا من رائحة الحطمة التي فيها نار الله الموقدة التي لا تطلع إلا على الافئدة أعدت لمن جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده

(١) وفي النسخة النورية « الاصناف »
(٢) قوله غافصه أى فاجأه وأخذه على غرة

﴿واعلم﴾ ان عذاب كل ميت بقدر رؤوس هذا التنين وعدد الرؤوس بقدر المشتهيات فلهذا من كان أفقر وتمتعه بالدنيا أقل كان العذاب عليه أخف ومن لاعلاقة له مع الدنيا أصلا فلا عقاب عليه أصلا ه

﴿الصنف الثانى﴾ خزى خجلة المفضحات . فقدر رجلا خسيساً رذيلا فقيراً عاجزاً قرّ به ملك من الملوك ورفعه وقواه وخلع عليه وسلم اليه نيابة ملكه ومكنه من دخول حريمه وجملة خزائنه اعتماداً على أمانته فلما عظمت عليه النعمة طغي وبغى وصار يخون في خزائنه ويفجر بأهل الملك وبناته وسرياته وهو فى جميع ذلك يظهر الامانة للملك ويعتقد أنه غير مطلع على خيانته فبينما هو في غمرة فجوره وخيانته إذ لاحظ روزنة فرأى فيها الملك مطلعا عليه منها، وعلم أن الملك كان يطلع عليه كل يوم وليلة ولكنه كان يغض عنه ويمهله حتى يزداد خبثا وفجوراً ويزداد استحقاقا للنكال ليصب عليه في الآخرة أنواع العذاب صباً . فانظر الآن الى قلبه كيف يحترق بنار الخزى والخجلة وبدنه بمعزل عنه ، وكيف يود أن يعذب بدنه بكل عذاب وينكتم خزيه فكذلك أنت تتعاطى فى الدنيا أعمالا هى مشتهياتك ، ولتلك الاعمال أرواح وحقائق خبيثة قبيحة وأنت جاهل بها معتقد حسنها . فينكشف لك في الآخرة

حقائقها في صـورها القبيحة فتخزى وتخجل خجلة تؤثر عليها آلاماً بدنية . فان قلت كيف ينكشف الى أرواحها وحقائقها

فاعلم ان ذلك لا تفهمه الا بمثال فمن جملتـه مثلا أن يؤذن المؤذن فى رمضان قبل الصبح فيرى فى المنام أن بيده خاتما يختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فيقول له ابن سيرين هذا رأيته لاذانك قبل الصبح . فتأمل الآن أنه لما بعد بالنوم قليلا عن عالم الحس الجسمانى انكشف له روح عمله لكن لما كان بعد فى عالم التخيل لان النائم لا يزول تخيله بالنوم غشاه الخيـال بمثال متخيل وهو الخاتم والختم ولكنه مثال أدل على روح العمل من نفس الاذان لان عالم المنام اقرب الى عالم الآخرة . فالتلبيس فيه أضعف قليلا وليس يخلو عن تلبيس ولاجله يحتاج الى التعبير ، ولو قال قائل لهذا المؤذن أما تستحيي أن تختم أفواه الرجال وفروج النساء لقال معاذ الله أن أفعل هذا فلأن أقدم ويضرب عنقي أحب الي من أن أفعل ذلك فهو ينكره لانه يجهله مع أنه فعله لان روحه قاصرة عن ادراك أرواح الاشياء وحقائقها ، وكذلك لو أكلت لحماً طيباً على اعتقاد أنه لحم طير . فقال قائل أما تستحى أن تأكل لحم أخيك الميت فلان لقلت معاذ الله أن أفعل ذلك ولان أموت جوعاً أهون علي من ذلك فنظرت فاذا هو لحم أخيك الميت قد طبخ وقدم

اليك ولبس عليك فانظر كيف تخزى وتفتضح به وبدنك في معزل عن ألمه فكذلك يرى المغتاب نفسه فى الآخرة ولان روح الغيبة تمزيق أعراض الاخوان والتفكه بها . وفى عالم الآخرة تنكشف أرواح الاشياء وحقائقها - وكذلك لو كنت ترمي حجارة الى حائط . فقال لك قائل أما تستحي أن تفعل ذلك والحجارة ترتد من الحائط وتقع فى دارك وتصيب حدقة أولادك فقد عميت أحداقهم كلهم قلت معاذ الله أن أفعل ذلك . فقال أدخل دارك فدخلت فاذا هو كذلك. فانظر كيف تفتضح ويحترق قلبك تحسراً على عملك الذى ظننته هيناً وهو عند الله عظيم ، وهذا روح حسدك لاخيك فانك تحسده ولا تضره وتنعكس عليك ويهلك دينك وتنقل حسناتك الى ديوانه وهي قرة عينك لانها سبب سعادة الابد فهي أعز من حدقة الولد . فاذا انكشف لك هذا الروح . فانظر كيف تحترق بنيران الفضيحة وبدنك بمعزل عنه فالقرآن كثيراً ما يعبر عن الارواح ولذلك قال تعالى فى الغيبة ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ وقال الله تعالى فى الحسد ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ فيكفيك من الامثلة مثال الاذان والغيبة والحسد فقس عليه كل فعل نهاك الشرع عنه فذلك لقبح روح الفعل وحقيقته وحسن ظاهره أى ظاهره حسن للبصر الظاهر ، وباطنه قبيح

للبصيرة الناظرة من مشكاة نور الله تعالى ، وعن هذا عبر الشرع حيث قال تعرض الدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شوهاء زرقاء صفتها كيت وكيت لا يراها أحد الا ويقول أعوذ بالله منها فيقال هذه دنياكم التى كنتم تتهالكون عليها فيصادفون فى نفوسهم من الخزى والفضيحة ما يؤثرون النار عليه . وان أردت أن تفهم كيفية هـذه الخجلة، فاسمع حكاية رجل من أبناء الملوك زوج بأجمل امرأة من بنات الملوك . فشرب تلك الليلة فسكر وأخطأ باب الحجرة فخرج من الدار وضل فرأى ضوء سراج فقصده على ظن انها حجرته . فدخل الموضع فرأى جماعة نياما فصاح بهم فلم يجيبوه فظن انهم نيام فطلب العروس فرأى واحدة نائمة فى ثياب جديدة فظن انها العروس فضاجعها واخذ يقلبها ويغشاها ويجعل لسانه في فيها ويمتص ريقها متلذذاً بذلك فى سكره غاية التلذذ ويتمسح بالرطوبات التي تصيبه من جميع بدنها على ظن ان ذلك عطر ادخرته له فلما اصبح أفاق فاذا هو فى ناووس المجوس ، واذا النيام موتى ، وهذه عجوز شوهاء[1] قريبة العهد بالموت عليها الحنوط وكفنها الجديد فصادف فى فمه وانفه من رطوبات ريقها ومخاطها وعلى بدنه

(١) وفي النسخة النورية : والمرأة التي كان يجامعها عجوز شوهاء

من قاذورات اسافلها . فاذا هو من قرنه الى قدمه ممتلىء فى قاذوراتها[1] ثم تفكر فى غشيانه إياها وابتلاعه ريقها فهجم على قلبه من الخزى ماتمنى ان يخسف الله به الارض حتى ينسى ما جرى عليه ولا يزال يعاود ذكره ولا ينساه اصلا بل (تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) وبدنه بمعزل من هذه المخازى والآلام وهو فى عذاب دائم من الغثيان والقىء وتذكر تلك المخازي ويحذر ان يطلع عليه احد فيتضاعف حزنه فاذا هو بأبيه وجميع حشمه قد جاؤا فى طلبه واطلعوا على جميع مخازيه فهذه حال من تمتع بالدنيا ينكشف له كذلك فى الآخرة روحه وحقيقته وهي معني قوله تعالى ﴿ وحصل ما فى الصدور ﴾ أي يعرض عليها حاصلها اى روحها وحقيقتها وهي معني قوله تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ اى يكشف عن اسرار الاعمال وارواحها القبيحة او الحسنة وكما ان ألذ الاطعمة رجيعه اقذر وانتن فألذ تنعمات الدنيا وحاصلها وسرها فى الآخرة اقبح وافضح ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بالطعام وعاقبتها بالرجيع

﴿ الصنف الثالث حسرة فوات المحبوبات ﴾ فقدر نفسك مع جماعة من أقرانك دخلتم في ظلمة فكان فيها حجارة لايرى ألوانها

---

(١) وفي النسخة النورية : متلطخ من قاذوراتها .

فقال اقرانك احمل من هذا ما تطيق فلعله يكون فيها ما ينتفع به اذا خرجنا
من الظلمة فقلت فماذا أصنع بها أتحمل فى الحال ثقلها وأكد بنفسى
فيها وأنا لا أدرى عاقبتها ما هذا إلا جهل عظيم فان العاقل لا يترك
الراحة نقداً بما يتوقعه نسيئة ولا يستيقنه فأخذ كل واحد من اقرانك
ما أطاق أخذه وأعرضت عن ذلك تستحمقهم وتسخر بهم لانهم
ينوءون تحت أعبائه وثقله وأنت مرفه فى الطريق تعدو وتضحك
منهم فلما جاوزوا الظلمة نظروا فاذا هي جواهر ويواقيت يساوى
كل واحد الف دينار فأقبلوا على بيعها وتوصلوا بها الى الجاه والنعمة
وأصبحوا ملوك الارض فأخذوك فاستسخروك لتمهدوا بهم لينفقوا
عليك فى كل يوم قدراً يسيراً من فضلات الطعام فكيف ترى
اشتعال نيران الحسرة فى قلبك وبدنك بمعزل منه وكم تقول
﴿ ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ﴾ ﴿ ويا ليتنا نرد ونعمل
غير الذى كنا نعمل ﴾ فتقول لهم أفيضوا علينا من الماء مما أفيض
عليكم . فيقولون لك هذا حرام عليك ألم تكن تسخر منا وتضحك
علينا فلابد وان نسخر اليوم منك كما سخرت منا فلا يزال ينقطع
نياط قلبك من التحسر ولا ينفعك التحسر ولكن تتسلى وتقول
الموت يخلصنى من هذا

فاعلم ان حال تارك الطاعات في الآخرة كذلك ينكشف له

ولكن لامطمع فى الموت الخلاص بل هي حسرة ابدية دائمة والألم يتضاعف كل يوم وان كان البدن بمعزل عنه ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ وكذلك يفيض على اهل المعرفة والطاعة من انوار جمال الوجه ما يحصل به من اللذة مبلغ لا يوازيه نعيم الدنيا بل يعطي آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات كما ورد به الخبر لا بمعنى تضاعف المقدار بالمساحة بل بتضاعف الارواح كما ان الجوهر يكون عشرة امثال الفرس لا بالوزن والمقدار بل بروح المالية إذ قيمته عشرة امثاله

واعلم ان تحريم تلك اللذات وافاضتها عليهم ليس من جنس تحريم الرجل نعمه على عبده بغضب او باختيار حتى يتصور تغييره بل هو كتحريم الله تعالى على الابيض ان يكون اسود في حالة الحرارة وذلك لا يتصور فيه التبديل بل مثال ذلك ان يقول للعالم الكامل رجل شيخ هرم من الجهال الذى كان بليداً في اصل الفطرة ولم يمارس قط علماً ولم يتعلم لغة . افض على قلبي من دقائق علومك فيقول ان الله حرمه على الجاهلين معناه ان الاستعداد لقبوله انما يكتسب بذكاء فطرى وممارسة طويلة للعلم بعد تعلم اللغة العربية وامور أخر كثيرة واذا بطل الاستعداد ثبت استحالة الافاضة كما

يستحيل إفاضة الحرارة على البرودة مع بقاء البرودة فلا تظنن ان الله تعالى يغضب عليك فيعاقبك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول لم يعذبني ولم يضره معصيتي بل يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم .

واعلم ان هذه الحسرة دائمة لان منشأها تضاد صفتين لا يزول تضادهما أبداً . مثاله أن الذى يعلق بحبل في عنقه أو رجله انما يتألم لتضاد الصفتين لا لصورة الحبل والتعلق لكن صفته الطبيعية تطلب الهوى الى أسفل والمنع القهرى بالحبل يمانع الصفة الطبيعية فيتولد الالم فيه من تمانعهما فكذلك الروح الانسانى من الروح الروحانى الالهى بأصل فطرته فله بحكم الطبع حنين وشوق الى عالم العلو عالم الارواح والى مرافقة الملأ الأعلى ولكن أغلال الشهوات وسلاسلها تجذبه الى أسفل السافلين وهي شهوات الدنيا وهى صفة عارضة قهرت الصفة الطبيعية ومنعتها عن نيل مقتضاها والالم يتولد من بينهما والنار أيضاً إنما تؤلم للمضادة فان الملائم للتركيب بقاء الاتصال والنار تضاد الاتصال بالتفريق بين الاجزاء ولو لم تكن قد رأيت النار وسمعت بأن شيئا لطيفا لينا يماس بدنك فيؤلمك لاستنكرته وقلت شىء لا صلابة فيه كيف يؤلم بالمس .

واعلم أن التضاد مؤلم سواء كان بسبب خارج أو داخل فان

سم العقرب في العضو يؤلم افرط برودته المضادة لحرارة البدن فلا تظنن أن الآلام كلها تدخل من خارج فان قلت ان العقرب إنما لدغت من الخارج فاعلم ان ألم السن وألم العين لا يقصر عنه وانما سببه انصباب خلط داخل مضاد لمزاج العين والسن وليس ذلك بأهون من لدغ العقرب والحية .

واعلم أن تضاد الصفات في القلب يؤلم القلب إيلاما لا ينقص عما يؤلم السن والعين ومثاله فى أضعف الصفات أن البخيل المرائى اذا طلب منه عطية على ملأ من الناس عند من يريد أن يعرفوه بالسخاء يتألم قلبه لتضاد صفتين إذ البخل يتقاضاه أن لا يعطى وحب الجاه يتقاضاه أن يعطى وقلبه بين هاتين الصفتين كشخص ينشر بمنشار بنصفين فهذا مثال حسرة الفوت وعظمها بقدر ما ينكشف من جلالة قدر الفائت ولا تعلمه بالحقيقة فى هذا العالم بل في عالم الكشف وهو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون .

واعلم أن هذه الاصناف الثلاثة لها ترتيب ﴿فالصنف الاول﴾ الذى يلقاه الميت المعذب هو حرقة فرقة المشتهيات وذلك تنين حب الدنيا ـ ولذلك أضيف ذلك الى القبر وانما سبق هذا لان أغلب الاشياء على قلب الميت في الحال فراق ما يفوته فى الدنيا من جاه ومال ومنصب ونعمة ـ ثم بعد ذلك ينكشف له ارواح الاعمال

وحقائقها القبيحة وذلك عند الانغمار التام في الموت وبعد العهد بغشاوة صفات الدنيا ، وكلما كان اعقابه في الموت أشد[1] فهو للكشف اقبل فيفيض عند ذلك عليه الخزى والفضيحة ، ولذلك أضيف هذا الى القيامة لانه وسط بين منزل القبر وبين دار القرار ولذلك قال الله تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾

﴿ وأما حسرة فوت المحبوبات ﴾ فيستولى عليه آخراً عند دار القرار في النار ، ففيها يقول أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله وذلك أن بعد العهد عن الدنيا ربما يخفف عنه عذاب النزوع اليها ، وطول العهد بالكشف يوجب خروجه عن خزى الافتضاح فان سورة عذاب الخزى تكون عند هجوم الافتضاح، ثم يألف الفضيحة والخزى إلفاما ، ثم عند فتورهما قليلا تنبعث حسرة الفوت اذ تظهر جلالة الفوائت ثم تبقى حسرة الفوت آخراً (١) ويشبه أن يكون ذلك لا آخر له، وهذا كله تعرفه قطعا اذا عرفت نفسك وعرفت انك لا تموت لكن تعمى عينك وتصم أذنك وتفلج اعضاؤك فأما الحقيقة التي انت بها انت فلا تفنى بالموت اصلا بل يتغير حالك فقط فيبقى معك جميع معارفك وادراكاتك الباطنة وشهواتك وانما

(١) وفي النسخة النورية : وكلما كان امعانه في الموت أشد .

(٢) وفي النسخة النورية :اذ تظهر جلالة الفائت . نعم تبقى آخرا ويشبه ان يكون ذلك لاآخر له وهذا كله يعرفك قطعا عذاب الاخرة اذا الخ

تعذبك بفراق ما أحببت . وافتضاحك بظهور ماينكشف في تلك الحال وتحسرك على فوات ماتعرف عظم قدره بعد الموت لاقبله وهذا كله مقدمات العذاب الحسي البدني — وذلك أيضا حق وله ميعاد معلوم كما ورد به الآى والاخبار. فاقنع الان بهذا القدر فان هذا الكلام يكاد يجاوز حد مثل هذا الكتاب ولا بد وان يحرك سلسلة الحمقى والجاهلين ولكنهم أخس من أن يلتفت اليهم . قال الله تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾

فلنقتصر على هذا ولنختم به ﴿ ألاصول الاربعين ﴾ لنختم به كتاب(جواهر القرآن ودرره) ومن طلب مزيداً على هذا فليطلبه من كتاب ذكر الموت من كتب الاحياء ،فالغرض الاظهر من هذا الكتاب التلويحات مع التشويق الى الاستقصاء المذكور فى ذلك الكتاب ففيه تنكشف أسرار علوم الدين ولا يفتر عن طلبه الا مشغوف بالدنيا لايطلب من العلوم الا ما يتخذه شبكة للحطام وآلة لكسب الحرام فلا يناسبه علوم ذلك الكتاب ولا يناسبها أصلا البتة حسبي الله وكفى ٥

تنبيه — جاء في السطر ١٢ من الصفحة ٣٠٤ المقابلة لهذه كلمة «الفوائب» وصوابها « الفوائت » وجاء في حاشية الصفحة نفسها « نعم تبقى آخراً » والصواب «نعم تبقى حسرة الفوت آخراً »

خاتمة في مناظرة النفس

﴿ اعلم ﴾ انا قد نبهناك وشوقناك فان أعرضت عن الاصغاء
أو أصغيت بظاهر قلبك كما تصغى الى الكلام الرسمى فقد خبت
وخسرت وما ظلمت إلا نفسك ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه
فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن
يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذاً
أبدا ﴾ وان أصغيت اصغاء ذي فطنة وبصر حديد وتفكرت تفكر
من له قلب عتيد، وقد ألقى السمع وهو شهيد. فاخرج عن جميع
ما يصدك عن سلوك الصراط المستقيم، وما يصد عنها إلا حب الدنيا
والغفلة عن الله تعالى واليوم الآخر، واجتهد أن تفرغ قلبك كل
يوم ساعة عقيب صلاة الصبح وذلك عند صفاء الذهن. فتفكر في
في شأنك وتنظر في مبدئك ومعادك، وتحاسب نفسك، وتقول
لها اني مسافر وتاجر، وربحى سعادة الابد ولقاء الله تعالى، وخسراني
شقاوة الابد والحجاب عن الله تعالى، ورأس مالى عمري وكل
نفس من الانفاس كنز من الكنوز وجوهرة من الجواهر إذ تجارته
به سعادة الابد، وأي كنز أعظم من هذا، واذا فنى العمر انقطعت
التجارة وحصل اليأس، وهذا اليوم يوم جديد قد أمهلنى الله تعالى
فيه ولو توفاني لكنت أشتهي أن يرجعني الى الدنيا لاعمل صالحاً.

فاحسبي يا نفسي انك توفيت ورجعت الى الدنيا يوما واحداً ، واجتهدي في هذا اليوم الواحد ، وانظري لنفسك فان لم تمهلى للغد فقد استوفيت ربح هذا اليوم ولم تتحسري ، وان أمهلت فاستأنفى للغد مثل ذلك ولا تخدعي نفسك بتمني العفو فان ذلك ظن قد يكذب ولا ينفع التحسر ثم هب أنه قد عفى عنك أليس قد فاتك ثواب المحسنين وناهيك به حسرة وندامة[1]. فاذا قالت لك نفسك ماذا أعمل وكيف اجتهد . فتقول اتركى ما يفارقك بالموت والزمى بدك اللازم وهو الله تعالى واطلبي الانس بذكره . فاذا قالت فكيف أترك الدنيا فقد استحكمت علائقها فى قلبي . فتقول اقبلى على قطع علائقها من باطن القلب كما علمناك في الاصول العشرة من المهلكات ففتشى عن أغلب علاقة من علائقها من حب مال أو جاه أو حسب أو عداوة أو شهوة بطن أو فرج أو غير ذلك من المهلكات. فليس إلا أن تتفكر في عظم آفاتها وإهلاكها إياك . فتنبعث لمجاهدتها ومخالفة مقتضاها فقد تخلصت منها وأيدك الله بتوفيقه ومعونته . ثم تقول فقدّري أنك مريضة العمر مدة الحياة وقد أنبأك طبيب تظنين صدقه أن ملاذ الاطعمة تضرك وان الادوية البشعة تنفعك ألست تتصبرين بقوله على مرارة الدواء طمعا في الشفاء . ألست تتصبرين على الكد والتعب في السفر الطويل طمعا في الاستراحة في المنزل وأنت

(١) وفي النسخة النورية وتاتيك حسرة وندامة .

مسافرة ومنزلك الآخرة ، والمسافر لا يستريح ويتحمل التعب
والكد فان استراح انقطع فى الطريق وهلك ، وتقول يا نفس ما
الذي تطلبين من الدنيا ان طلبت المال ووجدته وهيهات فتكون في
اليهود جماعة أغنى منك ، وإن طلبت الجاه ونلت وهيهات فيكون
فى أجلاف الاتراك وحمقى الاكراد من يستولى عليك ويكون جاهه
أعظم من جاهك . فان كنت لا تدركين آفة الدنيا وشدة عذابها
فى الآخرة وبلائها أفلا ترفعين عنها لخسة شركائها أما تعلمين انك
لو أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الاخرة كنت واحدة الدهر وفريدة
العصر لا يوجد في الاقاليم نظيرك ، وان طلبت الدنيا كان في اليهود
والحمقى من سبقك بها. فأف لدنيا سبقك بها حمير. فتفكرى يا نفس
وانظرى لنفسك فلا ينظر لك أحد غيرك . وكذلك لا تزال تناظر
نفسك حتى تطاوعك على سلوك الصراط المستقيم الى الله تعالى .
فهذه المناظرة أهم لك ان كنت عاقلا من مناظرة الحنفية والشفعوية
والمعتزلة وغيرهم فلم تعاديهم وتجادلهم ولا يضرك خطؤهم ولا خطأ
غيرهم ولا هم يقبلون منك ولا أنت تقبل منهم الصواب وان صار
أظهر من الشمس وتترك أعدى عدوك بين جنبيك لا تنازعه ولا
تناظره بل تساعده على ما يطالبك به من شهواته الباطلة الباطنة .
فتستنبط بالفكر الدقيق الحيل لقضاء الشهوة هل هذا إلاّ عين
الانعكاس والانتكاس على قمة الرأس فهل رأيت قط رجلا يشاهد

تحت ثوبه حيات وعقارب أقبلت عليه لتهلكه فأخذ المروحة ليدفع الذباب عن وجه غيره فهل يستحق من يفعل ذلك الا الخزى

فاعلم ان هذا حالك فى اشتغالك بمناظرة غيرك واعراضك عن مناظره نفسك ، وفى هـذا المعرض ينكشف لك روح عملك يوم تبلى السرائر كما نبهتك على كيفية مكاشفات الآخرة بأسرار الاعمال وارواحها وما لم تناظر نفسك مدة طويلة لا تخليك لمناجاة ربك وذكره والاقبال عليه ثم طريقك مع النفس اذا خالفتك أن تعاقبها بما يزجرها، وتعلم انها كالكلب لا يتأدب إلاّ بالضرب وان أردت أن تعلم طريق مناظرتها ومراقبتها ومحاسبتها ومعاقبتها، فاطلبه من كتاب المحاسبة والمراقبة، فان هذا الكتاب لا يحتمله والله تعالى يوفقنا وإياك بفضله وجوده وكرمه الى طريق الحق وتأييده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم كلما ذكره الذاكرون أو غفل عنه الغافلون

(تم)

خاتمة الكتاب لناشره

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، يقول مصححه وناشره المفتقر الى رحمة ربه المعيد المبدى. المحتاج الى عفوه تعالى محيي الدين صبرى الكردى الكانيمشكانى السنندجي . لما كانت كتب الامام الغزالى على الاطلاق، كعلاج ناجع لدواء الاخلاق بالاتفاق ، وكان من بينها (كتاب الاربعين في اصول الدين) الذى جعله قسما مستقلا من كتابه جواهر القرآن هو الآية الكبرى فى البيان والحجة البالغة عند ذوى العرفان ومنتهى ما تصل اليه في التفصيل قوة الانسان، وكنا في زمن أحوج الى تقويم الاخلاق وتربية النفوس على الوفاق ، وفقدنا المرشد الحقيقى الصافى الجوهر النقى وكان هذا الكتاب مع ما اشتمل عليه من نفائس الحكم وجوامع الكلم قد جرّ عليه الدهر ذيل النسيان وسدل عليه ليل الجهالة رداء الاختفاء عن العيان . أتاح لى القدر ان عثرت على نسخة من أصح النسخ فوجدت (مصر) مع انتشار الكتب فيها وكثرة المطابع بها خلوا من مثل هذا السفر الذى كان حقه أن يكتب بمداد التبر . فتاقت نفسي الى طبعه وتعبيق ارجاء المكاتب بنشره فوجدت مع بعض

كبار مشايخ الاكراد نسخة قديمة من أصح النسخ منه مكتوبة فى القرن السابع الاسلامى. فاصطحبتها لاقابل ما فيها علي ما في نسختى ثم وجدت نسخة دمشقية وأخرى مصرية فصرن أربع نسخ جمعتها وقابلتها حتى استخلصت من بينها نسخة خرجت أقرب الى البرء من الخطل والسلامة من التحريف والزلل، ثم بذلت جهد المستطاع في تصحيحها ولم أدع ذرة من الافكار فى تنقيحها حتى بدت فى عالم المطبوعات درة فريدة ولحلية الافكار خريدة وحيدة وقد تم طبعها الاول سنة ١٣٢٨ هـ ولقيت من إقبال الخاصة والعامة والوعاظ على اقتنائها ما هو جدير بمنزلة الكتاب النفيس ومؤلفه الامام محيي السنة وحجة الاسلام *

وكان من حسن الحظ بعد أن نفدت نسخ تلك الطبعة أنى عثرت على نسختين مخطوطتين إحداهما غاية في النفاسة والضبط والاتقان وقد حفظتا فى خزانة كتب صاحب العزة الوجيه العالم المحقق نور الدين بك مصطفى، المسماة بالخزانة « النورية » فتفضل حفظه الله وجزاه عن العلم وخدمته أفضل الجزاء، بأن أرشدني الى نسختيه وسمح بخروجهما من خزانته الثمينة للاستفادة منهما فى أماكن الاشكال من طبعتنا الاولى كى تصلح فى الطبعة الثانية — هذه — وإن نظرة واحدة فى حواشى هذه الطبعة (الثانية) لتدل

القارى، الباحث دلالة واضحة على عظم الفائدة التى اقتطفناها من نسختى الخزانة النورية العامرة وذلك عدا ما أصلحناه فى متن الكتاب اعماداً على تينك النسختين مما لا نرى بدأ من الاشارة اليه هنا اعترافا بالفضل وتنبيهاً للقارى، الى ما بذلناه من العناية في اخراج هذه الطبعة أفضل من التى سبقتها إصلاحا وتحريراً *

﴿ أما موضوع الكتاب ﴾ فاسمه يغنى عن بيانه ، وعنوانه يكفى عن تبيانه فقد جمع مكارم الاخلاق وبث روح الحياة والوفاق فهو في نصحه مرشد عارف وفي وعظه حكيم واصف . قد سبر

الاخلاق مريضها وسليمها وقوّم المعوج منها فتراه يحدث عن

العيوب فيها كأنه المشاهد، ويحكى عن فضائلها حديث

الرائي لها والشاهد لاسيما أنه ألفه بعد ﴿الاحياء

وكيمياء السعادة ﴾ وغيرهما فهو زبدة

الكل ، وقد نجز طبع هذه الطبعة

يوم ٤ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤

هجرية على صاحبها

أفضل الصلاة

وأزكى التحية

فهرست

كتاب الأربعين في أصول الدين

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ تمت ﴾